عزيزي المستمع

عارف حجاوي

معهد الإعلام في جامعة بيرزيت

شباط / فبراير 2006

٠٧٠،١٩٤

عح ١

عزيزي المستمع

الأسس الصحافية لمهنة المذيع

مع نماذج من البرامج الإذاعية

عارف حجاوي

معهد الإعلام في جامعة بيرزيت

شباط / فبراير ٢٠٠٦

حقوق الطبع محفوظة لـ: المؤلّف، معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، مؤسسة هاينريخ بل

الناشر : معهد الإعلام في جامعة بيرزيت

الآراء الواردة في هذا الكتاب آراء المؤلف
ولا تمثّل بالضرورة موقف الناشر أو الممول

طبع هذا الكتاب بمنحة من مؤسسة هاينريخ بل

مونتاج : وليد مقبول
تصميم غلاف : رمزي الطويل

HEINRICH BÖLL STIFTUNG

MEDIA INSTITUTE - BIRZEIT UNIVERSITY

طبع في فلسطين
شباط / فبراير ٢٠٠٦

المقدمة

يذهب الطالب بعد التوجيهي إلى إذاعة مدينته ويؤكد لصاحب الإذاعة أنه شاطر في الإلقاء، وأن معلم العربي قال له إنه يقرأ الدرس (مِثْل المزيعين). ولا يسأله صاحب الإذاعة عن ثقافته ولا عن فهمه لدوره كإعلامي. المهم أن يكون قادراً على ان يصبِّح على (أعزائه المستمعين) بعبارات تفوح بعطر الفل والياسمين.

يهجم المذيع المبتديء على الميكروفون، يفترس الميكروفون، يشبع الناس ثرثرةً حريريةً في الصباح الباكر، ويشبعهم لطماً عندما يحل موعد برنامج الأسرى ظُهراً، ويحرر البلاد بكلام "وطني" قويّ في المساء.

في هذا الكتاب نحدثك عن مهنة المذيع.

يضم الكتاب عدداً من الدروس التي ألقيتُها على طلبتي في تخصص الإذاعة بجامعة بيرزيت في السنوات السبع الماضية، ونماذج من النصوص الإذاعية التي أذعْتها من عدة محطات في السنوات الخمس عشرة الماضية.

الكتاب موجّه إلى المذيع الناشيء وإلى طلبة الإذاعة، لكن فيه الكثير مما يهم القراء الآخرين.

أنت لا تستطيع أن تعلّم شخصاً قيادة السيارة بالكلام. لا بد من جلوسه خلف المقود، ومنذ الدرس الأول.

هكذا نصنع في تخصص الإذاعة في جامعة بيرزيت. نُجلس الطالبة أو الطالب خلف المقوَد، في اليوم الاول، ونقول له: البنزين على اليمين والفرامل على الشمال، وتوكل على الله. لكننا لا ننسى الأشياء الأخرى.

لا بد للإعلامي من فهم لدوره، ومن ثقافةٍ، ومن معرفةٍ بأحوال البلد. وقد فصَّلتُ القول على المهارات المطلوبة في الفصل الأول تحت عنوان: "عشر مهارات للصحافي المكتمل".

في هذا الكتاب لن أستطيع أن أعلم المذيع المبتديء الكثير عن الإلقاء، فهذا يحتاج إلى ممارسة. ومع ذلك تركت للمذيع مجموعة من الإرشادات في الفصل الرابع، تحت عنوان "صوت وصمت: الإلقاء الإذاعي".

في هذا الكتاب لن أستطيع أن أصنع شيئاً لثقافة المذيع ، سوى أن أقول له : اقرأ كثيراً ، وسافر كثيراً .

لكنني في هذا الكتاب . . أستطيع أن أبيّن للمذيع دوره . وقد حاولت ذلك في كل فصل من فصول الكتاب الخمسة .

أنظر عزيزي القاريء إلى ميثاق " أصول المهنة " في الفصل الأول ، تجدْه مكوناً من **43** بنداً . واقرأ هذه البنود وقل لي : الإذاعيون في بلدنا يلتزمون بكم بند منها؟

سأقول لك أنا : يلتزمون بستة بنود فقط من أصل الثلاثة والأربعين . إلى هذا الحد يلتزم الإذاعيون في بلدنا بأصول مهنتهم .

وبما أن ستة من ثلاثة وأربعين تساوي تقريباً **15%** ، فسوف أطلق على المذيعين في بلدي فلسطين لقب (مذيعي ال **15%**) .

بفظاظة شديدة أقول لك زميلي العزيز في المهنة : أنا أفهم جيداً الاعتبارات التجارية للمحطات ، وأعرف كيف يفكر أصحاب الإذاعات ، وكيف يتصرفون . وأعرف ظروف البلد ، وأعرف عن سفالة الاحتلال ما يعرفه كل العالم . لكنني مقتنع بأن صلاح حالنا ، في الإعلام وفي كل شأن آخر ، لن يأتيَ من الخارج بل من الداخل .

وضعت لك في هذا الكتاب نصوصاً رشيقة مبتسمة ، وموضوعات عابسة ساخطة كهذه المقدمة ، وحرصت على وجود تشكيلة طيبة من المواد فيها التسلية وفيها المعلومة والرأي .

عارف حجّاوي

رام الله–فلسطين
السابع عشر من كانون الثاني/ يناير **2006**
السابع عشر من ذي الحجة **1426**

– الفصل الأول –

الإذاعة مستمع

ما الإذاعة؟

ميكروفون يلتقط صوتك، وسلك يحمله، ثم جهاز إرسال، فهوائي يطلق صوتك في الجهات الأربع. وكل ذلك ليس من اختصاصك أيها المذيع، بل من عمل مهندس الصوت الذي يوفِّر لك كلّ شيء، وما عليك إلا أن تغرّد.

وعلى الطرف الآخر مذياعٌ موضوع قربَ السرير، وتلميذٌ منبطح على بطنه وأمامه كتاب مدرسي يحاول جاهدا أن يفهم ما فيه، وهو في أثناء ذلك يسمع.

وأنت تتكلم في الميكروفون. وإن أردت أن تريح صوتك قليلا فلا بأس بالاستعانة بصوت آخر أقل منه جمالاً، في رأيك الشخصي، وهو صوت فيروز.

لماذا يهيم بعض المذيعين بالميكروفون هياما؟ ترى المذيع إذا رأى الميكروفون انشرح صدره، ونسي المرتب الحقير، ونسي أفاعيل مدير الإذاعة، ونسي نفسه، وتحول إلى عاشق حقيقي.

هناك مذيعون يعشقون المايك، وليسوا قلة. ولكنّ الإذاعة صنعة، وهي تقتضي من صاحبها أن يعرف الكثير حتى يكون مقنعا لمستمعيه. وبما أن كل مستمع له ذوق خاص ودرجة معينة من الثقافة، فلا بد من المذيع أن يجتهد كثيراً حتى يرضي الكثيرين، أما إرضاء الجميع فأمر لا سبيل إليه.

الإذاعة تقوم أساسا على وجود مستمعٍ. وقد ينسى المذيع الموظف هذه الحقيقة البسيطة، أما المذيع العاشق فهو دائما يحس إحساسا عالياً بمستمعه، ويحرص على معرفة رأيه في أدائه.

ومما يربط الإذاعة بمستمعيها البرامج الحية التي تتلقى اتصالات المستمعين الهاتفية. ولكن هذه الاتصالات لا تشكل معيارا دقيقا، فمن بين الخمسة آلاف الذين يستمعون إليك هناك عشرة فقط يتصلون هاتفيا. وجدير بالمذيع أن يحترس من قياس أدائه بمسطرة هؤلاء العشرة. ومن وسائل الاتصال بينك وبين المستمعين ما يرسلونه من رسائل وإيميلات، وما يقوله لك جارك وأمك وزوجتك. وما يقوله لك مديرك في الإذاعة، وما تسمعه من أناس يتكلمون عفو الخاطر وبدون أن يعرفوك. كل هذه الوسائل مهمة وهي تشكل مؤشرا عفوياً على أدائك، أو أداء الإذاعة. لكنك بحاجة إلى مؤشر موضوعي. وهذا لا يتسنى إلا بعمل إحصائي.

يمكن للإذاعة أن تجريَ استطلاعات بسيطة في القرية والمدينة والمخيم . وفاعلية هذه الإحصاءات كبيرة في تحديد نسبة الاستماع إلى الإذاعة ككل بالمقارنة مع إذاعات أخرى . ولا تجري هذه الاستطلاعات في بلادنا بما يكفي ، فالإذاعات تخاف من النتائج ، وتخاف أصلا من إنفاق مال كثير على استطلاعات كهذه في ظل ميزانيات قليلة .

من الوسائل التي لم أرَ إذاعاتنا تهتم بها ، رغم أنها تكلف القليل جدا ، إنشاء نادٍ للمستمعين عبر برنامج خاص يتم بثه أسبوعيا مثلا . مثل هذا النادي لا يغني عن الإحصاءات العلميّة ، ولكنه وسيلة جيدة تشعر المستمعين جميعا بأن الإذاعة مهتمة بهم ، وتوفر للمذيع انتظاما في ردود الفعل والنقد .

يبدو أن الإذاعة ستبقى وتعيش للأبد . نعم ، لقد انقضى عصرها الذهبي ، بمجيء التلفزيون . وظلت على مدى الخمسين سنة الماضية تتلقى الضربات الموجعة من التلفزيون ، والآن من الانترنت . ولكنها حافظت على وجودها عالميا . وما دامت هناك ربة بيت تشتغل في مطبخها ، وما دام هناك عامل وسائق وكفيف سيظل هناك إذاعة .

تميل الإذاعات الرسمية إلى أن تنسى أن هناك مستمعاً . وتميل الإذاعات التجارية إلى الخلط بين المستمع والمعلن . فالمعلن هو المهم حقا بالنسبة لها ، ولكن المعلن يريد للإذاعة أن تكون ذات مستمعين حتى ينجح إعلانه . غير أن المبالغة في تلبية رغبات المعلن تجعل الإذاعة تنسى رسالتها . ومن أجل ذلك لا بد للإذاعة من أن توضح لنفسها رسالتها الاجتماعية والإعلامية ، ومن أن تلتزم بأصول المهنة .

رأيت إذاعات رسمية يكاد يختفي مستمعوها اختفاء تاماً لقلة اهتمامها بهم وبما يحتاجون إليه . ورأيت إذاعات تجارية تسقط في حضن المعلن إلى درجة فقدان احترامها لذاتها وفقدان مستمعيها .

لا بد للإذاعة من أن تكون ناجحة مع المستمع . إذا كانت إذاعة تجارية فعليها أن تحصل على العدد الكافي من المستمعين ، وعلى النوعية المطلوبة من هؤلاء المستمعين ، حتى تواصل جذب المعلنين . وإذا كانت إذاعة غير تجارية ، رسمية أو حزبية ، فهي محتاجة لعدد من المستمعين تبرر به استمرارها .

شخصية الإذاعة

لكل إذاعة نكهة خاصة . يدرك المستمع بسرعة أن هذه هي إذاعته المفضلة من طَرِيقَةِ التقديم واستخدام الفواصل الموسيقية ومن أصوات المذيعين ، الخ . شخصية الإذاعة أمرٌ يَعتني به مَديرو الإذاعات كثيرا . ولكنه في الواقع مثل شخصية الإنسان ، مهما اعتنى الإنسان بشخصيته ومقوماتها فهو قليل التأثير فيها ولا يستطيع أن يغير نفسه إلا قليلا . وكذلك الإذاعة . شخصيتها تتشكل من عدد كبير جدا من العوامل . وخير لها أن تحرص على معالجة كل عامل على حدة من أن تسعى إلى صياغة "لوك" جديد لنفسها . اللوك الجديد يتشكل ببطء وتلقائيا مع تطوير العناصر المختلفة .

الوجبة الإذاعية

سيظل النقاش بشأن التوليفة الإذاعية الأمثل قائما إلى الأبد. هل نقدم الغناء القديم أم الجديد، وبأي نسبة لكل منهما. وهل نحن إذاعة كلام وبرامج أم إذاعة أغانٍ؟ وهل التخصص ممكن في الإذاعة أم يجب أن يكون في كل إذاعة شيء لكل مستمع. أسئلة لا يوجد جواب قاطع بشأنها.

التغيير المدروس والتدريجي يحمي الإذاعة من أن تفقد وجهها وتصبح بلا وجه. ولا شك أنك تعرف دكاناً يتقلب كثيرا، فهو اليوم بقالة وغدا دكان خضار وبعد غد محل للأدوات المنزلية. هذا الدكان لا يوحي لك بالمصداقية. لكنه بصراحة أفضل من دكان فاشل ذي رفوف فارغة وديكور عتيق يجلس على بابه رجل كأنه المومياء.

ليس هناك نظرية جيدة بشأن الوجبة الإذاعية المناسبة، تماما كما أنه ليس هناك قانون بشأن الدكان الناجح.

على الإذاعي فقط أن يتذكر دائما أن تشبيه الإذاعة بالدكان تشبيه مشروع. فكما أن الدكان الناجح هو أولا زبون، فكذلك، الإذاعة هي أولا مستمع.

أصول المهنة

الإعلامي ..

- يختبر صدق معلوماته بكل وسيلة ، ويتجنب الحدس المفضي إلى الخطأ. ولا عذر لصحافي يشوه الحقيقة قاصدا
- لا يكتم خبرا أو تفصيلا ، مجاملة للحكومة أو لأي من المسؤولين
- يصحح ما وقع فيه من أخطاء
- لا يخدع الجمهور بتركيب صورة قديمة لوصف حدثٍ جديد مثلا
- يوضح للجمهور الفارق بين الحقيقة و " تمثيل الحدث "
- لا ينشر الحقائق بغرض دغدغة مشاعر الجمهور
- لا ينادي بالثأر ، سواء في سياق اجتماعي أم سياسي ، ولا يقدم منبرا لهذا الغرض
- لا يلجأ إلى التهويل باستعمال ألفاظ أو نبرة تشحن الجمهور عاطفيا دون أن تحمل معلومات
- يحمي الأطفال من المواد التي تؤثر على نموهم النفسي
- يحصل على معلوماته بطرق شرعية ، وإذا اقتضت مصلحة الجمهور الكشف عن قضية خطيرة باتباع أساليب سرية فعلى المحرر أن يتحمل تبعات مثل هذه الأساليب
- يكشف عن مصادره ما أمكن
- يؤيد إلزام كل المواطنين بمنظومة واحدة من القوانين لا تفرق بين مواطن وآخر : بغض النظر عن انتماءاته الاجتماعية أو الدينية أو ثروته أو نفوذه
- يتفهم الحساسيات الاجتماعية ، فلا يذيع ما يمكن أن يسبب أذى غير مبرر للناس. علما بأن هذه النقطة كثيرا ما تم اتخاذها ذريعة لتبرير التعتيم في الخبر الاجتماعي. ثمة منفعة للجمهور من وراء بث خبر حساس ، وبثه يعزز المصداقية الإخبارية للمحطة ، وفي مقابل ذلك هناك الأذى المحتمل. على هذا فمبررات البث أقوى غالبا من مبررات الحجب
- يكون ضد العنصرية ، والتعصب الديني. ويؤيد قضية التساوي بين المرأة والرجل في القدر ، ويحترم نصوص القانون في هذا الصدد

- لا ينتحل عمل الآخرين، أو أي جزء منه. ولا يبث مادة إلا وعليها بيان بمصدرها
- يناصر حرية الكلمة
- يناصر قضية فتح السجلات الرسمية أمام الصحافة، ويقول بوجوب أن تكون أشغال وإجراءات كل المؤسسات الحكومية والعامة علنية
- يقف بوجه الرقابة بأنواعها، حتى وإن خضع أحياناً لها بموجب القانون أو بسبب التهديدات
- يعطي الفرصة لكل الأطراف في أية قضية للتعبير عن مواقفهم
- يفرق بين الخبر الحق وبين حملات المناصرة
- يحافظ على التفريق بوضوح بين الإعلان - تجاريا كان أم مؤسسيا - وبين الخبر
- لا يقع أسيرا لرغبات المعلنين
- لا يتقاضى أي مال أو مكافأة من جهة سوى الجهة التي توظفه كصحافي
- لا يدخل في علاقة صداقة أو عداء شخصية إذا كانت هذه العلاقة تؤثر على نزاهته
- يفرق بين مهنتي العلاقات العامة والصحافة، ولا يجمع بينهما
- لا يروج لمعارفه وأقاربه مستغلا مهنته
- لا يستغل مهنته للحصول على مكاسب مادية من مصدر سوى الجهة التي توظفه كإعلامي
- يحترس من أية علاقة تحرمه استقلاليته أو جزءا منها
- يبني تحليلاته على الحقائق، ويسوق هذه الحقائق ضمن التحليل
- يحترم خصوصية الأفراد، ما لم يكن في ذلك تستر على جرائم
- يحترم مشاعر العائلات في أوقات المحن حتى لو أدى ذلك إلى تأخير بث بعض الجزئيات
- يحاسب المسؤولين بلا مجاملة، لكن باحترام
- يتجنب إثارة النعرات الطائفية أو العائلية عن سابق قصد
- يعرف ويلتزم بالقوانين التي تمنع التشهير، ويجتنب اللمز والتعريض

- لا ينشر مواد إباحية
- يخدم قضايا وطنه عن طريق نشر المعلومة الصحيحة
- يعبيء مجتمعه لخدمة القضايا الوطنية أو الاجتماعية التي يوجد إجماع عليها، مع ضرورة كونها منسجمة مع القانون الدولي الإنساني، كمعاداة الاحتلال. ومع شرط استناد هذه التعبئة إلى المعلومات وليس إلى الشحن العاطفي
- يراعي المصلحة الوطنية، ويحترم وجهات النظر السائدة في المجتمع، دون أن يثنيه ذلك عن إثارة القضايا الخلافية التي تهم المجتمع؛ مع العلم بأن تفسير "المصلحة الوطنية" لا تحتكره قوى الحكم ولا المعارضة ولا القوى الاجتماعية ولا قادة الرأي، بل تصوغه محصلة هذا كله
- لا يعتم على خبر أو جزء من خبر بسبب رغبات أفراد أو حكومات أو أحزاب
- يوضح للجمهور عدم تناوله لجانب معين من الموضوع مع إيضاح سبب هذا العجز إن أمكن
- يجتنب الإشارة إلى الشائعة إلا إذا كان ذلك يوضح الحدث، مع شرط الإشارة إلى أنها شائعة
- يواصل اكتساب المهارات التي تمكنه من أداء مهنته بكفاءة
- يضع نصب عينيه أن مهنته تقدم للجمهور ما يطلبه إضافة إلى أمور يحتاجها الجمهور ولا يعي في البداية حاجته إليها.

قدمتُ هذه الوثيقة إلى نائب رئيس مجلس الوزراء، وزير الإعلام الفلسطيني نبيل شعث في حزيران **2005** داعياً، باسم معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، إلى أن يتم تبنيها في الإعلام الرسمي الفلسطيني. وهي تشرح بالخطوط العريضة التزام الإعلامي بشكل عام تجاه الجمهور.

إن إقرار أمثال هذه الوثائق لا يصنع إعلاما حرّا وجيدا، ولكنه يضع أساساً مهما لفهم الإعلامي لدوره، ويوفر للإعلاميين نقطة ارتكاز أخلاقية.

تنطبق الوثيقة على الإعلاميين في مختلف المجالات، وقد صيغت بالاستناد إلى: رسالة الإذاعة (الصادرة عن إذاعة جامعة بيرزيت)، ورسالة هيئة الإذاعة البريطانية، وميثاق شرف المهنة الصادر عن نقابة الصحافة اللبنانية لعام **1974**، والمعايير الأخلاقية لجمعية الصحافيين المحترفين العالمية (التحديث الذي اعتمدناه يعود لعام **1996**).

عشر مهارات للصحافي المكتمل

للتخصص مزايا، وللموسوعية مزايا.

يصدق هذا في الطب وفي علم اللغة، ويصدق في كل علم، وفي كل صناعة.

وفي الصحافة تجد المتخصص في جانب محدد لا يكاد يتجاوزه إلى غيره إما تقصيرا وإما لقلة الحاجة إلى ذلك، وتجد الملم من كل روض بزهرة، الذي تضطره ظروف عمله إلى أن يصنع أشياء مختلفة، أو الذي يحب ذلك ولا يرضى أن يتخصص حتى لو أتيح له ذلك.

وقد انتقد أوائل الاشتراكيين الرأسمالية، من ناحية ميلها إلى التخصص، انتقادا الباعث عليه إنساني. قالوا إن مما يؤذي الإنسان أن يقوم بعمل رتيب متكرر طول الوقت. وإن مما يزيد من إنسانيته وسروره أن يقوم بمراحل العمل المختلفة حتى يرى في ختامها ثمرة جهده فيشعر بتحقيق الذات. ولئن كان ذهن أولئك المنتقدين منصرفا في الأساس إلى عمال المصانع ممن يعملون حركة واحدة لا يغيرونها طول نهارهم، فالنقد يصدق على مستويات أخرى.

عندما كان الأميركي بنجامين فرانكلين يصدر جريدته، قبل نحو مئتي سنة، كان يكتبها ويصف حروفها ويطبعها بيديه. كان يجمع مهنتين اثنتين بكل تخصصاتهما: الصحافة والطباعة.

واليوم عندما نتحدث عن الصحافي الشامل فنحن نعالج أمورا ظلت موضع جدل منذ القديم، والمرجح أنها ستبقى كذلك. الصحافي الشامل ليس مطلوبا في البلدان المتخلفة دون المتقدمة. المسألة ليست كذلك تماما. وقد شهدت بنفسي موجة من المطالبة الإدارية بتدريب الصحافيين ليكونوا من هذا النمط في دولة من دول الغرب الصناعي هي بريطانيا. لا بل إن تلك الموجة كان فيها مَشابِه من سلوك بنجامين فرانكلين. ولعل في تفصيل تلك التجربة الشخصية ما ينير بعض جوانب هذه المَسألة.

كنت أعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية.

عندما بدأت عملي في عام 1988 كان مطلوبا أن أترجم من الإنجليزية إلى العربية، وأن أقدم بعض التقارير على الميكروفون. سارت الأمور على هذا النحو حينا من الزمن. ثم أطلقت الإدارة شعار "الصحافي المكتمل".

كان تفسير الشعار أشمل حتى من منطوقه. صار علي ألا أكتفيَ بالترجمة والقراءة، بل أن أجري المقابلات الإذاعية السياسية الأمر الذي أخرجني من عالم المترجم والقاريء، الذي يفرض التزاما بالنص، إلى عالم الصحافي الذي لابد له من معرفة واسعة بالأحداث وبالتاريخ المعاصرِ لاثنتين وعشرين دولة عربية ولمؤسسات كثيرة، ليس أقلها أهمية الأمم المتحدة. غدا واجبا علي أيضاً أن أدير الاستديو هندسيا وأن أسجل المواد التي أقوم بإعدادها، وهنا دخلَت إلى صناعة جديدة هي هندسة الصوت، أو مهنة فني الصوت. وطلب مني أن أؤدي مهنة المذيع كاملة بما فيها من مراعاة للزمن وإعدادٍ وتقديم لعروض البرامج، وتقديم للبرامج الإخبارية. ثم كان لا بد في مرحلة لاحقة من أن أكتسبَ مهارات كافية في مجال الطباعة على الآلة الكاتبة الكهربائية، وبسرعة حل الكمبيوتر محلها وغدا لزاما علي أن أتعلم تشغيل الكمبيوتر.

رغم وجود نحو سبعين صحافيا في القسم الذي كنت أعمل به، فقد اقتضى تطور التكنولوجيا، وطموحُ الإدارة إلى رفع مستوى الأداء مع خفض النفقات، التراجعَ عن شعار التخصص لصالح شعار "الموسوعية". والآن أنظر إلى تلك التجربة، مستفيدا من مرور الزمن عليها، وأرى أن الموسوعية عززت قدرات معظم العاملين ولا سيما منهم من كان في سن الشباب، وجعلتهم صحافيين إذاعيين أفضل.

دواعي الموسوعية

بشكل عام فإن إتقان المرء علوما وصنائع شتى يجعله أقرب إلى رؤية الصورة الأعم، ويجعله أكثر إتقانا لموضوع تخصصه. ويتم التعبير عن ذلك عادة بأن فلانا يملك "سعة الأفق". ولكن التوسع قد يفضي إلى السطحية. وأرى هذا شبيها بالسفر: فكثرة الأسفار تجعل العاقل المفكر أعمق، وتجعل الأهوج السطحي أكثر سطحية.

تفرض الجامعات على طلبتها مساقات دراسية لا تتعلق بتخصصهم، وهي بهذا تعبر عن يقينها بأن التوسع يخدم العمق أيضاً. إنك لو أردت أن تحفر في حديقة بيتك حفرة عميقة فلن تستطيع تعميقها كثيرا إلا إذا وسعت فوهتها.

وقد رأيت التوسع مفيدا في الصحافة أكثر منه في علوم وصنائع كثيرة. فتخصص الصحافة في الجامعات مثلا ليس فيه مواد تعليمية كثيرة يحتاج الصحافي المتدرب إلى أن يتعلمها. فكل صحافي يتعلم في الأيام الأولى من درسه الصحافة الحكم الثمينة التي توصّل إليها أهل الصناعة في الماضي من قبيل الأسئلة الستة: من متى مإذا لماذا كيف أين، ثم لا يبقى شيء كثير من العلم النظري. يبقى طبعا التدرب واكتساب المهارات المختلفة، والازدياد من المعرفة، ولا سيما ما يحتاج إليه الصحافي أكثر من غيره.

التخصص الزائف

يباهي بعض أصحاب المصالح الصحافية بارتفاع مستوى التخصص في مؤسساتهم مباهاة ليست دائما في محلها: فهذا خبير في التركيبات الغرافية لا يصنع شيئا سواها، وذاك مصور تلفزيوني ليس له معرفة بالإضاءة ولا بالسياسة ولا باللغة. ذلك ليس مما يُباهَى به. فالعقل الإنساني قادر على استيعاب الكثير، ومن قلة الحيلة ألا نطالبه بالتوسع مع التعمق. في كثير من المؤسسات الحكومية نشهد ظاهرة التخصص الزائف. وهي تؤدي إلى توظيف أشخاص كثيرين لتسليك عمل دائرة معينة، مع أن عددا أقل بكثير يمكن أن يقوم بالعمل لو كان لديهم المعرفة والمهارات اللازمة. التخصص الزائف مفتاح الكسل، وعلامة على التبذير وسوء الإدارة.

الموسوعية الزائفة

قد يرى المرء محطة تلفزيون يعمل بها عدد قليل من الأشخاص: كلهم يصور، ويجري الحوارات، ويشتغل بالمونتاج، ويصلح أجهزة البث. من المؤكد أن مستوى الأداء في كل مهمة سيكون أقل مما لو توفر التخصص. ولعل الوصفة التي تحقق التوازن هي أن تتوفر الموسوعية مع وجود حقل اختصاص في الوقت نفسه، وعند كل شخص، كأن يكون الشخص متخصصا في التصوير التلفزيوني ولكنه قادر على أداء أعمال أخرى وقت الحاجة.

في كل وضع وزمن هناك قياس مختلف لدرجة التخصص المطلوبة. في الماضي كان نيوتن وغاليليو موسوعيين، وفي زمننا لا نكاد نجد أحدا من العلماء يصل إلى اختراع أو اكتشاف بمفرده. لقد زاد كثيرا تطور العلم ولكن اختفت أسماء مشاهير العلماء، فهم يعملون ضمن فرق كبيرة فيها تخصصات مختلفة.

وفي الصحافة قد يحتاج المرء إلى أن يكون بارعا جدا في موضوع بعينه حتى يشتغل في جريدة كبيرة. ولكنه يجب أن يكون ملما بمواضيع كثيرة إذا أراد أن يعمل في جريدة محلية صغيرة.

في فلسطين

هناك مجال للتخصص في فلسطين. هناك طلب على الأخبار السياسية والميدانية، ولا سيما من قبل الفضائيات والوكالات. ولكن، ليس في مقدور كل صحافي أن يجد الفرصة للعمل مع فضائية أو وكالة أنباء تطالبه بشيء واحد فحسب وتعفيه من اكتساب مهارات مختلفة.

حتى في الفضائيات ووكالات الأنباء فإن الصحافي السيء الذي تنحصر مهاراته في الشطارة والعلاقات العامة والخاصة واقتناص الأخبار والإسراع في نقلها، ينكشف سريعا.

المهارات العشر

تحدثنا النادرة، أو لعلها الأسطورة، أن يونس بحري - الإذاعي العراقي المشهور الذي كان يعمل في إذاعة برلين قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية موظفا في الجهاز الدعائي لغوبلز وزير الدعاية النازي - كان إذا علقت أسطوانة القرآن في الفونوغراف رفع الإبرة برشاقة وأكمل التجويد بنفسه، فلا يشعر المستمع بأن شيئا قد حدث. وهذا يقتضي أن بحري كان يحفظ القرآن، وأنه كان يقرأُه مجودا بإتقان يقرب من إتقان المقريء المتخصص.

هذه الحكاية، وقد سمعت إذاعيين يرددونها بإعجاب، تشير إلى الاحترام الذي يتمتع به المذيع الموسوعي. كان يونس بحري، بعيدا عن الحكايات التي لا نملك لها توثيقا، واسع الاطلاع مثقفا حقا. ولكن كما رأينا فقد وضع كل هذه القدرات بين يدي نظام ديكتاتوري عنصري. فلنبدأ إذن بتعداد مهارات الصحافي بالرسالة:

1- **فهم الرسالة:** على الصحافي أن يعرف جمهوره، وأن يعرف واجبه إزاء هذا الجمهور. فالذي يوجه خطابا إعلاميا لعدوه، وهذا في رأينا هو ما يفعله مذيعو إذاعة إسرائيل باللغة العربية، يختلف عمن يوجه كلامه لأبناء بلده، كما يفعل مثلا محرر الأخبار بجريدة القدس، وعمن يخاطب جمهورا مركبا كمراسل الفضائية. قد يضطر الصحافي إلى عدم الالتزام تماما بمبدأ " قل الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق" . فترى أجهزة إعلام وطنية تمنع الصحافي العامل معها من تغطية بعض المشاكل في داخل البلد، فهو عندئذ لا يقول " كل" الحق. وترى المذيع في راديو إسرائيل يردد أمورا معينة في نشرة الأخبار وهي ليست أخبارا، يرددها لأن جهاز المخابرات يريد شن حملة تشويه لسمعة قائد معين مثلا، فالمذيع هنا يقول أشياء "غير الحق" . وترى محمد سعيد الصحاف لا يقول "الحق" أساسا. هناك فرق بين مؤسسة صحافية تخدم الوطن، وأخرى تخدم الحكومة، وثالثة تخدم جناحا معينا داخل الحكومة. وقد أفضل مؤسسة رابعة وأقدمها حتى على التي تخدم الوطن: مؤسسة صحافية تلبي حاجة المواطن للمعلومات والأخبار.

من أهم مشكلات صحافة الدول المتخلفة أنها لا تهتم كثيرا بمعرفة جمهورها وبمخاطبته بصدق وإعطائه ما يحتاج إليه من معلومات. وفهم الرسالة وتمثلها يحتاج إلى تدريب وإلى غير قليل من الجهد الأصلي في صياغة الرسالة.

2- **اللغة الأم:** يحتاج الصحافي إلى إتقان لغته الأم بحيث يؤدي بها المعاني بدون خطأ، وبدون أن يضطر إلى تغيير ما يريد قوله فقط لأن اللغة لا تطاوعه. صاحب اللغة السليمة ترتفع مصداقيته. ويحتاج الإذاعي من النحو والصرف إلى أكثر مما يحتاج إليه الصحافي الكاتب. وقد يحتاج إتقان العربية إلى زمن طويل ممن لم ينشأ على الفصحى، وقد رأيت صحافيين شاخوا في المهنة ولما تعتدل العربية على ألسنتهم أو على سن قلمهم. لغتنا الفصحى هي لغة أجنبية نكتسبها في الأكثر تعليما لا فطرة. ومشكلتنا، نحن العرب، مع اللغة أكبر من مشكلة أقوام آخرين.

3- **اللغة الأجنبية:** لم يعد الصحافي جديرا بالترقي في مهنته إن لم يكن يملك زمام لغة أخرى مهمة صحافيا. وخير لغة ثانية للصحافي الفلسطيني الإنجليزية، تليها فيما أرى العبرية. وتعلم اللغة الأجنبية إلى درجة تصبح معها مفيدة كمصدر للمعلومات أمر يحتاج إلى زمن وجهد خاص. بلدنا في وسط العالم، وهو محط اهتمام العالم، ولا سبيل إلى التغاضي عن ضرورة إتقان اللغة الثانية. لا أريد أن أنفق وقتا طويلا وأنا اشرح ضرورة اللغة الثانية، ولكنني أود أن أؤكد لمن يستمع إلي من طلبة الصحافة أن الوصول إلى فوْق في المهنة لن يتم أبدا بدون لغة أجنبية.

4- **الكتابة:** ليس سهلا أن يتعود المرء الكتابة السهلة التي ليس فيها تزويق ولا كليشيهات. ليس سهلا أن ينتقل المرء من موضوع الإنشاء - الذي تراه معظم مدارسنا عبارة عن كتابة مزوقة فارغة من المعنى - إلى الكتابة الصحافية الجيدة. أهم معلم للكتابة الجيدة قلم رئيس التحرير الذي يشطب بلا هوادة.

5- **الثقافة العامة:** الصحافي قد يعمل في الأخبار أو في تحرير الصفحة الثقافية أو في تقديم وإعداد البرنامج الصحي في الإذاعة. لا غنى عن الثقافة العامة، حتى لمن يعمل في الأخبار. الثقافة العامة تضم الموسيقى، وقد رأيت مذيعين يعملون في إعداد البرامج الموسيقية وهم لا يحبون الغناء ولا الموسيقى ولا يفقهون شيئا في الموضوع، ورأيت كيف تخرج من بين أيديهم برامج سيئة. الفنون التشكيلية جزء من الثقافة. العلوم الطبيعية جزء من الثقافة. والجغرافيا فرع من الفروع لا غنى للصحافي بحال عنه. وفي الجغرافيا جانب بسيط يهم الصحافي كثيرا وهو تصور الخريطة في الذهن. إن معرفة الخريطة تمثل إطارا مهما يضع الصحافي فيه معلوماته عما يجري في العالم.

6- **معرفة البلد:** على الصحافي أن يعرف ما بالبلد من مؤسسات وأفراد. وأن يتعمق في فهم دورها ونشاطاتها، وأن يعرف الأمور السلبية أيضاً. ففي الصحافة إذا بُنيت عمارة فهذا ليس خبرا، أما إذا انهارت عمارة فهذا خبر. إن معرفة الصحافي بمواطن الخلل في بلدية أو وزارة يساعده في تغطية انهيار العمارة، أو استقالة الوزير، أو الفضيحة المالية إلخ.

7- **أساس المهنة:** كيف يجري الصحافي الإذاعي مقابلة ناجحة، وكيف يجعل سؤاله قصيرا واضحا مفردا منتهيا، لا طويلا غامضا مزدوجا يجر نفسه جرا حتى يتبرع الضيف بمقاطعة الصحافي السائل؟ هذه ليست موهبة. إنها مهارة قائمة على معرفة. يحتاج الصحافي إلى أن يتدرب، وإلى أن يسمع نفسه، وأن يسمع انتقادات رؤسائه. عليه في مجالات شتى أن يصل إلى معرفة الأسس، ثم أن يحول معارفه إلى مهارات، ثم أن يحول مهاراته إلى سلوك يأتي طبيعيا تلقائيا. من الأسس التي قد يجدها الصحافي في الكتب ما يتعلق بالموضوعية والحياد ونكران الذات، بحيث لا يعطي الصحافي رأيه هو، ومنها طريقة التعامل مع استطلاعات الرأي، وكيفية تغطية الانتخابات، وكيفية التعامل مع الأطفال، ومنها قانون التشهير وكيفية الالتزام به لكن دون الخوف الذي يجعل الصحافي مشلولا غير قادر على تغطية شيء. ومن قواعد المهنة معرفة كيفية الجمع بين المعلومة والخبر والتسلية جمعا ناجحا. هذه الأمور تعلمها الجامعة، ولكن خير من يعلمها المؤسسة الصحافية القوية المحترمة في خضم العمل وفي ورشات خاصة يتم عقدها. ولم أجد جامعات بلادنا تعلم أساس مهنة الصحافة جيدا، وأما عن مؤسساتنا الصحافية فلم أجد القوية المحترمة بعد.

8- **المهارات التقنية:** كما سبق أن أوضحت في مثال سابق، فإن الإذاعة تقتضي معرفة بالأجهزة المختلفة وبالكمبيوتر. هذا ينطبق على فروع الصحافة الأخرى بدرجات وبحسب الفرع. على أن إتقان العمل على الكمبيوتر والطباعة واستعمال الانترنت غدت من أساسيات كل شيء.

9- **المتابعة:** الشاعر الحالم الذي يقرأ الدواوين والروايات، ثم لا يعرف في الدنيا شيئا آخر مخلوق رأيناه يطرق أبواب الصحف، ورأيناه يصر على وجوب أن يحتل أرفع المناصب، ورأيناه أحيانا يطالب بأن يكون محرر الصفحة الأدبية. لا ينفع. لا ينفع حتى للصفحة الأدبية. فالصفحة الأدبية - نعم حتى الصفحة الأدبية - هي خبر ومتابعة، وليست لمجرد نشر الأشعار والخواطر. على الصحافي أن يكون عارفا بما يجري، وأن يقرأ الجريدة كل يوم، وأن يتابع التطورات في كل العالم ولا سيما في بلده. وعليه أن يتابع الشائعات وهمس الكواليس، وهو مطالب طبعا بتجاهل كل ما لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، ولكن الشائعة قد تكون نابعة من مكان يوجد فيه خبر ما.

10- **السرعة والإحساس بالزمن:** قد لا يرضى الصحافي عن تقريره، لا من ناحية الصياغة ولا المعلومات المتوفرة ولا الشمول، ولكنه في النهاية مطالب بتسليمه في الموعد، والتقرير إذا بات مات. قد يكون على الصحافي أن يحذف ما لم يتمكن من تأييده بالمصدر الملائم، وأن يقدم مادة غير مترابطة في صياغتها كل الترابط. لكنه دائما يجب أن يكون سريعا في العمل، وشديد الحساسية تجاه

الموعد (موعد إذاعة البرنامج، أو موعد دفع المادة للمطبعة).

عشر مهارات. لكن لو كددت الذهن لكنت خرجت بثلاث أو أربع أخر. إعداد الصحافي يحتاج إلى سنوات كثيرة. وقد رأيت عددا من خريجي الصحافة يتحدثون عن أنفسهم وكأنهم صحافيون، ورأيتهم يشتكون شكوى مرة لأن أصحاب المؤسسات لا يوظفونهم. ثمة صحافي وصحافي. ومن أراد من الصحافيين الجدد أن يعرف قدر نفسه فلينظر إلى المهارات العشر المذكورة أعلاه.

قدمت هذه المحاضرة في مؤتمر بجامعة بيرزيت في أيار/ مايو **2003**.

بارقة أمل

المراهقون

عزيزي المستمع ، أُحدثك اليوم عن أبي لطفي . وقد سمّوْهُ أبا لطفي لأنه يَضْوي ويَطفي . وأبو لطفي هذا أحمله دائماً في جيبي ولا يفارقني طول النهار والليل ، وهو مزعج أحياناً : أكون قد خلدتُ إلى الراحة بعد الظهر فيبدأ بدندنة نغمات لأغنية مشهورة . وأكون في السيارة مع ركاب آخرين فيفضحُني . . يبدأ بالرقص في جيبي ، وما إن أعالجه بعض المعالجة حتى يأخذ بالرنين العالي . وهو كذلك مسرفٌ شديدُ الإسراف ، يبتلع المال ابتلاعاً . وقد قررت في النهاية أن أهديَه للجار ، وأستعيضَ عنه ببشار . وبشارٌ أثقلُ بعض الشيء وهو على الأقل يخلو من الأضواء الملونة . لكنه يماثل أبا لطفي في الإسراف .

بصراحة كل التلفونات المحمولة تتعب القلب وتتعب الجيب ، ولكن لا غنى عنها . إنها مثلُ المراهقين .

يسمى المراهق بالإنجليزية **Teenager** ، ومعناها الشخص الذي في عُمْر التين . والتين ليس هو الثمر المعروف ، بل تلك اللاحقة التي تُلحَق ببعض الأعداد في الإنجليزية . فـ**Thirteen** معناها ثلاثة عشر و **Nineteen** معناها تسعة عشر . وكل الأعداد التي بينهما فيها لفظة (تين) . وعلى ذلك فقد نابت اللغة عن علماء التربية في تعريف سن المراهق : إنه الشاب أو الفتاة بين عمر ثلاثة عشر وتسعة عشر .

ونحن في اللغة العربية نسمي هؤلاء الصبايا والشباب مراهقين ليس لأنهم مرهِقون ولا لأنهم مُرْهَقون بل لأنهم " راهقوا " البلوغ أي " اقتربوا من " البلوغ واكتمال الجسم والعقل . وكانوا في القديم يقولون صلّى فلان المغرب مراهِقاً ، أي أنه صلاّها وقد اقترب إذانُ العِشاء . فالمراهَقة في اللغة هي الاقتراب .

هموم المراهق كثيرة : جسمه يتغير ، والإفرازات الهرمونية في جسمه تتبدل ، وقد ينشأ عن ذلك حبُّ الشباب بالإضافة إلى مشاعر متناقضة . يشعر بالخجل والتردد والتمرد . والفتاة تشعر بثورة على القيود وعلى التمييز في داخل البيت بين الذكر والأنثى .

لكنّ هناك جزءاً من القلق الذي يشعر به المراهقون يأتي نتيجة للتفكير في المستقبل . طبعاً بعضُ المراهقين لا يفكرون كثيراً في المستقبل ومسؤولياته لأنه بعيدٌ جداً كما يبدو لعيونهم . ولكنْ ، عدمُ التفكير ليس معناه عدمَ الشعور .

إنه يُحسّون إحساساً خفيّاً بضرورة تحقيق شيء . هذا هو الطموح . ويصطدمون برؤيةٍ جاهزةٍ لمستقبلهم يريد الأهلُ أن يفرضوها عليهم .

من هنا تنشأ بعض الصراعات: الأهل يقدِّسون العلامات ويعُدّون الإنجاز المدرسي المقياسَ الوحيد. ولذلك فهم لا يشجعون المراهِقةَ والمراهق على التفاعل الاجتماعي ولا على ممارسة الهوايات. الرؤية عند الأهل سطحية: علامات.. نجاح.. تفوق.. جامعة.. وظيفة. والرؤية عند المراهق غامضة. إنه لا يعرف ماذا يريد. فهل نلومُ المراهق؟

الشاب والفتاة فيما بين الثلاثة عشر والتسعة عشر يريدان أن يجرّبا كلّ شيء. وهذا جيد ويساعدهما في اختيار طريقٍ في هذه الحياة.

وفي بلادنا يزيد الوضع السياسي المضطرب من مشكلات الشباب. فالفرص قليلة، والمستقبل لا يبشر بخير. رغم كل شيء.. ورغم الوضع الصعب فإن المراهق يكبر ولا بد له من دخول معترك الحياة. على الأهل أن يشجعوا الأبناء على اكتساب المهارات المختلفة في سن المراهقة، فهذا يسّهل على الشباب لاحقاً إيجاد فرص العمل وتحقيق ذواتهم. هذا التشجيع لا يمكن أن يتم إذا أصرّ الأبوان على التعامل مع أبنائهم بالأوامر والنواهي وبالتكشير والزجر. نقول للأب والأم: حتى لو وقعت مشكلة.. وحتى لو كان هناك صراخ.. لا تقطعا شعرة معاوية. لا تدخلا مع الأبناء في علاقة تكسير رؤوس. وفي الواقع فإن أي غلط يحدث في العلاقة يكون دائماً بسبب عناد الأهل وقلة تحملهم لمزاج الابن المراهق أو الابنة المراهقة.

خير لنا أن نتحمل كل شيء من المراهق، لأنه في النهاية سيعود إلى حضن العائلة شاباً محباً فاعلاً وناجحاً. إنه باختصار.. بارقةُ الأمل.

تنظيم الأسرة

عزيزي المستمع، لستُ شيخاً جليلاً ولا عالماً. وعلى هذا الأساس فلن تأخذ مني فتوى ولن أعطيَك نتيجة اختراع اخترعته. أنا متحدث إليك عن أشياءَ عرفتُها من أصحاب العلم، وسأنقل ما أعرف بأمانة. كما أن لي رأياً في المجتمع والناس، ولن أوفّره لنفسي بل سأصارحك به. ولك عليّ ألاّ أحدثَك بشيء إلا وأنا مقتنع به. وحديثي عن تنظيم الأسرة حديثُ مقتنع، وحديث ناقل للمعلومات من مصادرها الصحيحة.

يحثنا الدين الإسلامي على المباعدة بين الولادات حتى يتاح للطفل أن يرضع سنتين إن كان في طاقة الأم ذلك. ويطالبنا الدين بقوة أن نكون مسؤولين عن أبنائنا وبناتنا. وقد أفتى الأئمة في زمننا هذا بأن المسؤولية الحقة تقتضي أن نحسن تعليم النشء وأن نعطيَهم فرصةً أفضل من الرعاية والحنان في البيت،

ومعنى هذا ألاّ يخلِّف الزوجان عدداً كبيراً وألا يتلاحق الأولاد بحيث تُرهَقُ الأم والأب. وتجنُبُ الحمل بالطرق المعروفة أمرٌ أباحه الفقهاء. ولكن المشكلة ليست في الفقه ولا في الإمكانيات الصحية. فالفقيه قد سمح لنا، والطبيب أو العيادة المختصة قادرة على تزويدنا بالمعلومات وإرشادنا إلى الطريقة الفضلى. المشكلة هي أن بعض خلق الله يفكرون بطريقة خطأ وتعشش الأوهام في رؤوسهم.

أم العبد مثال ممتاز: إنها تتسابق مع جارتها. وأما أبو العبد فهو يشجّعها ويقول: "الولد يأتي ويأتي رزقه معه، والولد يربي أخاه وأخته. واحد يربي الآخر، ولا نشعر بهم". وعن قضية الرزق نحن نقول له: خطأ. فرزْقتُك يا أبو العبد محدودة وشغلُك محدود. والله هو الذي يوزع الأرزاق.. وقد رَزَقك العقل فعليكَ أن تستعمله. ستربي أولادك الستة وأنت تركض طول النهار على لقمتهم ولن يشعروا بحنانك. ولو كان عندك ثلاثة مثلاً لكنت قادراً بشكل أفضل على كسوتهم وملء بطونهم ومنحهم التربية الأفضل. الحارة لا تربي الأولاد جيداً. والأولاد لا يربي أحدهم الآخر.

هناك قضية أخرى في كثرة الخَلَف: الناس يعتقدون أن هذا الأمر سينصرنا في مساعينا الوطنية للاستقلال. أنا لا أعتقد أن هذا صحيح أبداً. مع فهمي الكامل لحقيقة أن الجانب الآخر متخوف جداً من زيادة السكان عندنا، نعم الإسرائيليون متخوفون من الزيادة السكانية عندنا، ولكنّ هذا التخوف لا يعني أننا سنحقق ما نريد بسبب قوتنا العددية. برأيي أن ما يساعدنا على تحقيق أمانينا الوطنية هو أن يصبح شعبُنا متميزاً بشكل نوعي: أن يصبح فاعلاً في المجال العلمي والسياسي والنقابي والصناعي.. هذا يجعل القوى الأخرى غير قادرة على تجاهل مطالبنا. أما الشعب الذي هو مجرد كمية سكانية فيصبح ضعيفاً في المطالبة بكيان مستقل ذي سيادة. نريد من أم العبد وأبو العبد أن يخططا لأسرتهما: بعد المولود الأول سيتأكدان أنهما.. ما شاء الله.. شغّالان وليس هناك مشكلة عقم.. الحمد الله. لكن عليهما ألا ينسيا التخطيطَ للمستقبل.. حتى تكون هناك بارقةُ أمل.

الجنس

عزيزي المستمع، أنت تتذكر درسَ العلوم الذي قال لنا المعلم أدرسوه وحدكم في البيت؟ طبعاً تتذكر. وتتذكر أيضاً أنك درسته جيداً من دون الدروس الأخرى. رغم أنه لم يكن داخلاً في الامتحان.

كان اسم الدرس (الجهاز التناسلي). وحديثي اليوم هو عن الجنس. لكنْ لا تسارع بتغيير المحطة.. لا تشعرْ بالحرج.. حتى وإن كنت تستمع إلى هذا البرنامج مع شخص آخر. لن أحرجك. سيكون كلامي عاماً وبدون إحراج وبدون تفصيلات.

قبل أعوام عديدة أشرفتُ على برنامج إذاعي اسمه "عن الجنس بصراحة" وكان صريحاً فعلاً. أتدري! لقد بعث المستمعون آلاف الرسائل للبرنامج. وفي دورة برامجية أخرى أشرفت على برنامج عن البيئة اسمه "الدنيا حلوة". وجاءتنا بضع رسائل فقط.

ما الحكاية؟ هل صحيح أننا نحن العرب مهووسون بالجنس. أو كما عبّر عن ذلك أديب عربي يعيش في باريس عندما قال: "يا جنس اهرب.. العرب وراءك"؟

إنها خرافات.

نحن ككل شعوب الأرض عندنا نكتٌ على الجنس، وعندنا خوف منه، ورغبةٌ فيه. وهو يمثل لغزاً. وهذا في رأيي شيء طبيعي لأن الجنس هو سبب الحياة. الجنس عندنا مسموح به فقط في إطار الزواج. هكذا يأمرنا الدين والمجتمع. فماذا نقول للفتاة التي تأخر زواجها أو التي لم تتزوج أبداً. وماذا نقول للشاب الذي لم يتزوج؟ وللأرملة والأرمل، والمطلقة والمطلّق. نقول لهم جميعاً: الحياة واسعة، مليئة بما يسُر القلب، والجنس عنصر واحد من عناصرها.

قد يقضي الشاب والفتاة سنوات بعد البلوغ بدون زواج. والأفضل أن يسعى كل شخص إلى ملء هذه السنوات بالنشاط المفيد: بالتعلم والدراسة وبتطوير نفسه في عمله ومهنته والتقدم في وظيفته. وبممارسة الهوايات وبتطوير حياته الاجتماعية بين الأصدقاء والأقارب. على الشاب ألا ينسى نفسه ويغرق في تفكير متواصل في الجنس. الحياة شديدة التنوع، ومباهجها كثيرة.

المتزوجون عندهم مشكلاتهم في الجنس. وهي مختلفة. أولاً مشكلة الملل. ويمكن معالجتُها بكسر الروتين. وهناك مشكلة الخوف المستمر من الأمراض الجنسية. الحل بسيط: الوفاء والالتزام. ونقول للزوجين بعد ذلك: ليس عندكما أية مشكلة، فالأمراض الجنسية لا تنتقل في الهواء ولا عند استعمال الحمامات أو ارتداء ملابس تخص شخصاً آخر ولا عن طريق أدوات الطعام في المطاعم أو في بيوت ناس آخرين.

الأمراض الجنسية تنتقل عن طريق الجنس، أو عن طريق نقل دم ملّوث بجراثيم المرض. لذا فالوقاية منها سهلة. ولكنْ، إذا حدث وأصيب أحدُ الزوجين بمرض جنسي فعليه أن يسرع إلى الطبيب. هذه مسألة ليس فيها خجل. المرض الجنسي خطر ومزعج معاً. وقد يؤدي إلى العقم وإلى إصابة الشريك وحتى إصابة المواليد الجدد. أسوأ ما في الأمراض الجنسية أنها تسبب للإنسان الحرج بالإضافة إلى الخوف من النتائج. نقول للمرأة قبل الرجل: لا حياء في الطب. اذهبي إلى الطبيب وهو متعوّد على هذه الحالات كثيراً، ولن يلومك ولن يعاتبك. بل سيعالجك. وللمراهقين نقول: الإثارة الجنسية

والعادات المرافقة لها ليس فيها أي ضرر على الجسم . . على الإطلاق . لكنها تجعل شخصية الشاب مرتبكة فعليكم أن تقللوا منها أو أن تبتعدوا عن الإثارة . قولوا لأنفسكم : الحياة حلوة . . وهي مليئة بالأشياء الأخرى ، هنا تكمن بارقة الأمل .

صبيان وبنات

عزيزي المستمع ، مجتمعنا عنده مصيبة . استعّد نفسياً لكي أحدثك عنها . تبدأ من مسّبات الشوارع البذيئة . طبعاً أنتَ لا تتوقع أن أذكر لك هذه المسّبات على الراديو . . ولكنك تفهمُ ما أعني .

أنا أعني بالذات المسبات الوسخة . السافلة جداً . وفهمكم كفاية . هل تريدُ مثالاً؟ لا تحلمْ بذلك .

المسبات التي تعرفها وأعرفها تركّز على الجنس . فلماذا يستخدم الرجال هذا النوع من المسبات؟

إنهم يظنّون أن الجنس متعة للرجل وعقاب للمرأة . إنهم يعتبرون جسم المرأة عورة والجنس بالنسبة لها فاحشة . وأما جسم الرجل والجنس بالنسبة له فهو رجولة .

عجيب هذا المجتمع . إذا انحرف الشاب وكانت له علاقةٌ مع فتاة ، فأبوه يقول : ما شاء الله ، صار ابني رجلاً . وأما أبو الفتاة فيشعر بالعار . الدين يقول : العلاقة الجنسية بدون زواج محرمّة : على الرجل وعلى المرأة بنفس المقدار . لكن المجتمع يصر على أن الرجل بطل والمرأة ساقطة .

أنا أعتقد أن السبب وراء هذا الكيل بمكيالين هو أن المرأة هي التي تحمل . ولذا بولغ في صيانتها وحياطتها . ولكن الازدواجية الأخلاقية مشكلة للمجتمع . والتركيز الشديد على أن المرأة عورة يجعلها عرضةً للاضطهاد . وتبدأ حقوقُها بالتسرب بالتدريج ، فتحرم من الميراث ويتحايل عليها إخوتُها . وتحرم من استقلالية الشخصية وقد تتعرض للعنف من قبل زوجها . كثيرون من الرجال يعتبرون أن البيت للرجل وأن له الحق في طرد المرأة وإلقائها في الشارع وهذا منتهى العنف .

قال الرصافي الشاعر العراقي :

ما أهونَ الأنثى على ذُكرانِنا — فلقد شجاني ذُلها وخضوعُها
فوليُّهـا عنـد الدفـاع يَبيعُها — وحليلُها عند الطلاق يُضيعُها
وكلاهما متحكمٌ في أمرها ، — هـذا يُعرّيهـا وذاك يُجيعُهـــا

ورصيف الرصافي ومنافسُهُ على إمارة الشعر بالعراق ، الزهاوي ، يقول :

إنما المرأة والمرءُ سواءٌ في الجدارة — علّموا المرأةَ فالمرأةُ عنوانُ الحضارة

وقال الشاعر القديم :

وما أنا بالساعي إلى أمّ عاصم لأضربَها ، إني إذن لجهــولُ
لكِ البيتُ إلا فَيْنةً تُحسِنينَها إذا حانَ من ضيفٍ عليّ نُزولُ

ومقابل هذه الأشعار القليلة التي تنصفُ المرأة هناك آلافُ الأبيات التي تشير إلى أنها دون الرجل منزلة .

ولعله يحسُنُ بالرجل دائماً أن يتصرف مع زوجته كما يريد من زوج أخته أن يتصرف مع أخته . عزيزي الرجل ، اسأل نفسك دائماً : هل أرضى أن يفعلَ زوجُ أختي ذلك؟

العنف أشكال : الضرب ، والترهيب ، والانفعال المصطنع ، والحرمان من الحقوق . كلُّ ذلك يمارسه الرجال ضد النساء . لكنْ لا يمارسه إلا الضعفاء من الرجال . الرجل القوي الشخصية الموفورُ الكرامة يعرف أن عزّته وكرامة بيته هما من كرامة زوجته وأخته وأمه . في هذا الجانب مجتمعنا مقصر جداً وبحاجة إلى أكثر من مجرد بارقة أمل .

المشاركة

عزيزي المستمع ، هناك رجال محكومون لنسائهم . قُمْ يقوم ، اقعدْ يقعدْ . لا بل هناك رجالٌ يأكلون بهدلة من نسائهم . وأحياناً على مرأى ومسمع من الأقارب . هذا سيء جداً . ونقول للرجل المحكوم لزوجته : أليس عندك كرامة؟

وهناك العكس : هناك نساء محكومات لرجالهن . ويتعرضن أيضاً للبهدلة ، وأحياناً بحضور الأقارب . وهذا سيء جداً ، ونقول للمرأة المحكومة لزوجها : أليس عندك كرامة؟

الأصل في الزواج الحب والاحترام معاً . فإذا كان الحب كثيراً فهذا حسن جداً . وإذا كان قليلاً فالزواج يمكن أن ينجح مع ذلك . لكنْ بالنسبة للاحترام يجب أن يكون دائماً كثيراً ، ومتبادلاً .

نحن نتحدث عن مثاليات . لقد أوجعني رأسي من هذا الكلام . أعانكم الله على الاستماع إليه . طبعاً المثاليات جيدة لكنها لا تتحقق دائماً كما نشتهي . المهم أنه من الجيد أن نعرف المثاليات حتى نطمح إليها ، ونبذل جهداً للوصول إلى أكبر قدر ممكن منها . لكنْ ، لن أتحدث عن المثاليات بعد الآن . سأتحدث عن الأشياء العملية : الطبخ والجلي وتنظيف المراحيض وكبِّ الزبالة ، وتحفيظ الأطفال ، حفظكم اللهُ .

وأنا شخصياً أقوم بنشاط واحد من النشاطات السابقة باستمرار . وطبعاً أشعر أنني مقصّر . لكنني لن أتحدث عن نفسي فهذا البرنامج ليس برنامجاً مخصصاً لقصة حياتي .

رأيت كثيراً من الرجال الذين يتمتعون بقوة الشخصية وبالاحترام الاجتماعي يقومون بأعمال بيتية كثيرة. ليس الكلّ، ولكنّ الرجل القويّ الشخصية لا يخجل من مساعدة زوجته. الرجل القوي الشخصية يشرك زوجته في اتخاذ القرارات. يشركها في شؤونه الحياتية ويتابع معها مسائل تربية الأطفال، ويستشيرها في مشاريعه وشؤونه ويناقشها في شؤونها. الرجل الموفورُ الكرامة، لا يقبل على نفسه أن يسهر في المقهى كل ليلة ويعود لينام ثم يخرجُ من البيت باكراً للعمل ويعودُ عصراً ليأكل لقمة ثم يخرج مسرعاً من البيت، وقد تكون زوجتُه حاملاً، مما يجعل مثل هذا السلوك أبشع. ففترة الحمل تحتاج إلى مشاركة نفسية كبيرة من الرجل.

والمرأة الموفورة الكرامة لا ترضى على نفسها أن تقضي سحابة النهار في الزيارات وفي استقبال الناس في بيتها مهملةً شريكَ حياتها. الرجل لا يحب أن يشعر أن البيت مجردُ فندق. وكذلك المرأة. وعماد البيت السعيد المشاركة بين المرأة والرجل، وإنفاق وقت كاف معاً ومع الأطفال. إذا كان الزوج يشتغل خارج البيت، بينما المرأة ربة بيت فقط، من الطبيعي عندئذٍ أن تقوم المرأة بمعظم شغل البيت. ولكنْ إذا كان الزوجان يشتغلان خارج البيت فعلى الزوج ألاّ ينسى أنّ زوجته بحاجة إلى مساعدة كبيرة.. وفي كل شيء.

وفي الأموال هناك مشاركة أيضاً. للمرأة الحق في أن يكون لها مالُها الخاص من ميراث ورثته أو من وظيفة تشتغل بها، لكنّ عليها أيضاً أن تساهم في الإنفاق. هذا أيضاً من المشاركة. إذا أردت أن تعرف إن كانت الزيجة ناجحة فانظر إلى المشاركة.. إنها بارقة الأمل.

الصحة الإنجابية

عزيزي المستمع، أم العبد تُطَمْئِنُ بنتَها الحامل البكريّة قائلة: لا تخافي، في هذه الأيام يوجد أطباء ومستشفيات، ولم تعد أي امرأة تموت عند الولادة.

ونحن نحب أن نُطمئن بنت أم العبد أيضاً: نعم صار من النادر أن تموت المرأة وهي تضع، مقارنة بما كان يحدث في الماضي. لكن مع ذلك هناك حالات يبلغ عددها سنوياً نحو المئة في فلسطين. وهذا الخطر ليس كبيراً.. إنه مثلُ خطر السير في الشوارع بين السيارات، ومثل خطر العمل في مصنع. لكنْ.. يمكنُ خفض الخطر أكثر بوجود رعاية صحية أفضل. وهناك مضاعفات على الصحة لا تصل إلى حد الموت. هناك ألف وسبعمائة امرأة تتعرض كل سنة في فلسطين لمضاعفات بسبب الحمل والولادة.

من أسباب ارتفاع نسبة مشاكل النساء الصحية في الحمل والولادة الزواج المبكر، فثلث البنات يتزوجن

وهن في سن طفولية : تحت السابعة عشرة . وجسم الطفلة التي بهذا العمر لا يحتمل الحمل والوضع كجسم فتاة في الخامسة والعشرين مثلاً . وسوء التغذية للحامل عامل مهم ولا سيما في ظروف بلدنا الاقتصادية الصعبة .

بعد الوضع على الأم أن تراعيَ صحتها هي كما تراعي صحة الطفل أو الطفلة . الرضاعة الطبيعية مهمة جداً لأنها أولاً تؤخر أي حمل جديد، وعندما ترضع الأم طفلها مدة كافية فهذا يساعد على عودة الرحم إلى حجمه الطبيعي، وهذه المعلومات استقيتها من كتب صادرة عن وزارة الصحة الفلسطينية .

بالمناسبة كلُّ هذه المعلومات تندرج تحت مصطلح واحد هو الصحة الإنجابية . ولكنّ هناك جانباً آخر مهماً في هذا الموضوع .

الصحة الإنجابية ليست صحة جسم الأم والجنين فحسب بل هي أيضاً الصحة النفسية للمرأة . سمعتُ مرة امرأة تنصح بنتها الحردانة وتقول لها : اذهبي وارمي له أولاده، ونحن نزوجك بسيد سيده . الواقع أنني سمعت مثلَ هذه العبارة عدة مرات . . وهي تتكرر ليس فقط في القرى النائية بل في المدن، وفي أوساط متعلمة أيضاً . (إرمي له أولاده)! وكأن الأولاد ليسوا أولاد المرأة أيضاً، وكأن المرأة تلد أولاداً لزوجها . ما هي نفسيةُ المرأة التي تشعر أنها تحبل وتلد وتُرضع أولاداً يكونون أولادها فقط إذا استمر الزواج، فإذا وقع الطلاق لا يعودون أولادها؟

هذا موجود في المجتمع كثيراً، رغم أنه مخالف للدين ولقوانين الحضانة في المحاكم الشرعية والمدنية . على المرأة ألا تشعر أنها تحمل وتلد بإرادة زوجها، ولتكثير عزوته هو . المرأة الحامل تشعر بالسعادة عندما تحسّ أن الرجل يفهمُ أنهما كليهما شريكان، وتشعر بالاطمئنان وبكرامتها وبأنها ليست دجاجة بيّاضة . كان العرب القدماء يظنون أن الجنين يتكون في رحم المرأة من مادة الرجل فقط . . وأن الرحم ليس سوى البستان الذي تنبت فيه النبتة . طبعاً كثيرون منهم لاحظوا أن البنت قد تشبه أمها شبهاً كبيراً جداً لكنهم أصرّوا على نظريتهم . والآن نحن نعلم أن بويضة المرأة مسؤولة عن نصف الجنين ومادة الرجل مسؤولة عن نصفه الآخر .

لعل هذه الحقيقة العلمية تقنعُ بعض النساء وكثيراً من الرجال بأن الأمر كلّه مشاركةٌ كاملة . ولعل الوعي بهذا الأمر يضيء أمام الزوجة الحردانة بارقة أمل .

قُدِّم هذا البرنامج من إذاعة أجيال في عام 2004

النفس المطمئنة

الشيزوفرينيا

كان الجوُّ حارا، وفي قاعة المؤتمر اختلف استاذان في علم النفس على كلمة الفصام وهل هي ترادف كلمة شيزوفرينيا أم أن لها معنى مختلفا بعض الاختلاف. تحول الجدل إلى نقاش في اللغة والترجمة وليس في علم النفس.

الفُصام والرُهاب والعُظام هي حالات نفسية مختلفة. وهذه الصيغة الصرفية (فُعال) تجمع بينها. ولكن الحالات النفسية قد تتداخل. ويحدث كثيرا أن يعاني المرء من عدة حالات نفسية في وقت واحد. لكن هذا لا يعني أنه سيحمل أعباء كل هذه الحالات مجتمعة. والعلاج قد يكون فعّالا لعدد من الأعراض في آن معاً. المهم أن يجد صاحب الحالة النفسية المؤازرة من الأسرة والأصدقاء.

ليس مفيدا أن نكرر للصديق الذي يعاني من حالة نفسية القول: إنه لا داعي لهذا القلق، فالعالم جميل، وما هذا الذي تصنعه بنفسك؟ وعبارات من قبيل: بلاش كلام فارغ، وأنت أحسن من غيرك، بعض الناس لا يجد قوت يومه.

هذه العبارات معناها شيء واحد. أننا لا نفهم ولا نقدّر معاناة ذلك الشخص. الحالة النفسية ليست شيئا يجلبه المرء على نفسه. إنها ليست غلطة المرء بحق نفسه. وقيامنا بتأنيب الصديق لا يفيده، وليس عادلا.

وبما أننا بدأنا الحديث عن الشيزوفرينيا أو الفُصام فكل ما نستطيع قوله بعيدا عن الخلافات الصرفية هو أن المفهوم الشعبي بأن الذي يعاني من هذه الحالة يحتفظ بشخصيتين مفهوم خطأ. ولعل مما رسخه في الأذهان قصة الدكتور جايكل والمستر هايد التي ترجموها إلى العربية ودرّسوها في المدارس.

الشيزوفرينيا أنواع كثيرة، وتشخيصها الدقيق ليس سهلا. ولكن فرص العلاج بنجاح تزداد باستمرار. والمصاب يكون عرضة للأوهام ولاضطراب المشاعر، فهو قد يحزن لسبب مجهول، وقد يشعر بالسعادة في موقف محزن. وقد يلوذ بالصمت والكسل فترات طويلة. ويكون له في أحوال كثيرة عالمه الخاص به. وتراه أحيانا يتوهم أعداء خياليين ، ويأخذ الحيطة من أمور بسيطة.

عزيزي المستمع، لو كان أحد طلبة علم النفس يستمع إلي فمن المحتمل أن يوقفني عند هذا الحد لكي يلقي علي محاضرة في التفريق بين الشيزوفرينيا والبارانويا. ولكنّ الحالات النفسية تدخل في بعضها

كما أسلفنا . ولعل أحدهم يريد أن يناقشني مناقشة لغوية فيقول إن البارانويا هي العُظام . حسنا ، فما هو هذا العظام؟ الواقع أنه مرتبط بالشيزوفرينيا جدا . إنه مجموعة من الأوهام التي تسيطر على الإنسان إلى درجة أنه في بعض المراحل يظن نفسه شخصا عظيما ، ويطالب الناس بان يعاملوه على هذا الأساس .

من واجب الأهل أن يستعينوا بالمعالجين النفسيين في مرحلة مبكرة . ومن واجبهم يوفروا للشخص الذي يعاني حالة نفسية بيئة تساعده على التعرف على نفسه الحقيقية ، وتجعله يعي حالته حتى يستطيع هو نفسه أن يعثر . . على النفس المطمئنة .

التوهج النفسي

عندما طلب إلي أن أقدم هذه السلسلة عن نفوسنا نحن البشر وقفت وِقفة المتحير المتخير . فأنا أمام عشرات النماذج من الحالات النفسية . فأيُّها آخذ ، وأيُّها أدع؟ ولعلك تَعرف أن التقديرات تشير إلى أن واحدا من كل أربعة أشخاص عانى أو سيعاني من حالة نفسية لمدة من الزمن في عمره . وقد قرأت مؤخرا مقالة بقلم خبيرة استرالية ، مشرفة على خط ساخن لتقديم المشورة لمن يعانون من حالات نفسية ، قدّرت فيها نسبة الحالات بواحد من خمسة . هناك شبه اتفاق عالمي على هذا التقدير . بين الأربعة والخمسة أشخاص هناك واحد سيصاب ذات يوم بحالة نفسية . وقد تزول الحالة أو تخف .

إليك قصة الموظف عبد الرحمن . كان شابا في الخامسة والعشرين ، موظفا في بنك . ونقلوه إلى فرع جديد . وفي اليوم الأول لدوامه الجديد دخل على المدير مبتسما مستبشرا . اقترب من مكتب المدير وسلم عليه بحرارة ، ثم سحب كرسيا وجلس على مقربة من مديره . وصار يحدثه فورا عن الخطط اللازم تطبيقها لكي يسير البنك سيرا حسنا . وفي وسط كلامه تذكّر أنه لم يعرّف نفسه على المدير . فقال له أنا فلان وقد جئت من الفرع الفلاني ، ثم استكمل كلامه بلا توقف ودون أن يتيح لمديره الجديد فرصة لقول شيء . وواصل الحديث عن خططه الباهرة لإصلاح الأوضاع . أطرق المدير إطراقة ، وقال لنفسه : ما هذه المصيبة؟ واستطاع بعناء أن يصرف موظفه الجديد . مدير البنك لا يعرف حالة الـ مانيا في علم النفس التي يسمونها احيانا التوهج النفسي . لذا فقد ظن أن هذا الموظف دجال أشر . لكنه استغرب أن موظفه الجديد عبدَ الرحمن لم يطعن في أي من زملائه ولم تكن نبرته في الكلام نبرة اتهامات للآخرين . المهم : في اجتماع عقد بعد اسبوعين ، صار عبد الرحمن يتكلم بتلقائية وينتقل من موضوع إلى موضوع . وصار رؤساء الأقسام يتفرجون في وجوه بعضهم البعض .

فورا بعد الاجتماع طلب مدير البنك ملف الموظف عبد الرحمن . فرأى أن إنجازه جيد في عمله السابق

بفرع المدينة الأخرى، وتأكد أن سبب النقل ليس لأن مديره السابق اراد أن يرميه على فرع آخر. بل السبب اجتماعي لأن أسرة هذا الموظف انتقلت لمدينة أخرى وفضل أن يستمر في الاقامة مع أسرته لأنه ليس متزوجا ولا مرتبطا بعد. والآن انظروا ما فعل مدير البنك، وما فعله يستحق الانتباه، لقد بدأ يجرب موظفه الجديد بمهمات صغيرة. ورأى أن عبد الرحمن يعني ما يقول. لقد كان سريعا في الإنجاز سرعته في الكلام، والتحليق في أجواء التصورات. وكبرت المهمات وكبر الإنجاز. بالتدريج عرف المدير كيف يكبح اندفاع الموظف المتوهج نفسيا.

نعم، بعض الزملاء في البنك قرروا أن يجعلوا من عبد الرحمن شغلهم الشاغل تخويتاً وتعليقاً. وكان عبد الرحمن يتألم من هذا السلوك، لكنه ظل ينجر. أحيانا كان يشطح. كان يقدم حلولا مثالية لا يمكن تطبيقها. لكن التوجيه المستمر من مديره جعله من أفضل الموظفين.

الآن عبدُ الرحمن متزوج وحياته العائلية سعيدة. وهو يعرف أنه متوهج دائما وقليل التركيز أحيانا. ولكن، ما يطمح إليه هو أن يكون ناجحا، وأن يفهمه الناس لا أن يسخروا من توجهاته. وقد استطاع أن يحقق ذلك. ونجاحه مستمر.

مجتمعنا ليس قاسيا. إنه يتفهم حالات نفسية كثيرة. في بلدنا رغم كل الظروف الخارجية السيئة يمكن للمرء أن يعيش بنفس مطمئنة.

أحلام اليقظة

من منا مستعد أن يقف أمام الجميع ويحدثنا عن أحلام يقظته؟ لا أظن أن كثيرين مستعدون لذلك. ما أصعب أن تعترف للناس أنك تحلم طول النهار بالمليون دولار، حتى دون أن تشتري تذكرة يانصيب. أنت أيها المستمع: بالله عليك ألا تحلم بأنك صرت قوياً وذا عضلات مفتولة، ووجهت لكمات قوية إلى وجه ذلك الشخص المغرور الشرير الذي لا يفكر إلا بمصلحته؟ ألا تحلم بأن تكون مشهورا، وبأن تفعل كذا وكذا؟ أحلام اليقظة شيء طبيعي.

لكن خذ هذه الحالة الغريبة: رجل في الستين يحلم في يقظته، أي أنه يفكر في الصحو وليس في النوم، بأنه شاب في الثلاثين، وبأنه رأى رجلا في الشارع يعتدي على ابن الجيران، فقفز من النافذة من الطابق الرابع، فاستغرب الرجل المعتدي وهرب بسرعة، ولكنه لحقه وأمسك به ولقنه درسا لن ينساه. ماذا تسمي هذا الخيال؟ لا شك أنه خيال خيالي إن صح التعبير. فكيف سيرتد الستيني شابا في الثلاثين؟ وكيف سيقفز من نافذة الطابق الرابع؟

هذه حالة نفسية. إن أحلام اليقظة التي تمر بأذهاننا جميعا هي وسيلة من وسائل الحفاظ على توازننا النفسي. لا بأس بقليل من أحلام اليقظة. لا بل إنها مفيدة إذا كانت قريبة من الواقع. كثيرون من أصحاب الإنجازات الكبيرة حلموا بإنجازاتهم في أذهانهم قبل تنفيذها. لكن تطور أحلام اليقظة إلى درجة تطليق الواقع تماما يعني أن الشخص الذي يفعل ذلك معرض لسلسلة من الإحباطات وخيبات الأمل.

حتى ذلك الراعي لم يكن مخطئا في أحلام يقظته. فكما تقول القصة: فإن الراعي كان يجمع حليب غنماته، ويستخرج منه السمن، ويضع السمن في جرة معلقة بالجدار يوما بعد يوم، وذات يوم كان مستلقيا على فراشه، وصار يفكر لنفسه في أن يبيع السمن، ثم يشتري غنما، ثم يصير عنده قطيع كبير، ويبيع السمن الكثير ويصبح غنيا. ثم يتزوج ثم ينجب ولدا. ويكبر الولد، ويربيه تربية قويمة على طريقته. ثم تخيل الراعي أن ولده أساء الأدب معه مرة، كل هذا وهو يتخيل. فقال الراعي لنفسه: عندئذ سأحمل العصا وأضرب ولدي بها، وكانت عصاه بجانبه. ولشدة انجرافه في أحلام اليقظة حمل العصا الغليظة الطويلة فعلاً ولوّح بها في الهواء فأصابت جرة السمن وكسرتها، فسال السمن على رأس الراعي الحالم. وتبدد رأسماله.

لا بأس بقليل من أحلام اليقظة شرط ألا يسيل السمن بسببها، وشرط أن لا تخلف الإحباطات.

من الطرق التي يصفونها للتخلص من أحلام اليقظة الزائدة عن الحد أن يفصح المرء عن بعضها في كلامه مع الآخرين. ربما بشكل أفكار عامة وأمنيات. طبعا الأفضل هو أن يتمكن الانسان من تحقيق بعضها، وعندئذ فهو بلا شك سيتمتع أكثر بنفس مطمئنة.

الفشل اللذيذ

لدي طريقة ناجحة في تخفيف وَهْرة الفشل. ولا أعتقد أنني حدثت بها أحدا قبل الآن. اكتشفت هذه الطريقة، أو بالأحرى اخترعتها ذات صباح وأنا شاب في نحو العشرين، أو يا ربي التاسعة عشرة. اللهم لا تساعدنا على الكذب. كنت أريد السفر ذلك الصباح عبر الجسر. وكانت الأحوال مضطربة، وكانوا يرجّعون الناس عشوائيا. وقفت في الطابور على الجسر لتقديم الهوية. وصرت أتمنى من كل قلبي أن أعبر وأن لا أسمع الكلمات البغيضة: ارجع، ممنوع السفر، من ذلك الجندي البغيض. وصرت أقول لنفسي: تعال نفكر في الأشياء التي سأعملها لو رجعت: أخذت أتسلى وأفكر: لو رجّعوني، سأجد في البيت سفرة إفطار عظيمة في انتظاري، وسأذهب إلى التدريب على كرة القدم مع فريق الحارة استعدادا لمباراة اليوم. وأنا متأكد انهم سيفرحون بعودتي فأنا سميك البنيان

ومجرد وقوفي في باب المرمى يمنع إدخال أي هدف. ما وصلت إلى الشباك حتى كان قد تشكّل في ذهني خيار آخر بديل للسفر. ثم قدمت هويتي متمنيا أن أنجح وأعبر وأسافر.

لكنني لم أسافر. وسمعت العبارة الكريهة. ممنوع السفر. لم أعد أتذكر شيئا عن الفطور ولا عن المباراة. ولكنني تعلمت طريقة جديدة لازمتني عقودا من الزمن. كلما أقدمت على امتحان أو مقابلة لوظيفة فإنني أضع احتمالات النجاح والفشل، وأزين الفشل بزينة إيجابية اسمها: البديل.

لقد ساعدني هذا في الإدارة. فقد توليت مهمات إدارية عددا من السنين، وكنت كلما اقترب موعد إقرار مشروع أو خطة أفكر في إيجابيات الرفض. وأضع البديل. غداً سأقدم ميزانية العام القادم، مثلا: إذا تمت الموافقة على الزيادة فسوف أفعل كذا وكذا، ولكن إذا رُفضت الزيادة، أو حتى تم تخفيض الميزانية فسوف نركز الجهود على المشروع الفلاني الذي نقوم به حاليا لنحقق نجاحا متميزا وسوف نقوم بحملة إعلامية داخل المؤسسة لهذا النجاح ونقنع المدير الأكبر بأننا حققنا إنجازا نوعيا.

هذا النوع من التفكير الإيجابي الذي ينظر دائما إلى الامام، يمكن للمرء أن يطوره في داخل نفسه. ولنأخذ النقيض حتى تتضح الصورة.

عرفت شخصاً يصر على أن ينتصر في المعركة التي يخوضها. وإذا هُزم صار يبحث أولا عن كبش فداء، ويلوم الآخرين، وصار يلوم نفسه أيضاً ويمعن في لومها. ويتخيل أنه شخص فاشل، لا يساوي شيئا. ذات مرة قلت له: يا أخي لماذا تحاول أن تخوض المعركة نفسها مرتين؟ المعركة التي هزمت فيها راحت، ولا يمكن تحويل الهزيمة إلى نصر. ابحث عن معركة جديدة. طبعا لم يعجبه كلامي. ذلك الشخص يتقن فن كتابة رسائل الشكوى. ومع حلول عصر البريد الإلكتروني صار يكتب كل يوم إيميلات الشكوى إلى المدير وإلى مدير المدير. وهو بارع في تحديد أسباب الفشل. لكنه ليس بارعا في السير إلى الأمام. لا أريد أن أقول إن لديه حالة نفسية. فالكثيرون كذلك. ولكن تفكيره كله صار اعتذاريا. صار مؤمنا بأنه لا جدوى من عمل أي شيء لأن كل شئ فاسد. لهذا لا أراه يحقق ما يصبو اليه العاقل وهو: النفس المطمئنة.

الاكتئاب

كان الرئيس الاميركي ابراهام لنكولن، محرر العبيد، وأعمق رؤساء أميركا أخلاقيا، يقول: لو وّزّعتُ حزني على كل الناس لما وجدتم في أميركا وجها يبتسم. وكان ونستون تشرشل يشبه حالات الاكتئاب التي تلاحقه بكلب أسود، لكن الرجلين عاشا طويلا. لنكولن عاش حتى جاءته الرصاصة القاتلة بعد أن أنجز إنجازا تاريخيا. وتشرشل انتصر في الحرب العالمية الثانية وعاش بعدها طويلا ومات بعد التسعين

من العمر. ليو تولستوي أعظم كتاب الروس عاش حتى جاوز الثمانين، لكنه هجر بيته ذات يوم في جو عاصف، ووجدوه ميتا في محطة للقطارات بعد أن عاشت معه زوجته حياة صعبة جداً. كان أيضاً يعاني من الاكتئاب الاكلينيكي. وقد دوّن تولتسوي تفاصيل اكتئابه في كتاب اسماه اعترافاتي.

الاكتئاب أنواع كثيرة. لكنه يجب ألاّ يمنع الانسان من الإنجاز والتفوق. هناك نوع تتعاقب فيه حالات الاكتئاب والبهجة. فيقضي المصاب بهذه الحالة شهراً أو عدة أشهر مكتئباً ثم مدة أخرى تطول أو تقصر وهو مبتهج سعيد. ولكنه يصبح متوترا وينتظر الحالة انتظارا قلقا. كانت الكاتبة الإنجليزية فرجينيا وولف تعاني هذه الحالة من المزاج المزدوج. ولكنها أنتجت أدبا قصصيا عظيما.

الكاتب الأميركي إيرنست همنجواي صاحب قصة العجوز والبحر، أصبح في الخمسينات من عمره شديد الوسواس. صار شكّاكاً يحسب أن كل من حوله يحوكون المؤامرات ضده. صار بخيلا بشكل عجيب. ولم يعد ذلك المغامر الجريء. كان اكتئابه مصحوبا بالسوداء او المالنخوليا. ولم يوفق همنجواي كما وفق تشرشل، مثلا، في السيطرة على حالته. ربما لأن حياته الاجتماعية كانت مضطربة أيضاً. فهو رجل عديد الزيجات. ولم يكن عنده جو بيتي مريح. بل كان في أحيان كثيرة يعيش في مكان وزوجته في مكان، وكان على مدى سنوات طويلة مغامرا يعيش فردا، وما أكثر ما كان يسافر فجأة: فبينما هو في كوبا، تراه انتقل إلى أدغال إفريقية ثم تراه يصارع الثيران في إسبانيا أو يخوض مباراة ملاكمة في فرنسا. هذا النمط من الحياة لم يساعد همنجواي على تكوين بيئة أسرية تساعده في تجاوز حالته النفسية عندما اشتدت عليه الحالة. ربما أن نقص الدعم الاجتماعي لهذا الكاتب الذي نال جائزة نوبل للآداب هو السبب في أنه في النهاية لم يجد شيئا يخلصه من عذاباته سوى البندقية، فانتحر.

الاكتئاب ليس مرض العصر كما يقول لنا الصحافيون. إنه مرض كل العصور. إنه حالة نفسية لا علاقة لها بكثرة المشاغل. وقد يصاب به العظماء والعاديون. ومن مظاهر الاكتئاب فترات الحزن الطويلة، والكسل الشديد في بعض الأوقات، والصفنة الطويلة. وشعور الإنسان بأن قيمته قليلة وأنه فاشل.

لكنْ، صحيح. ربما كان المجتمع المعاصر يساعد على تفاقم الاكتئاب. فالقلق المتواصل على الرزق يعزز الحالة. وخصوصا إذا تعرض المرء لفقدان مصدر رزقه بشكل قاس. هذا لم يكن يحدث في المجتمعات الريفية التي فيها استقرار ورتابة، وتكافل مجتمعي. في المدينة هنّاك قلق أكثر، وفردية أكثر.

في المدينة يصبح من الصعب أكثر تحقيق النفس المطمئنة.

قُدِّم هذا البرنامج في ثلاث عشرة حلقة من إذاعة أجيال، في عام 2005.

قصص الفرج

اللهم فرج عنا كما فرجت عن ابن سمسمة،

ورث ابن سمسمة عن أبيه مالاً جليلاً، ولكنه أسرع فيه وأتلفه حتى صار يبيع أبواب داره ليشتريَ ما يقيتُ عياله. ونام يوماً، وجاءه في المنام هاتف يقول: غِناك بمصر، فاخرج إليها. ولما كانت حالُه عدماً ولم يبق له شيء عَزَم أن يسافر من بلده بغداد إلى مصر. فاستدان مالاً وركبَ إلى مصر. ووصل مصر وقد نفدَ زادُه ولم يبق له شيء، فباع ناقته وانتفع بثمنها. ثم افتقر بمصر وصار ينامُ في الجامع. وذات ليلة أنهكه الجوع فخرج هائماً على وجهه في الأزقة. فلا هو قادرٌ على تحصيل شيء يأكله، ولا نفسهُ تطاوعُه أن يسألَ الناس. وبينما هو سائر إذا بالطائف، وهو حارسُ الليل، يمسك بتلابيبه ويصرعُهُ أرضاً. رفع الحارس المِقْرعة يريد أن يوسعَه ضرباً، لأنه ظنه لصاً يترصد للسرقة. فصاح به ابنُ سمسمة قائلاً: أنا أخبرك بحالي. فجلس الحارس على صدره مهدداً وقال له: تكلم بسرعة. فأخبره الغريبُ المسكين بقصته، وكيف أنه رأى في منامه هاتفاً يقول له: غناك بمصر. فهز الحارس رأسه وقام عن ابن سمسمة. وأصلح له من هندامه. وقال له: وكيف تصدقُ، يا جاهل، هاتفاً يجيئك في المنام. أما والله إني لأعقَلُ منك. فقد حلُمْتُ أمس فقط برجل يقول لي: يا هذا اذهب إلى بغداد وخذ الكنز منها. ليس هذا فحسب بل إن الهاتف الذي جاءني في المنام راح يكرر الأمر علي ويقول لي: الكنز موجود تحت شجرة سِدْر كبيرة في محلة القهرمان على دجلة. وتابع الحارس كلامه: ولكنني لست جاهلاً مثلك حتى أَصدِّقَ المنام. أما أنت فجئت من بغداد إلى مصر لمنام رأيته. وها أنت لا تعرف أين تذهب.

عندما سمع ابن سمسمة كلام الحارس وَجَمَ، ولم يقل حرفاً. ثم إن الحارس تركه وشأنه. فانصرف ابن سمسمة إلى الجامع ونام فيه. بلغ به العجبُ أقصاه. فإن داره هو موجودة في محلة القهرمان ببغداد. وفي وسط الساحة بداره شجرة سدر عظيمة ليس في المكان سواها.

في اليوم التالي عزم ابن سمسمة على العودة إلى بغداد. ووصلها بعد حين. وفور وصوله أخذ يحفر حول شجرة السدر التي في فناء داره. حتى كاد أن يقتلعها، وفي أعماق جذور الشجرة وجد جرة ضخمة مليئةً بالذهب كان أبوه خبأها هناك ومات ولم يُبلغ بشأنها أحداً.

وهكذا عرف ابن سمسمة أن غناه كان تحت رجليه ببغداد، ولكن لم يكن هناك سبيل إلى الوصول إليه إلا من مصر.

والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرجت عن العطار الرضي،

كان عبدُ الله الرضيُّ عطاراً ببغداد. كان مقتصداً يضعُ الدرهم موضعَه. وكان ذا عيشٍ متوسط. وظل يحفظُ أمر أهله ويعيلهم من تجارته حتى مات أخوه. عندئذ كفل أولاد أخيه وضمهم إليه. وصار يوسعُ عليهم حتى لا يشعروا بأن حالهم اضطرب لموت والدهم. وصار أمرُ عبد الله العطار يختل وينقص، وهو يكابر. حتى مر به يوم لم يكسب فيه درهما. وعاد إلى بيته فتعشى مع أولاده وأولاد أخيه ولاعبهم، ثم قالت له زوجته: يا عبد الله لم يبق عندنا رغيفٌ فما فوقه، ونفِدَت مؤونتنا، فلعلك أن تصلح حالنا بشيء غداً. فورد على عبد الله العطار هم ثقيل. وليس في جيبه فلس ولا درهم. وعرف أن حاله وقفت.

وفي الصباح ذهب إلى دكانه وفتحه مستبشراً أن يسوق الله إليه الزبائن. وظل في دكانه إلى الظهر لم يرزق درهماً. فاغتم غماً شديداً ودعا ربه قال: يا رب، وأنتَ تعلم سري، إن رأيتني فعلتُ ما يغضبك فخذني بلطفك. وحقِّك، ما ضممتُ اليتامى إليّ إلاّ تقرباً منك. ثم جلس العطار على كرسيه فأخذته عينُهُ وأغفى. فسمع هاتفاً يقولُ له: يا عبدَ الله. فصحا من نومه فزعاً. ونظر في الدكان لعل الله أن يكون ساق إليه زبوناً بعد كل هذا الانتظار فلم يجد أحداً. فأغفى مرة أخرى فتمثل له النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا عبد الله، دعوتَ ربكَ وأجابك. قد أمرتُ لك بأربعمئة دينار. اقبضها من الأمير أبي المعلّى. وفتح العطار عينيه ووجم. وقال: لعلها رحمةُ الله. ومضى إلى باب الأمير. فوقف به طويلاً لا يُسمحُ له بالدخول فلما بدأ مجلس الأمير ينفض بعد صلاة العصر أخذ العطار طريقه يريدُ الانصراف. فإذا حاجب الأمير ينادي: أيكم عطار؟ فجاءه عبدُ الله وقال له: أنا عطار. قال له الحاجب: أنت من الكرخ؟ وهي ضاحية في بغداد. قال له: نعم. فقال: ادخل على الأمير.

دخل العطار. فقال له الأمير: وما الذي جاء بك إلى بابي. قال العطار: رأيت رسول الله في نومي، وأمرني أن آتيَك. فبكى الأميرُ أبو المعلّى، وقال: وأَمَرَك أن تقبض أربَعمِئة دينار؟ فقال العطار: نعم أمرني. وعرفا من اتفاق المنام أنها رحمةٌ من الله. وأمر الأمير بألف دينار، وقال للعطار: خذها وأصلحْ بها حالك. فقال العطار: لا أتجاوزُ ما أمر لي به رسول الله. وأخذ أربعمئة دينار فقط. وخرج وسدّ ديونه وأصلح تجارته فكانت بركة هذه الدنانير كبيرة وصار له منها ثروة طائلة. ولم يعد إلى الاقتصاد في النفقة، بل صار ينفق من سعة طول عمره ببركة أولئك اليتامى. والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرجت عن المنذر بن المغيرة،

في أيام الخليفة المأمون كان رجل كبيرُ السن يذهبُ إلى خرائب قصور البرامكة ويقف عندها ويبكي. وبلغ الخبرُ الخليفة فأرسل الحرسَ ليُحضروا الرجل. فكمنوا له طويلاً حتى رأوْه يأتي إلى جدار القصر المهجور ويجلسُ عنده ويبكي بحُرقة. فانقض الحرسُ عليه وساقوه إلى الخليفة. قال له المأمون: قد زالت دولة البرامكة، فما وقوفُك بخرائب بيوتهم. فقال الرجل، واسمه المنذر: دخلتُ بغداد قبل سنين طويلة فقيراً مُعْدَماً ومعي عشرين من أهلي وعيالي لا نجدُ ما نأكله وليس معي إلا عباءةٌ حسنة ادّخرتها. فلبست عباءتي وتركت عيالي في المسجد. وبينما أنا أمشي في بغداد حائراً أبحث عن باب رزق رأيتُ موكباً من الكبراء فانضممت إليهم. وسرنا وأنا خائف من تطفلي، أخشى أن يُكشف أمري فأُطرَدَ شرّ طِردة. فدخلوا قصراً فدخلت معهم. وجلسوا فجلست. وإذا نحن نشهد عقد زواج لأحد أولاد يحيى البرمكي. ورأيت يحيى جالساً في الصدر. وعُقد القران، وطاف الخدمُ على الضيوف، يعطون كلّ واحد ممن حضر طبقاً كبيراً من الذهب فيه قطعة من العنبر. شيء كعلب العرائس في زمننا. فأخذت طَبقي وأنا هائب ووضعتُهُ أمامي. ثم خرج القوم. فترددتُ أن آخذ الطبق، وقمتُ بدونه. فغمزني أحد الخدم وحثّني أن أرجع وآخذَ الطبق، فأخذته، وأنا أكاد أموت من الخجل. وعندما اقتربتُ من الباب أريد الخروج ردّني الخدم ومنعوني. وساقوني إلى يحيى البرمكي. أجلسني يحيى بجانبه وقال لي: ما شأنُك يا بُني؟ وضعت الطبق أمامي، وقصصت عليه قصتي، وأن أهلي بالمسجد جوعى.. وأنني دخلتُ بيته بلا دعوة. فبكى يحيى البرمكي ونادى أحد أولاده، وطلب منه أن يصحب المنذر ويحسن إليه.

أخذ البرمكي الابن المنذر بن المغيرة وسار به من دار إلى دار، ووضعه في دار فاخرة. واستحى المنذر أن يطلبَ منه الخروج لكي يتعهد عياله الذين تركهم في المسجد. وبات ليلته على فراش وثير، ولكنه كان مهموماً يفكر في عياله ويتحسر على طبق الذهب الذي تركه عند يحيى البرمكي وهو يحدثه. وفي الصباح سأل بلهفة عن عياله. فقال له الخادم: ألم ترَ عيالك بعد؟ قم إليهم. وأخذه الخادم إلى مكان آخر في الدار فرأى المنذر عياله كلّهم وهم في أحسن ملبس. واكتشف أن يحيى البرمكي قد أحضرهم من المسجد. ورأى عند عياله ذلك الطبق الذي افتقده. وعندما استأذن المغيرة البرمكي الابن في الخروج، قال له: وأين تخرج؟ هذه الدار لك. وكلُّ ما فيها ملكُك. وأعطاه مالاً عظيماً. وظل الرجل في خدمة البرامكة. وعندما نُكبَ البرامكة صودرت أموالُ المنذر وافتقر مرة أخرى.

عندما وصل المنذرُ إلى هذا الحد من حكايته بكى المأمون. وأمر بردِّ كل ما صودر منه، وأعطاه المزيد. والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرّجت عن سوّار القاضي ببركة الكفيف،

رَكِبَ الديْنُ سَوَاراً القاضي. وبلغ دينُه خمسين ألف دينار تحيّر في أمرها، وركبه الهمّ. وعاد يوماً إلى بيته فوجد وكيله قد أحضر ألفي درهم من غلةِ ضيعةٍ كانت له. ولكنّ الألفي درهم لا تساوي سوى بضعة دنانير. قال سوّار للوكيل أبقِ الدراهمَ معك حتى نرى كيف سنُنفقها. وطلب سوار الغداء فجاءه. فلم تشته نفسُه الطعام فأمر به أن يرفع فرُفع. وطلبَ النومَ فامتنع النومُ عليه. وأراد أن يحادث أهل بيتهِ فلم يجد في نفسه رغبة في الكلام. فركب بغلةً له شهباء وقال لوكيله: اتبعني. ومضيا على وجهيهما. وسوّار متفكِّرٌ مهموم. مشيا طويلاً في دروب بغداد. وعبرا الجسر وانتهيا إلى طرف الصحراء، ثم عادا إلى باب الأنبار. وأمام قصر منيف عَطِش القاضي، فطلب من خادم بباب القصر ماء وشرب. ثم دخل مسجداً فصلّى العصر. وعند خروجه من المسجد وجد رجلاً كفيفاً يقتربُ منه. فقال له: ما تريدُ يا رجل؟ قال له الكفيف: أريدك أنت. شممت رائحة طيبةً فتخيلت أنك من أهل النعمة. قال له سيارُ القاضي: وماذا تريدُ مني؟ قال الكفيف: هل ترى القصر القريب؟ قال سيار: نعم. قال الكفيف: هذا القصر كان لنا، ثم باعه أبي وافتقر، ثم مات، ولم يترك لي شيئاً أعيش به. وقد جئتُ صاحب القصر أسألُهُ أن يتصدق عليّ، فقد كان صديقاً لأبي. وقلتُ له أعطني دراهم قليلة آكل منها، حتى تتاحَ لي فرصة لمقابلة سوّار القاضي فهو سينظر في حالي، فسوّار كان أيضاً صديقاً لأبي. ولكن صاحب القصر لم يعطني شيئاً. فسأله سوّارٌ: ومَنْ أبوك؟ فأخبره الكفيف. فصفق سوّار كفاً بكف وترحمّ على والد الكفيف. وقال له: يا أخي. لقد منعني الله طعامي وشرابي وحرمني نومي وجاء بي على وجهي حتى ألقاك. أنا سوّار القاضي. ففرح الكفيف. فقال سوّار لوكيله: ادفع إليه بالألفي درهم. فقبلها الكفيف شاكراً. فقال له سوّار: إذا كان الغد فإتني حتى أتعهدَك. كل هذا وسوّار مدين بخمسين ألفَ دينار، وها هو قد أعطى الكفيف كل ما يملك.

وانصرف سوّارٌ راضيَ النفس مع ذلك. وبعد العِشاء جاءه رسول الخليفة المهدي يستدعيه. دخل سوّار على الخليفة فسأله عن أحواله. فقصّ عليه سوّار قصة الكفيف ولم يذكر شيئاً عن ديونه. فقال له المهدي: بارك الله فيك. وأمر الخليفة بألفي دينار وقال لسوّار ادفعها للكفيف. فأخذ سوّار المال وخرج. وقبل أن يصل الباب ناداه الخليفة وقال له: هل عليك دين. فقال سوّار: خمسون ألف دينار. فقال المهدي: أعطوه مئة ألف يسدُّ دينه ويوسِّعُ على نفسه. فخرج سيار وقد انقلبت حالُه ببركة ذلك الكفيف. والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرّجت عن سلمة النصراني،

كان سلمةُ النصراني فقيراً. وكان له أخ غني. وكان سلمةُ عفيفاً نظيفَ اليد ولكنه قليل الحيلة. طلب من أخيه عملاً يؤديه له فقال له أخوه: "تشتغل عندي شاكرياً" أي خادماً. أراد الأخ الغني أن يذلّ أخاه. أو لعله أراد أن يعرض عليه شيئاً لا يستطيع الأخُ الفقير إلاّ أن يرفُضَه فيتخلصُ بذلك من الحرجِ. لكن الأخ الفقير قَبِل، وصار خادماً لأخيه الغني. . صار إذا ركب أخوه الغني يركُضُ وراءه حافياً. ثم عندما يصل الغني إلى المكان الذي قصده يُمسكُ بركابه ويعينه على النزول ثم يأخذ الدابة ويعتني بها.

وظل هكذا زمناً. وذات يوم سأل الوزير جلساءه عن هذا الخادم المخلص الذي يبدو أنه ذو أصل وشرف، وهو يشتغل خادماً مع أنه رجل كبير. قالوا له: هذا سلمة. وهو أخو فلان الغني. فاستغرب الوزير الوضع، وطلب الأخ الخادم سلمة، وكلّفه أن يعمل عنده في ضبط حاجيات القصر وفي محاسبة البقالين والحمالين والطباخين. وفي رأس الشهر اكتشف الوزير أن نفقة قصره انخفضت، وظل يكتشف في كل شهر أن أمانة سلمة النصراني كانت سبباً في توفير عظيم. وحسُنت حالُ سلمة وصار يركبُ دابةً إلى منزله بعد أن كان يجري حافياً وراء دابة أخيه الغني.

وحدث أن سأل الخليفةُ المتوكلُ وزيره عن رجل يضبط له مصروفات قصره، فسكت الوزير. ثم قال للخليفة: كنتُ أحبُ أن أخفيَ عنك خبر سلمة. ولكنّ الطاعة لك توجبُ عليّ أن أعرّفَكَ بهذا الرجل الأمين. وانتقل سلمة إلى قصر المتوكل. وصار أميناً على نفقاته. وصار المتوكل يغدقُ عليه المال حتى غدا أغنى من أخيه. وضعفت حال الأخ اللئيم وسقطت منزلته في بغداد لأن الأمراء والكبراء صاروا يقولون: هذا الرجل هو الذي شغّل أخاه خادماً يركض وراء دابته حافياً.

وذات مرة غضب المتوكلُ على سلمة وحبسه في غرفة من القصر لتقصير وقع. ثم خطر بباله ذات عشية أن يفاجيء سلمة ليرى ماذا يصنعُ في هذه الغرفة. فدخل عليه فوجده قد فرش أوراقاً، ورآه يحسُبُ ويرتب نفقات القصر. فقال له: يا سلمة، حبستُك هنا، وعزمتُ على أن أطردك وأجردك من كل أموالك وأن أصادر بيتك وكل ما تملك. وها أنا أراك تحسُبُ وتعمل، وكأنك في الخدمة. فقال سلمة: يا أمير المؤمنين. . هذا من ثقتي بحُسنِ رأيك. فسُر منه المتوكل. وعفا عنه ورفعه درجة. وسمح له أن يركب حماراً يتجول به في أروقة القَصر الواسع. ولم يكن أحد قبل ذلك يركبُ دابّة داخل قصر المتوكل سوى المتوكل نفسِه. ولم يلق سلمة من المتوكل بعدئذ إلا كلّ خير. والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرجت عن أبي المغيرة،

اقترب أبو المغيرة من الرّملة وهبط المساء عليه، ووجد نفسه عند مقبرتها، فقال: أنام بين القبور وأوفِّر أجر الخان هذه الليلة. وبينما هو يوسّد لنفسه مكاناً، إذا به يرى شبحاً بين القبور. استل سيفه واختبأ خلف قبر. رأى شبح ذئب كبير ورآه يقف على قائمتيه الخلفيتين.. ثم يُقعي. ثم بدأ الذئب ينبش قبراً. تقدم أبو المغيرة ورفع سيفه وأهوى به فرفع الذئب يده. فقُطعت يدُه من ضربة السيف. وهرب مسرعاً. أمسك أبو المغيرة باليد المقطوعة فإذا هي يد امرأة يبدو أنها شابة. فأخذ يركُضُ خلفها، وهو يراها من بعيد. ودخل الرملة.. وهو يعدو خلف تلك الفتاة. رآه تلبس على ظهرها فرواً له ذيل كفرو الذئب. ثم دخلت الفتاة بيتاً وأغلقت بابه. فعلّم أبو المغيرة البيت بعلامة حتى يعرفه.

في اليوم التالي سأل أبو المغيرة عن صاحب البيت، فقيل له: هذا بيت القاضي فلان. وعند العصر قصد أبو المغيرة البيت واستأذن على القاضي. وأخرج اليد المقطوعة ووضعها أمامه فانتفض القاضي. وقصّ عليه القصة. وتبين القاضي الأمر فإذا اليدُ يدُ ابنته. كانت الابنة كلما سمعت أن أحداً قد مات ودفن خرجت في الليل، ولبست فرو الذئب لتنبش القبر وتأخذ منه الكفن. وكانت تساعدها وتتكتم عليها أمها. وقد جمعت في قبو البيت عشرات الأكفان. ليس حباً في شيء سوى أنها أصيبت بضرب من جنون نبش القبور وجمع الأكفان. رأى القاضي ابنته ويدُها مقطوعة وقد عالجتها أمها بالزيت المغلي، وقال لأبي المغيرة: هذه ابنتي، وهذا أنت، وقد عرفت ما جرى. فإن كنت تريد الستر فاستر، وإن كان لك أن تُصلِح فتزوجْها. فرضيَ أبو المغيرة. وتزوج الفتاة، وأقام في بيتٍ بالرملة.

وفي ليلة من الليالي أحسّ أبو المغيرة وهو نائم بثقل على صدره. فتح عينيه فرأى زوجتَه جاثمةً على صدره، وقد ربطت يديه ورجليه. ورأى في الحجرة جواريها وفي يد كل منهن سكين. قالت له زوجته: ستموتُ الليلة. قال لها أبو المغيرة: أو نتكلم قليلاً؟ قالت: تكلم. قال لها: لا تأمنين أن ينكشف أمرُك فتقتلين. ولكن عندي لك ما ننجو به جميعاً. قالت: ماذا؟ قال: أنت طالق بالثلاث. وأنا أرحل عن البلد غدا.

فنظرت الفتاة إلى جواريها، فقلن لها: ذلك خيرٌ من قتله. وقامت الفتاة وفكت طليقها وأعطته كيساً فيه مئة دينار وذهب ولم يعد. والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرجت عن الهبيري،

قصة الهبيري هي أنه كان رجلاً من المتصرّفين أي من كبار الموظفين في الدولة. ثم لحقت به ضائقة، ولم يعد له عمل. صار يقف بباب الوزير يطلبُ عملاً يعيشُ منه. كان يأتي كلّ يوم إلى باب الوزير ويمكثُ ساعةً. فعندما يأتي الوزير إلى ديوانه يراه ولا يعبأ به. قال الوزير يوماً لكاتبه: هذا الهبيريُّ أزعجنا، اصرفه عنا وقل له إنه لن ينالَ رزقاً على يديّ أبداً، ووالله إني لأتأذى من رؤيته كل صباح. فقال الكاتب للهبيري ذلك، فقال له الهبيري: كما أبلغتني رسالة الوزير أبلغ الوزير كلامي. قل له: إن للرزق أبواباً، وبابُ رزقي أنت. فإن قسم الله لي شيئا فسآخذه رغماً عنك. وإلا فسأوذيك برؤيتي كما تؤذيني بتعطيلك إياي.

وصار الهبيري يقف بباب الوزير مرة في الصباح ومرة عند العصر. وأخذ الوزير يدبرُ له تدبيراً. أراد الوزير أن يتخلص من هذا الرجل المزعج.

ذات يوم ركب الوزير وقصد قصر الخليفة، فرأى على بابه وهو منطلق الهبيري، فأشاح عنه بوجهه. ثم مضى ودخل على الخليفة. وفي أثناء الكلام سأله الخليفة: أعندك رجل نوليه مصر، فيذهبُ أميراً عليها. ففكر الوزير ثم فتح فمه.. وقال: الهبيري. فقال الخليفة: آه، هذا الرجل الذي صرفناه من الخدمة؟ إنها والله بادرة طيبة أن نقلده عملاً. فصاح به الوزير مستدركاً: يا أمير المؤمنين أنا قصدتُ الزبيري. وكان الوزير قد أراد أن يقول (الزبيري)، ولكن الله أنطق لسانه باسم الهبيري لكثرة ما انشغل فكرُهُ به. فقال له الخليفة: بل نولي الهبيريَّ إن شاء الله. فسعى الوزير أن يثنيَ الخليفة عن رأيه فلم يفلح. فقال له الخليفة: ويحك، يظهر أنه جرى بينك وبين الهبيري شيء! فقص عليه الوزير مضايقة الهبيري له.. وكيف أنه يقف له بالباب ويصر على أن يكون رزقُه على يديه. فضحك الخليفة ثم قال: قد والله صدق.. ورَزَقَه الله على يديك رغماً عن أنفك: وهذه بعدُ ثلاثون ألف درهم خذها وأعطها للهبيري حالاً قبل أن ينصرف إلى مصر.

وهكذا كان. والله أعلم.

اللهم فرج عنا كما فرجت عن وكيل زبيدة،

كان الأمراء في العصر العباسي يتخذون وكلاء يديرون لهم مزارعهم وضياعهم ويقبضون الخراج من الفلاحين ويبيعون محصول الأرض. وكثيراً ما كان الوكيلُ يخونُ الأمانة. وكثيراً ما كان الأمير يشك في وكيله لغير سبب، أو لما يسمع من كلام الحساد. وقد كان لزبيدةَ حفيدةِ الخليفة المنصور وكيلٌ. وقد حبسته وطالبته بألفي دينار. وكان لهذا الوكيل صديقان في بلدة أخرى. فلما سمعا بنبأ حبسه، تجهزا وقصدا بغداد ليحاولا إطلاق سراحه. ونزلا في الطريق على رجل يسمى الفيض بن أبي صالح وأخبراه بقصدهما. فقال لهما: أولا تريدان أن أكون معكما؟ فقالا: على الرحب والسعة، ثلاثة خيرٌ من اثنين. ومضى الثلاثة إلى بغداد والتقوا بكاتب الأميرة. فقال لهم: لا سبيل إلى إطلاق الوكيل إلا أن يدفع ألفي دينار. ثم كتب الكاتب رقعة للأميرة أخبرها فيها بخبر الوساطة، فكتبت في ذيل الرقعة: لا نطلقُ الوكيل إلا أن يدفع ما عليه من المال. فقال الصديقان: قد والله قمنا بواجبه. والآن لا سبيلَ إلى إطلاقه وأرادا العودة. فقال لهما الفيض: أليس رجلاً أميناً شريفاً. قالا: بلى. فقال لهما: إذن أدفعُ المال عنه. وقصد الفيض تاجراً ببغداد يعرفه واقترض منه المال وذهب به إلى كاتب الأميرة، وقال له: هاكَ المال، فأطلق الرجل. قال الكاتب: لا سبيل إلى ذلك. لا بد أن أرفع الخبر إلى الأميرة أمّ جعفر زبيدة. وأرسل الكاتب رقعة إلى الأميرة، عرّفها فيها بخبر هذا الذي يصاحبُ الصديقين، ولَا يعرفُ الرجل المحبوس، وهو مع ذلك جادٌّ في إطلاقه.

فكتبت زبيدةُ في ذيل الرقعة: بل نردُّ المال على الفيض بن أبي صالح، ونطلقُ سراحَ الوكيل. نحن أولى بهذه المكرمة. وهكذا خرج الوكيل من حبسه. وانتفع بسعي رجل لا يعرفه، وكسب صداقة رجل ذي نخوة وشهامة. والله أعلم

برنامج أحاديث رمضانية، من ثلاثين حلقة، يستند إلى كتاب "الفرج بعد الشدّة" للقاضي التنوخي، وأعيدت كتابته للإذاعة.

– الفصل الثاني –

الإذاعة خبر

أنت في سيارتك. متوجه من قريتكم إلى المدينة. وبجانبك أمك، تصحبها لمراجعة الدكتور. تفتح الراديو على نشرة الأخبار: أخبار عن الحاجز والاعتقالات وتشكيل قائمة الحزب الحاكم لخوض الانتخابات، وأخبار عن حالة الطقس. . ثم تنتهي النشرة. تسألك أمك: إيش فيه في الأخبار يا بنيي؟ وتكتشف أنت أن أمك، التي طالما فاخرت بأنها تقرأ وتكتب وليست أمية، لا تفهم الفصحى، وبأنها محتاجة إلى من يفسر لها نشرة الأخبار المحلية في الراديو.

مبروك عليك هذا الاكتشاف. وهو، بعد، اكتشاف لم يتوصل اليه كثيرون من جهابذة الإعلام حتى الآن. بعضهم منشغل بتنظيف النشرة من الأخطاء النحوية، وبعضهم ما زال يبحث عن الألفاظ العجيبة التي يراها خير زينة للنشرة من قبيل "هذا وقد" و" وإلى ذلك" و "استحقاقات" و "استعصاء".

الشعب بشكل عام يفهم ألفاظ الفصحى ولكنه يضيع في الجمل الطويلة والمتداخلة. لكن المشكلة أعمق من أزمة فصحى وعامية: الشعب ليس منخرطا في الجو السياسي العام، لأنه ليس مشاركا فيه بالقدر الكافي. والشعب غير قاريء، وعنده مشكلة فصحى ومشكلة ثقافة أيضا، ومن جهة أخرى فالمذيع لا يخاطب الشعب ولا يضع الشعب في حسبانه، ومعظم المذيعين يسعون إلى إرضاء مديرهم المباشر أو زملائهم في المهنة، وهم في الأغلب كسالى ينسخون أخبار الوكالات نسخاً.

ويأتيك مذيع يدافع عن الفصحى دفاعا يكاد في ثناياه أن يدعو إلى تحرير الأندلس، وبما أننا هنا نريد رصد الظاهرة أكثر مما نريد تحديد العلاج فإننا نكتفي بوصف عام لطرق العلاج.

من الممكن الإبقاء على الفصحى في الإذاعات الكبرى التي تبث لمدن كثيرة فيها لهجات كثيرة. لكن، لا بد من تبسيط هذه الفصحى في الألفاظ وفي الأساليب إلى أبعد حد ليفهمها الشعب، ومن الممكن تجربة صياغة نشرات بالعامية، ومن الممكن صياغة نشرة الأخبار بشكل حوار عامي بين شخصين.

الهدف الأسمى لنشرة الاخبار هو إشراك الناس في فهم ما يجري، وبالتالي في اتخاذ القرارات، وهذه طريقة معقولة لكبح جماح الدكتاتور والزمرة التي تحيط به والتي تحجب عنه المعلومة وتسعى إلى حجب المعلومة عن الناس أيضا، على أن الهدف الأقرب للنشرة إنما هو إبلاغ المستمع بما يجري.

الحجاج بن يوسف وجنوده

قيل إن الحجاج اتخذ جنوداً من أهل العراق انضموا إلى جنوده الذين أتى بهم من الشام، وبعد حين شكا جنوده العراقيون بأنه لا يكلفهم بالمهام ولا يغدق عليهم مثلما يغدق على الشوام. وذات يوم كان مع حشد من جنوده على أطراف البادية، ورأى قافلة مقبلة من بعيد، فقال لجندي عراقي: إذهب وأتني بخبر تلك القافلة، فانطلق الجندي على فرسه، وبعد حين رجع لاهثا فلم يكلمه الحجاج، بل قال لجندي آخر شامي: إذهب وأتني بخبر القافلة، وفي هذه الأثناء سأل الحجاج الجندي العراقي وقد استرد أنفاسه عن خبر القافلة، فقال له: قوم من التجار مسافرون شمالا، فألحّ عليه الحجاج في السؤال والاستقصاء فلم يجد عنده سوى الظنون والتقديرات. ثم إن الشامي رجع، وبعد أن استرد أنفاسه سأله الحجاج: ما خبر القافلة؟ فقال له الشامي: فيهم من الرجال كذا ومن النساء كذا ومن الأطفال كذا، وذكر له ما معهم من الإبل والخيول وما يحملون من سلاح، وذكر له قبيلتهم واسم قائدهم ومقاصدهم وما يمكن أن يشكلوه من خطر أو ما يمكن أن يتعرضوا له من خطر، وحدد له قيمة ما يحملون، وحدثه عن حراستهم وعن أدلائهم، فنظر الحجاج إلى أهل العراق، وكانت نظرته جواباً عن شكواهم.

يرسل رئيس التحرير في الراديو الصحفي الشاب إلى الميدان في مهمة، فيعود الصحفي ليقول في تقريره إن فلاناً اجتمع بفلان ووقعا على اتفاقية مهمة ثم يملأ تقريره بالثرثرة وبالحديث عن أهمية ذلك الحدث التاريخي.. الخ، وقد يرسل صحفيا آخر - وقد يكون أيضا شابا- فيعود اليه بتقرير دسم يسمعه السامع فيفهم ويعلم التفاصيل.

جزء من هذا الأداء موهبة، وجزء منه تعلم. وخير جهاز يستعمله الصحفي إنما هو تلك الملكة النفسية التي نسميها "الفضول". ولعل الجهاز الآخر: جهاز التسجيل، يعطل قليلا عمل هذه الملكة، فكم من إذاعي راح يلتقط بجهاز تسجيله التصريح الفلاني والتعليق الفلاني والكلمة الافتتاحية الفلانية، ثم أحس أنه ملأ وجه كاسيت بالكلام الخطير، فرضي عن نفسه ثم رجع مستعجلا إلى محطته ليكتشف أن إحساسه بالامتلاء خدعه: فالشريط مكتظ، ولكن ذلك الجهاز اللعين عطل ملكة الفضول في نفسه. بعد أن يستمع الصحافي إلى ما قد سجل، يبدأ يسأل نفسه السؤال تلو السؤال دون أن يجد إجابة. المسجل ضروري للإذاعي في الميدان ولكنه لا يغني عن الفهم وعن تشغيل جهاز "الفضول".

لا بد للإذاعي أيضا من معرفة البلد وأحداثها وشخصياتها وتاريخها، وأن تكون له متابعة لما يجري، فإن كان صغيرا ولم يشهد الانتخابات التي جرت قبل عشر سنوات فليقرأ عنها في تحليلات الجرائد وفي الكتب، وإن كان جاهلا بتوزيع المقاعد على المحافظات وبالنظام الانتخابي فليذهب إلى قانون الانتخابات وإلى دستور البلد وإلى المعلومات الإحصائية التي توفرها الجهات المختصة وليقرأ كثيرا. الذي لا يعرف ما حدث أمس لا يمكنه أن يغطي ما يحدث اليوم.

المؤتمر الصحفي

قد يكون هناك نسكافيه وشاي، وحتى بعض البسكوت، على الموائد المنصوبة في القاعة الخارجية. وقد تطيب لك هذه الأشياء وتنزل من زورك منزلاً حسناً بينما أنت تتحدث مع رفاق المهنة قبيل بدء المؤتمر الصحفي. لكنّ خيرَ قهوة يشربها الصحفي القهوةُ التي يدفع ثمنها.

المؤتمر الصحفي لا يقدم لك خبراً على طبق من ذهب. إنه دعوة من جهة معينة تريد منك أن تُشيد بها. ولكنك لا تستطيع أن تتغيب. فقد يغلط الوزير ويقول شيئاً له قيمة خبرية، وقد تحرجه أنت أو زميل لك بسؤال يكشف جوابه أو الصمت عنه عن شيء. وقد يكون للجهة الداعية نية حقيقية في الكشف عن شيء مهم.

لن تنال سبقاً في المؤتمر الصحفي. ولكنك قد تستفيد. وفهمك للأجواء وقوة متابعتك للأحداث يمكّنانك من تمييز الغث من السمين بسرعة، ومن الحصول على بغيتك.

أول خطأ يرتكبه الصحفي الناشىء ينبع من إساءة فهم لمصطلح "تغطية" المؤتمر الصحفي. فكلمة تغطية توحي بأن على المرء أن (يغطيَ) المؤتمر من أوله إلى آخره كما يغطي صحفة الحلوى كي لا يقع عليها الذباب. وبعض الصحافيين في البلاد المتخلفة يتقاعدون وهم لا يصنعون شيئاً في المؤتمر الصحفي سوى أن يغطوه ويلخصوه ولا يتركوا شاردة فيه ولا واردة إلا وتحدثوا عنها. وتلك لعمري خطة غبن للمستمع.

حضرتُ في أوائل التسعينات مؤتمراً صحافياً لوزير خارجية الولايات المتحدة جيمس بيكر في موسكو، وكنتُ بمعية زميل في هيئة الإذاعة البريطانية اسمهُ بارنابي مايسون. كان الوفد الفلسطيني قد امتنع عن حضور جلسة الافتتاح في مؤتمر يتعلق بالمحادثات المتعددة الأطراف، وكان هذا هو خبر اليوم. وفي عصر ذلك اليوم عقد بيكر مؤتمره الصحفي، جلستُ بجانب بارنابي ومعي القلم والورقة، وراح جيمس بيكر يتحدث عن عملية السلام وآفاقها، وعن إنجازات اليوم الأول من المؤتمر، ودونت من كلامه ما تمكنت من تدوينه. كل هذا وبارنابي جالس مكتّف اليدين يحملق في السقف، وعند لحظة معينة من حديث الوزير الأمريكي فكّ زميلي يديه وأصغى باهتمام. ثم قام. قلتُ له: إلى أين؟ قال: ذاهب لكتابة تقريري.

تركتهُ يذهب. وبعد نصف دقيقة ذهبت أنا أيضا.

عرفت سبب انصرافه: لقد حصل على الخبر. حصل على قصته. قال بيكر إنه يتفهم أسباب غياب

الوفد الفلسطيني وإنه سيعمل على تدارك الأمر . وبدا واضحاً أنه لا يريد أن يضيف شيئاً على هذا الموقف . وفهم بارنابي أن الدبلوماسية الأمريكية ستعمل في ساعات المساء لتغيير الموقف الفلسطيني . وفهمتُ أنا ذلك ، أرشدني إليه انصراف زميلي .

في ثوانٍ قليلة علمني ذلك الزميل درساً مهماً في "تغطية" المؤتمرات الصحفية .

إذا كان عمرك في المهنة سنة أو سنتين فإنني أنصحك أن تذهب للمؤتمر الصحفي للاستماع فقط . لا تسأل . ولا تجعل العالم يضحكون من جهلك . وعد إلى إذاعتك بنبذة صوتية صالحة ، واستجمع كل ما لديك من فهم لاكتشاف أهم خبر ، إن كان هناك أصلاً خبر . ولا تورد في تقريرك إلا خبراً واحداً . وإذا مضت عليك في المهنة عدة سنوات فإنني أنصحك : لا تسأل إلا إذا كان عندك سؤال مهم ومحرج . وأنصحك أن تجعله موجزاً ، وألا تجعل وقفتك مداخلة . إصرخ بسؤالك في ثقة ، وليكن سؤلاً واحداً ، وليكن مكوناً من سطر واحد . ولا يهمني كمستمع أن أعرف أن صاحب السؤال هو أنت . ومن تمام تواضعك ألا تقول في تقريرك : "ورداً على سؤالٍ لإذاعتنا قال الوزير كذا" . وإذا لم تتمكن بسؤالك من استدرار رد مهم فلا حاجة بنا إلى السؤال ولا إلى الجواب .

أسئلة لا نريدها

الأسئلة التي يكرهها الصحفي هي تلك التي تتولد في نفس المستمع ، ولا يلقى لها جوابا في التقرير . الصحفي الجيد هو الذي لا يترك ثغرة إلا سدّها . ولكنك قد تجهل فعلاً سبب استقالة الوزير . فهل ستكتب في خبرك أن الوزير استقال ثم بعد ذلك تسكت؟ بالطبع لا . يجب أن توضح للمستمع أن الوزير لم يذكر لاستقالته سبباً . وسيسأل المستمع نفسه : ولكن هل سُئل الوزير أصلاً عن سبب استقالته فرفض الإفصاح؟ وهل سُئل رئيس الوزراء؟ وماذا كان جوابه . عليك أن تبين الموقف وتجيب على الأسئلة التي سيسألها المستمع . وبعد أن توضح للمستمع أن الوزير رفض الإجابة عندما سُئل عن سبب الاستقالة وإن رئيس الوزراء قال إن الاستقالة لم تُقبل وإنه لا يراها قاطعة . وبعد أن تستنفد كل ما قيل في شأن سبب الاستقالة ، سيعود المستمع ليسأل نفسه : ولكن ، ما هي يا ترى الأسباب المحتملة للاستقالة؟ وماذا يهمس الصالون السياسي بشأنها؟ هنا عليك أن تطرح الأسباب المحتملة وأن تشير إلى الهمس الذي سمعته . والسياسيون ثرثارون وغدّارون ويحبون أن يهمسوا في آذان الصحفيين . لكنك بالطبع تعرف السياسيين ، وتعرف كيف تعرضهم على محك الجرح والتعديل . قد يهمس لك وزير يبادلك الثقة ، بأمور يصلح بعضها للنشرة منسوباً إلى مصدر مطّلع . الأمر هنا منوط بسعة معرفتك

بالصالون السياسي وبقدرتك على تجنب الأفخاخ. فالسياسيون يكره أحدهم الآخر ويتمنى له ميتة عاجلة غير مؤلمة. وهم يكذبون على الصحفي الناشىء على وجه الخصوص. فأما الصحافي المتمرس الذي يريدون الحفاظ على صداقته فلا يخونونه بسهولة، ولا يضمنون أنه يبتلع الطعم أصلا.

قد يحمل الخبر - الذي لا تزيد مدة إلقائه ضمن نشرة الأخبار عن نصف دقيقة - شائعات وأقوالاً منسوبة إلى مصادر غير محددة. هذا ممكن ومحبّذ. فالدنيا مليئة بأنصاف الحقائق. ولكن الخبر يجب أن يحمل أيضاً تحليلاً وتفسيراً إذا كان من النوع الذي يحتوي على غموض. فأنت كصحفي تعرف شخصية الوزير، وتعرف سجله الاستقالي، وتعرف طبيعة الأجواء السياسية في البلد، وتعرف مشكلات الوزير في وزارته، ومعاركه مع رئيس الوزراء ومع زملائه. ومن خلال هذه المعرفة تتمكن من التمييز بين استقالة الدلع واستقالة الغضب واستقالة الحرد والاستقالة القاطعة (وهي حتى الآن مفقودة في فلسطين). ومن خلال معرفتك يمكنك تنوير المستمع من خلال سطر تحليلي.

التحليل ليس ممنوعاً في الخبر كما يظن الكثيرون. لكن إيراد الأحكام القاطعة غير المستندة إلى وقائع ممنوع. وإيراد تحليل في جسم الخبر مهم جداً وصعب على المبتدئين. ولكن، ليس كل خبر بحاجة إلى تحليل.

كتابة الخبر

هل ستبدأ بالقول "يواصل وزراء الخارجية العرب اجتماعاتهم في.."؟ كلمة (يواصل) معناها أنه لا يوجد خبر. أمَا قال أحدهم كلاما يصلح أن تبدأ به؟

لا بد أن يكون السطر الأول محتويا على (رأس الخبر)، أي على ذلك الشيء الجديد المثير القوي. وهذا في الإذاعة ألزم منه في الجريدة أو التلفزيون. لا بد من أن تشد المستمع.

عندما تجمع المعلومات والتفاصيل المتعلقة بالخبر، سواء من الميدان أم من الوكالات، عليك بالاسترخاء، وعليك بكتابة الخبر بنفسك وتوجيهه لمستمعك أنت. تخيل نفسك تدخل من باب الغرفة وتجد فيها عدداً من الزملاء. وتخيل أنك دخلت عليهم في لحظة صمت. ستقول لهم أولا: هل سمعتم؟ سيقولون: ماذا؟ وستبدأ بعدها في إخبارهم بما جرى. ستقول: حصل كذا قبل ساعتين في المكان الفلاني بسبب كذا وعلى النحو الفلاني وكان حصل أمس كذا مما أدى إلى كذا. وكلما وقفت لتأخذ نفسا سألك أحدهم سؤالا عن شيء نسيته أو شيء لا تعرفه، وأنت تقول ما تعرف

وتعترف بما لا تعرف. وفي خلال نصف دقيقة ينتهي كل شيء. يحدث هذا الموقف مع كل واحد منا بغض النظر عن مهنته. كل إنسان هو كاتب أخبار ممتاز بالسليقة. وكاتب الأخبار المحترف يكون محترسا من نسيان أي عنصر لأن المستمع ليس حاضرا ليسأله عما نسي.

عندما تكتب الخبر تصرف كإنسان بسيط يخاطب ناسا بسطاء ويخبرهم بما جرى ويشرح لهم الدوافع ويطلعهم على الخلفيات.

ما أسهل ذلك. ولكن بعض الصحافيين الناشئين ما إن يُمسكوا بالقلم ليكتبوا خبرا حتى ينزل عليهم وحي الفصاحة والتعقيد فيشلّهم. وتلدغهم الفصحى فلا يرجى منهم بعد ذلك خير. عندما تكتب الخبر تخيل أنك تقوله لجدتك. إحك ببساطة وأفهم المستمع. مشكلة المدّرسين في كليات الصحافة أنهم يدربون الطلبة على أخبار جاهزة من الوكالات أو مواقع الإنترنت، فلا يمر الطالب بمراحل جمع الخبر وكتابته، بل يأخذه لقمة سائغة.

خير طريقة للتدرب على كتابة الخبر أن يخرج المتدرب إلى الميدان للعثور عليه ثم صياغته.

هل يعقل أن تقول لجدتك: استقبل الرئيس اليوم السفير الهنغاري الذي صرح بأن اللقاء كان مثمرا. هل هذا خبر أصلا؟. فكر جيدا في تشريفات المسؤولين الكبار. إنها ليست أخبارا إلا إذا كان وراءها شيء مهم. ومن واجبك أن تعثر على الشيء المهم. الرئيس ينام ويقوم ويعطس ويسعل، وهذه كلها، بالمناسبة، ليست أخبارا. وهو يستقبل ويودع ويقرر ويوقع وهذه أيضا ليست أخبارا. الخبر هو ما كان جديدا ومثيرا ومؤثرا في حياتنا وطريفا وقريبا إلينا. الخبر هو ما تريد جدتك سماعه.

الخط الفاصل مابين الخبر التشريفاتي الصرف والخبر الحقيقي ليس واضحا. المسألة بحاجة إلى قليل من التروي. إن اداء الرئيس لصلاة الجمعة ليس خبرا لأنه يؤديها كل جمعة. ولكن، لو كان ذُكر أن الرئيس مريض، وأنه طريح الفراش فقد يكون أداؤه الجمعة في المسجد خبرا. لا يمكن تصنيف الأخبار بشكل قاطع. فما هو تشريفاتي هذا الأسبوع قد يكون مهما في الأسبوع التالي. ليس هناك " قانون " واضح للأخبار.

كثيرا ما تفلت من أذن المستمع كلمة مهمة في السطر الأول. . وينتظر بلهفة حتى تتكرر هذه الكلمة، وغالبا ما تكون اسم شخص مهم. ولكن عبثا. يمضي المذيع قائلا: ولكنه رفض الإدلاء بأي إيضاح. ثم يقول المذيع: وهو يُعَدُّ من الوزراء الذين لعبوا دورا مهما في كشف فضيحة الفساد الأخيرة. والمستمع يتشوق أكثر لمعرفة الـ " هو " هذا. ولكن يبقى (هو) هو حتى نهاية الخبر. المحرر البارع يكرر الاسم في وسط الخبر عمدا. ومن المحررين من يتعمد تكرار رأس الخبر كله خدمة لمن كان ساهيا في

البداية. بعض المحررين يظن أن تكرار الاسم من الكبائر فتراه يخترع اسمين أو ثلاثة للدولة فيقول مرة اسرائيل ومرة الدولة العبرية ومرة تل أبيب. يحسن بالمحرر البارع ألا يكثر من هذه الحركات. كرر ما شئت شرط أن تُفهمني الخبر.

وأسوأ من هذا أن يهرب المحرر من كلمة (قال). يحسن بالصحافي أن يتذكر أن (أكد) و(أفاد) و(أعلن) ليست مرادفات لقال. ويحسن به أن يتجنب كلمتي زعم وادّعى تماما. فهما تعنيان: كَذَبَ. وخير لك ألا تحكم على أحد بالكذب، بل اترك خصمة ليصدر هذا الحكم وانقل كلام الخصم. لا بأس في أن تتكرر كلمة (قال) عشرين مرة في الخبر. إنها كلمة لا يلاحظها السامع.

ما أكثر ما يفتح المستمع الراديو متأخرا عن بداية النشرة. وما أكثر ما ينسى المذيع إعادة الموجز في الختام. إذا كانت نشرتك خمس دقائق، فما فوق، فمن الضروري إعادة الموجز في ختامها، ليس لأن تلك قاعدة من قواعد "العلم الإذاعي"، ولكن لأنها حاجة يحس بها المستمع. وقد سمعت إذاعات محترمة كثيرة تتصرف حيال هذا الأمر عشوائيا. فالمذيع يعيد الموجز إذا كانت النشرة قصيرة أو إذا أحب أن يستمع لرنين صوته لدقيقة إضافية، ويهمل إعادة الموجز اذا كان متعبا أو كانت نشرته طويلة. والحل البسيط في النشرة الطويلة هو حذف الخبر الأخير وقراءة الموجز عوضا عنه. والنشرة بمجملها تحتمل دائما الحذف من آخرها شرط ألا يكون المحذوف واردا في الموجز. من المهم جدا للإذاعة، حتى تحافظ على احترام مستمعيها، أن تتبع وتيرة واضحة في النشرة وألا تجعل إعادة الموجز مسألة متروكة لمزاج المذيع.

يأخذنا هذا إلى النظر في النشرة بشكل مجمل.

نشرة الأخبار

هل يجوز أن نبدأ النشرة بخبر عن مقتل ولد في حادث سير، ونؤخر خبراً عن مقتل عشرة أشخاص في تحطم قطار؟ يجوز، إذا كان الولد من بلدنا وقتلى القطار من بلد بعيد. المعيار ليس الكم بل مدى أهمية الخبر للمستمع.

تصنيف الأخبار بحسب الأهمية من الأسس المهمة في الصحافة الإذاعية. فالمستمع ينظر إلى النشرة كمعيار للأحداث. والنشرة تشكل بالنسبة إليه دليلاً على ما يجري حوله وعلى مدى أهمية كل حدث. لذلك فالترتيب ضروري. لكن هذا لا يعني أنه أمر سهل أو أنه لا يحتمل الاختلاف في وجهات النظر.

هناك مقاييس كثيرة لتحديد مدى أهمية الخبر ، ويمكن تلخيص هذه المقاييس جميعاً بكون الخبر مؤثراً في حياة المستمعين وبكونه مؤثراً على مشاعرهم . المؤثر في حياتهم قد يكون قراراً يتخذه مجلسهم البلدي وقد يكون قرارا يصدر عن البيت الأبيض ، وقد يكون ألف شيء آخر . والمؤثر في مشاعرهم قد يكون خبر موت طفل تركته أمه في السيارة وهي مغلقة في يوم حار ونزلت لتتسوق في إحدى مدن أميركا . مثل هذا الخبر يلمس مشاعرنا الإنسانية . نحن بارعون في تجاهل الأخبار المشابهة لهذا الخبر الإنساني في نشراتنا الإذاعية . كأننا لا نريد أن نتعلم من مشاهدة بسيطة تحدث لنا في كل يوم . ألا نرى الناس يبدأون بقراءة الجريدة من الصفحة الأخيرة؟ إنهم يقرأون بشغف أخبار الصفحة الأخيرة لأنها عن الناس العاديين . هذه الأخبار يسمونها في الصحافة الغربية "الأخبار الإنسانية" ، ويعنون بذلك الأخبار التي تهم كل الناس بغض النظر عن الجغرافيا .

بالإضافة إلى هذه المعيارين : وهما التأثير في حياة المستمعين ، والتأثير في مشاعرهم ، هناك في بلادنا بعض المعايير المفروضة إما من قبل المجتمع أو الحكومة .

قد يفرض المجتمع علينا أن نبدأ بخبر الشهيد . فإذا سقط شهيد فلا يمكن لنا أن نبدأ النشرة بأي شيء آخر . هذا القانون قد يبدو غير منطقي في بعض الأحوال . فقد تمر أيام كثيرة يسقط في كل يوم منها شهيد أو أكثر ثم تمر في هذه الأيام أخبار في غاية الأهمية كإعلان نتائج الانتخابات الرئاسية . وهنا لا شك في أن المستمع يريد أن يسمع الخبر الجديد عن الانتخابات قبل خبر الشهيد . وبعض الحكومات تفرض على وسائل الإعلام البدء بالخبر الملكي أو الرئاسي وهذا أيضاً يبدو غير منطقي في كثير من الأحوال .

وقد عرفت الإذاعات والتلفزيونات التي تخضع نفسها لقانون (الخبر الملكي أولاً) أن هذا يفقدها قسطاً كبيراً من مصداقيتها وقد يجعلها أضحوكة لمستمعيها في بعض الأحوال . وبقي أن تعرف إذاعات بلدنا أن الإصرار على قانون (خبر الشهيد أولاً) يعرضها للشيء ذاته . سمعت مرة في صوت فلسطين ، الإذاعة الرسمية ، خبر الشهيد متصدراً ثم تلاه مباشرة خبر عن إدانة الحكومة الفلسطينية للعملية التي قام بها حتى استشهد . المضحك المبكي هو أن المحرر صاغ الخبر الأول معطياً الشهيد كل التمجيد ومسمياً عمليته التي قام بها "استشهادية" ، وصاغ الخبر الثاني بالشكل الرسمي المطلوب مسمياً العملية نفسها "تفجيرية" . الواقع أن المستمع أذكى من أن يكبح ضحكة السخرية عندما يسمع شيئاً كهذا .

نشرة الأخبار تقدّم للمستمع لكي تعرفه بما يجري وليس لرسم هالات القداسة على مفاهيم معينة . والأمر بيد الإذاعيين : يمكنهم أن يمارسوا الصدق مع أنفسهم ومع مستمعيهم . وسيجدون أن طعم الصدق حلو ، وسيكررون العملية .

ما تعاني منه نشرات الأخبار في بلدنا أكبر بكثير من الترتيب . ثمة تعتيم تتم ممارسته بدرجات وألوان . فقد يتم التعتيم على أخبار مسؤول معين لأن المشرف على النشرة في الإذاعة ، أو من يأتمر بأمرهم يكرهون هذا المسؤول . وقد يتم إخفاء الأخبار المحرجة للحكومة أو التي تتضمن معلومات لا تريد الحكومة تأييدها ولا تملك نفيها . وقد يتم إخفاء الجزء المحرج من الخبر وإبراز الجزء العادي . ويتم التعتيم على الأخبار التي تريد الدول الشقيقة والصديقة التعتيم عليها . ويتم التعتيم على أخبار المجتمع كلها تقريباً . الطوش العائلية التي يسقط فيها القتلى والجرحى ليست عندنا أخباراً حتى لو كان كل الناس يتداولونها ويهتمون بها ويريدون معرفة الذي حدث بالضبط وبعيداً عن الشائعات . إن كمية التعتيم الموجودة في نشرات الأخبار في بلدنا تجعل المرء يائساً من أي محاولة للإصلاح . هذا المجتمع بحاجة إلى أن يتحرر من الداخل لأنه مكبل بقيود النفاق والخوف وحجب المعلومات . ولا بد لي هنا من ملاحظة أن الإذاعيين ، والصحافيين بشكل عام ، يجارون المجتمع والحكومة في نظرتهما إلى نشرة الأخبار مجاراة تامة ، ولا تكاد تعثر على صحفي مرفوع الرأس ويشعر باحترامه لمهنته ولذاته الا بصعوبة . معظمهم يشتغلون في المهن الصحفية كعمال السخرة .

بعض الإذاعيين يتبع أسلوبا عجيبا لإقناع نفسه بأنه ليس عبدا . تراه يلبس خوذة المناضل وينزل إلى الميدان بميكروفونه . ويشتم الأعداء شتما بليغا مستعملا عبارات لا تليق بصحافي متكئا على كليشيهات قاءها كل الناس واحتقروها . ويشطب كل خبر فيه إشارة إلى قصور في جانبنا بحجة عدم نشر الغسيل الوسخ أو بحجة حماية الأمن الوطني . والمبتدئون في المهنة يخجلون من التصدي لهذه الحجج السخيفة لقلة خبرتهم . ويكبرون في المهنة وهم يمارسون اللاصحافة ويأخذون مواقعهم في ماكينة الإعلام الصدئة . يحدث هذا كله في الإعلام الرسمي ويحدث أيضا في الإعلام غير الرسمي ، فالمشكلة ليست في الحكومة وحدها ، بل في الحكومة والمجتمع .

التحقيق الإذاعي

عندما طلب إلي في عام 1998 أن أعلّم موضوع "التحقيق الإذاعي" في جامعة بيرزيت لم أسأل عن المقصود بهذا المصطلح، لقلة ما أحفل بالأنماط في الإذاعة، ولمعرفتي بأن كل نمط إذاعي هو شيء رجراج شديد التغير. وعلى مدى خمسة فصول دراسية أو ستة درّست التحقيق الإذاعي كائنا ما يكون. وعلي أيدي طلبتي ويديّ أنا تشكل هذا المخلوق الذي سأصفه في الصفحات المقبلة.

أسطورة عن نشوء التحقيق الإذاعي

في الزمن الذي كان فيه الراديو حيا بلا تسجيل طول الوقت كان هناك مذيع جيد يرقب البث بتحسر لكثرة ما فيه من ثرثرة. حاول هذا المذيع جهده أن يقنع رئيس البلدية، الذي يستضيفونه في البرنامج الإخباري المحلي باستمرار، بأن يدخل في الموضوع فورا. ولكن رئيس البلدية لا يستغني عن المقدمات الطويلة، ومهما قاطعه المذيع فلا فائدة. ثم صار بالإمكان تسجيل الصوت على أشرطة، واخترع ذلك المذيع طريقة لحذف الثرثرة من كلام رئيس البلدية.

كان الحديث مع رئيس البلدية يتم عبر الهاتف في الصباح الباكر ضمن البرنامج الإخباري. وعندما يأتي موعد البرنامج الإخباري في وسط النهار يقوم المذيع باختصار حديث الضيف الثرثار من عشر دقائق إلى دقيقتين. وأحيانا كانت هناك حاجة إلى ربط أشلاء الحديث المقصقص حتى تتماسك، فكان المذيع يقول بصوته بعض المعلومات فيما بين القطعة والقطعة.

سر المستمعون كثيرا بحديث رئيس البلدية المنتج كما يذاع في ساعة الظهيرة. وصاروا يتمنون لو أن رئيس بلديتهم يستطيع أن يقلل من ثرثرته في الصباح أيضا. لكن هذا مستحيل طبعا.

في يوم من الأيام تحدث رئيس البلدية عن موضوع. وفي مقابلة لاحقة في البرنامج تحدث أحد أعضاء المجلس البلدي من حزب المعارضة وقال أشياء يعارض فيها ما قاله رئيس البلدية.

عندما انتهى البرنامج وأحضر المذيع الشريط لكي "يكثف" كلام رئيس البلدية كعادته فكر في تضمين بعض التعليقات من عضو البلدية المعارض. وهكذا كان. صار المذيع يقص القطعة من كلام أحدهم ثم يقص قطعة في نفس الموضوع من كلام الشخص الثاني، وصار المذيع يقول بصوته هنا وهناك بعض المعلومات التي يقتضيها السياق. وكانت النتيجة قطعة إذاعية عجيبة. لا هي مقابلة ولا هي مقابلتان، بل مزيج من كلام شخصين ومن معلومات إضافية.

وذات مرة تحدث رئيس البلدية في المقابلة الصباحية عن مشروع المجاري في أحد الأحياء. وذكر أن الضرورات الهندسية توجب اقتصار المشروع على نصف حي السبيل دون النصف الآخر. وفي البرنامج نفسه سارع المخرج الذي يجلس في القسم الخارجي من الاستديو إلى الاتصال بمهندس البلدية المشرف على المشروع. وفعلا تم إجراء مقابلة معه على الهواء فقال إن مدّ المشروع ليشمل الحي كله ممكن هندسيا ولكن بنفقات إضافية تبلغ كذا وكذا. ثم اتصل بالبرنامج مواطن يسكن في المنطقة المظلومة من ذلك الحيّ وقال إن هذه النفقات ليست مما يستحيل توفيره، فالسكان مستعدون للمساهمة، وصندوق البلدية يمكنه أن يغطي نصف النفقات الإضافية.

عندما انتهى البرنامج جاء وقت القصقصة والتحرير. وضع المذيع رأسه بين يديه، وتحير في أمره. شعر أن القضية لم تنته هنا. ما زالت هناك أسئلة بحاجة إلى إجابة: هل صندوق البلدية مستعد للمساهمة بجزء من النفقات؟ وإلى أي حد؟ وهل المواطنون مستعدون حقا، كما قال واحد منهم، لمساهمة جدية؟

أرسل المذيع زميلا له إلى ذلك الجزء من الحي الذي لن تصله خطوط المجاري ومعه آلة تسجيل صغيرة لكي يستطلع آراء المواطنين في الموضوع. ورجع "المراسل" ومعه آراء عشرة مواطنين (كلام الناس). وطلب المذيع رئيس البلدية على الهاتف من جديد وسأله عن خيار المشاركة بين البلدية والمواطنين في تمديد المشروع ليشمل الحي كله فحصل على تعهد بأن البلدية ستساهم بقدر من المال.

ما إن تم للمذيع تجميع كل ذلك حتى كانت الساعة تعلن موعد بدء البرنامج الإخباري. صار المذيع يسابق عقارب الساعة. وتمكن من تلزيق المواد التي حصل عليها بسرعة، وتمكن من تجهيز المادة قبل انتهاء برنامج وسط النهار بربع ساعة، وتمت إذاعة المادة فنالت صدى كبيرا.

وهكذا ولد أول تحقيق إذاعي.

(تكملة الأسطورة: كان ذلك التحقيق الإذاعي عن المجاري مختصرا جدا إذ لم يتجاوز الدقائق الخمس ولكنه كان فعالا جدا، وبعد أيام قلائل كان الاتفاق قد تم بين البلدية والأهالي وتم إدخال النصف المظلوم من الحي في مشروع شبكة المجاري. وصار الناس يثقون بالإذاعة أكثر ويعرفون أن فيها أشخاصا يتعبون فعلا للحصول على المعلومة الوافية، ولا يكتفون بفتح أيديهم كالمتسولين لتسقط فيها المعلومات المتاحة. صار الناس يعرفون أن الإذاعة فيها شغل صحافي قوي وهي بعد أن تحصل على الخبر تسعى لتعميقه ومعرفة خلفياته بإجراء تحقيقات إذاعية).

عناصر التحقيق الإذاعي

الأطراف المختلفة:

في التحقيق الإذاعي نريد أن نسمع آراء الأطراف المختلفة للموضوع. نريد أن نسمع الرأي الرسمي، والرأي المعارض، ورأي الجمهور. وأما إذا لم يكن هناك سوى رأي واحد متاح فالأجدر بالمذيع أن يكتفي بإجراء مقابلة. كثيرا ما نلجأ إلى إجراء مقابلة مع خبير عن موضوع معين بدلا من تجشم عناء تحقيق إذاعي لا يضيف كثيرا.

كلام الناس:

كثيرا ما يكون الجمهور أحد الأطراف المهمة. نسجل آراء عدة أشخاص وندسها في ثنايا التحقيق، ونسمي هذا العنصر "كلام الناس". ونحن نحرص على تضمين كلام الناس الآراء المختلفة، ونحرص على وجود نساء ورجال، ليس فقط رغبة في تمثيل المرأة، ولكن لسبب صوتي مهم. نحن نخشى عندما نذيع النُبَذ المختلفة متعاقبة إحداها وراء الأخرى من أن يخلط المستمع بين شخص وشخص. لذلك نعاقب بين أصوات الرجال والنساء لدرء الخلط. كلام الناس من مفردات العمل الإذاعي المهمة، وهو نافع جدا في التحقيق الإذاعي.

النص:

بعد إجراء التسجيلات المختلفة سترى أن فيها معلومات كثيرة مهمة وفي صلب الموضوع ولكنك مضطر للتخلي عنها. لا بأس بذلك، فأنت سوف تستفيد من هذه المعلومات في كتابة نصك. اختر أولا القطع الصوتية التي تريد استخدامها ثم اكتب حولها نصا قويا. واحرص على أن تكون القطعة الصوتية التي تستخدمها مكملة لنصك لا تكرارا له. وكذلك لا تجعل النص عبارة عن مجرد تعريف بهوية المتكلم الآتي.

انظر إلى هذا المثال على ما هو سيء:

(المذيع: "وأما رئيس البلدية فهو يعارض فكرة دخول شركة تجارية للمساهمة ويقول":

رئيس البلدية: "أنا أعارض دخول شركة تجارية للمساهمة فنحن لا نريد خصخصة المشروع ولو جزئيا، فدخول شركة معناه أن يدفع المواطن رسوما مدة طويلة، ولا نستطيع ضمان مسألة الصيانة بحسب مواصفاتنا المعتمدة".) انتهى المثال.

هنا ارتكب المذيع غلطتين: الأولى أنه كرر كلام رئيس البلدية. وهذا قبيح جدا. والثاني أنه قال "يقول" وهي كلمة لا معنى لها هنا.

مثال على ما هو جيد:

(المذيع : " رئيس البلدية يعارض فكرة دخول شركة تجارية للمساهمة " :

رئيس البلدية : " لا نريد خصخصة المشروع ولو جزئيا ، فدخول شركة معناه أن يدفع المواطن رسوما مدة طويلة ، ولا نستطيع ضمان مسألة الصيانة بحسب مواصفاتنا المعتمدة " .)

في المثال الثاني أخذ المذيع الفكرة الأولى وجعل رئيس البلدية يكمل كلامه مبينا السبب . وبما أننا سنسمع صوت رئيس البلدية فلسنا بحاجة إلى كلمة "يقول" .

أصوات من الميدان:

هذه الأصوات تثبت أن المذيع كان في الميدان، وهي مسلية للمستمع ، وهي أيضا تحمل بعض المعلومات . تتفاوت التحقيقات في حاجتها إلى أصوات من الميدان .

كثيرا ما يضع المذيع الصوت الميداني في بداية التحقيق .

مثال:

(أصوات حفر وصوت جرافة تقحف ترابا . . يتم تخفيض الصوت في الاستديو ونسمع فوقه صوت عامل يقول : " شايف الدار اللي عليها كرميد . . بدنا نحفر لعندها وهاذي المواسير والأكواع مدّيناها على جنب الشارع . " ثم صوت المذيع من الاستديو يقول : " ولكنْ يوجد بعد هذه الدار دور كثيرة لن يشملها مشروع مجاري حي السبيل لأنها مرتفعة . . . الخ ")

نعتبر صوت العامل من أصوات الميدان أيضا .

صوت المذيع في الميدان:

إذا كان موضوع التحقيق ميدانيا أو فيه جانب ميداني قوي فيحسن بالمذيع أن يتذكر قول شيء على الميكروفون في الميدان . ستكون طريقتك ولهجتك وتلاحُقُ أنفاسك والجو من حولك في الميدان مختلفة عما في الاستديو . في الميدان أمسك قلما وورقة واكتب عبارتين صغيرتين . مثلا : " لا يزال المشروع في طور التنفيذ وسيستمر شهرين آخرين ، ولكن . . هناك بيوت لن يشملها المشروع بشكله الحالي " ثم سجّل هاتين العبارتين بصوتك وأنت في الميدان .

لا تقل لي إن في استطاعتي أن أسجل هذه الكلمات في الاستديو وأن أضع تحتها في المونتاج ضجة أعمال الإنشاءات فتبدو وكأنها قيلت في الميدان . لن تبدو كذلك .

العمق:

تخيل مذيعا عائفا حياته يقوم بإجراء تحقيق إذاعي . سيقول كلاما لا معنى له ، وسيتغزل بجمال مدينتنا الزاهرة العامرة ، وسيقتبس كلمات من الحكم الخالدة لرئيس بلديتنا ، وانتهى الأمر . وتخيل مذيعا لا يعرف أن من واجب الإعلام أن يعطي المواطنين المعلومات الصحيحة والآراء المختلفة . سيلخّ هذا المذيع الموضوع لخًّا قبيحا . وتخيل مذيعا لا يعرف عن الموضوع شيئا ، ولا يريد أن يتعرف . سيظهر في تحقيقه أثر السطحية . لا بل إنه لو حصل على بعض التسجيلات القوية فلن يعرف قيمتها لقلة إلمامه بالموضوع . قوة المذيع وعمقه يتجليان في نصه . لا تحسب أن هذا يعني أن النص يجب أن يكون طويلا . الأسطر القليلة التي تأتي في محلها تكشف أن المذيع يعرف موضوعه . وطريقة قصّ النُبَذ الصوتية ورصفها تشهد بعمق فهم المذيع للقضية .

المشبك الإخباري:

هذا هو العنصر الأول . لا ادري لم أرجأناه حتى هذه المرحلة . ربما لنتمكن من تقدير أهميته . يجب أن يكون كل تحقيق مستندا إلى حدث أو قضية تهم الناس الآن ، وليس في الماضي .

إليك هذا الحديث بين مذيع ومحرر :

(المذيع : أريد أن أصنع تحقيقا إذاعيا عن الإنترنت .

المحرر : خير يا طير؟

المذيع : الإنترنت مهم ، قضية مهمة وحساسة .

المحرر : لكن ما الجديد؟

المذيع : تصوّرْ! هناك مواقع على الإنترنت فيها صور فاضحة والوصول إليها سهل جدا . صدّقتي يا أخي أنا أشعر فعلا بأنها مخجلة . .

المحرر : (قال في نفسه) كذاب

المذيع : . . ومنذ أن اشتركت في الإنترنت قبل أربعة أيام وأنا أسهر حتى الثانية في الليل . .

المحرر : يضحك في عقله (هههههه)

المذيع : طبعا أنا أفتح على المواقع الثقافية والمفيدة .

المحرر : هكذا إذن . اسمع : الإنترنت بالنسبة لك أنت " خبَر " . إنه شيء جديد " عليك " . لا تخلط

بين الذاتي والموضوعي . الإنترنت موجود منذ عدة سنين . ولا نستطيع بث تحقيق إذاعي عنه فقط لأنك أنت دخلت عالمه قبل أيام .)

كثيرون من المذيعين الجدد يتحمسون لظواهر لأنهم سمعوا عنها للتو ، ولا يعرفون أنها كانت موجودة منذ زمن طويل .

على المذيع أن يبحث لتحقيقه الإذاعي عن مشبك إخباري . لا بد من خبر نحقق في تفاصيله ، أو في قضية مرتبطة به .

فهل المناسبات مشابك إخبارية جيدة؟ الجواب : في الغالب لا . لكننا قد نستعملها .

مثال عن مشبك المناسبة : في اليوم العالمي للإيدز نذيع ضمن برنامجنا الإخباري الرئيسي تحقيقا إذاعيا عن مرضى الإيدز في بلادنا .

مثال آخر مختلف : أصدرت وزارة الصحة تقريرا خاصا كشفت فيه عن وجود **300** حالة إيدز في البلاد ، وهذه أول مرة يصدر فيها رقم رسمي بهذا الصدد . نذكر الخبر ونذيع وراءه تحقيقا عن مرضى الإيدز في بلادنا .

في المثال الثاني استند التحقيق إلى خبر قوي مثير ، أما في المثال الأول فاستند إلى مناسبة موعدها معروف سلفا .

ليكن تحقيقك جوابا عن سؤال مركزي:

قبل أن تنطلق إلى الميدان لصنع تحقيق إذاعي لملم أطراف الموضوع بالاستعانة بالمحرر . وحاول جاهدا أن تبلور سؤالا واحدا قويا ، يكون تحقيقك جوابا له .

أمثلة على أسئلة ناجحة تصلح نقاط انطلاق لتحقيقات إذاعية :

- ما إمكانية أن يتم تطوير مشروع مجاري حي السبيل ليشمل الحي كله؟

- إلى أي حد يعرف المسؤولون في الشرطة هوية المعتدين الذي تعرضوا للصحفيين ، وما نوع الأدلة المتوفرة؟

- ما نوع الاتفاق مع الإسرائيليين الذي تم بموجبه نزول رجال الأمن إلى الشارع بملابسهم الرسمية؟

ربما تجد نفسك ، وأنت منهمك في تسجيلاتك ، قد وسعت نطاق التحقيق . لكن ، لا تنس سؤالك المركزي .

موسيقى؟:

ليست ممنوعة. المسألة مسالة أسلوب. إذا كان موضوعك يحتمل قليلا من الموسيقى فلا بأس بها.

مثال على موضوع تحقيق:

(السؤال المركزي: بعد وفاة فدوى طوقان الأسبوع الماضي ماذا سيحدث لما تركته من قصائد مخطوطة ومن ممتلكات شخصية؟)

زار المذيع بيت الشاعرة المتوفاة ولاحظ عودها الصغير الذي يلائم قطعيّة جسمها مركونا في زاوية الحجرة. وقرر أن يبدأ تحقيقه بعزف على العود يتميز بالبطء وفيه رنة حزن. وفوق هذه الأنغام، التي يأخذها المذيع من الأسطوانة المناسبة، يحدثنا عن العود المركون في الزاوية، ثم يمضي فيحدثنا عن القصائد المخطوطة ويستضيف أفرادا من العائلة، وأديبا مهتما بالأمر الخ. ويقرر المذيع أن يجعل نغمة العود تبرز بشكل ناعم بين الفينة والأخرى في تحقيقه الأمر الذي يسهم في سبك التحقيق سبكا. ولعل المذيع يقتبس سطرين من قصيدة مخطوطة للشاعرة لم تنشر بعد. لعله يحسن صنعا إن هو قدم هذين السطرين بصوت مختلف مع إدخال بعض الصدى. هذا الصنيع يجعل التحقيق ممتعا أكثر، ومفيدا أكثر.) نهاية المثال.

إذن فالموسيقى ممكنة في التحقيق الإذاعي، لكن لا تحول تحقيقك إلى قطعة فنية ناسيا أنه تحقيق في قضية تستند إلى خبر.

كتبتُ هذا المقال لمنفعة طلبتي في مساق التحقيقات الإذاعية بجامعة بيرزيت في آذار/ مارس **2004**.

ورقة عن تحرير الحـا ل

(فيما يلي ورقة تمت كتابتها بعد مناقشات مع طلبة الإعلام في الجامعة. نرسلها لكم للاطلاع.)

هل نستطيع الاستمرار في الحـال بنفس العزم والمستوى؟

أكيد.

لكن لا بأس من دراسة التجربة الماضية. فنحن نريد أن نرتقي، وإلا فالهبوط سيكون مؤكدا. ومجال الارتقاء واسع لأننا لم نبلغ الامتياز.

المقالات:

هل نريد مزيدا من التنويع؟ نعم، لكن ليس على حساب المستوى. ولا يضيرنا أن يكتب شخص واحد عدة مواضيع ومقالات في العدد الواحد إن كان ما يكتبه جيدا. وليلحظ مثقفو رام الله هذه الظاهرة بعين النقد الجارح، وليقولوا إننا شلة من الشلل. نحن نعرف أنفسنا: لسنا شلة.

نريد الالتزام بمبدأ **300** كلمة للمقال. ولا بأسِ أن نقول لكاتب المقال: التزم. ولخص فكرتك وأعدْ كتابة مقالك حتى تنحّيَ الزؤان جانبا وتبقيَ الحَب النافع.

المقال يحمل فكر ورأي صاحبته أو صاحبه، ولا مجال لتحريره من جانبنا. فليتق الله الكاتبون وليجتنبوا المترادفات، وليجربوا كتابة الموضوع مرتين حتى يشوفوا كيف أنه سيتحسن كثيرا. نحن لا نرفض مقالا بعد أن نطلبه، إلا إذا كان فيه تشهير أو كان يستند إلى معلومات غلط. لكننا أحيانا نجد مشكلة مع أسلوب الإطناب والتكرار.

لنكن واقعيين: شرط الـ **300** كلمة للمقال يمكن الخروج عنه بحدود معقولة، ولكننا نستخدمه "ذريعة" لعدم النشر أو لإجراء تعديلات طفيفة على الأشياء البالغة الانحراف عن خطنا التحريري.

التحقيقات:

نحن ملتزمون بمبدأ: **700** كلمة حداً أقصى للتحقيق. مشكلة التحقيقات هي أنها ليست تحقيقات بل تقارير. حسنا فلتكن تقارير جيدة، ومليئة بالحدث الصغير والتعميم المفيد في تناغم صحيح. القصد: نريد المعلومة الدقيقة، ونريد رأي المواطن، ونريد فوق ذلك وقبله أن يكون الصحافي قد تشبع بموضوعه، وغدا قادرا على إعطائنا الفهم وليس مجرد سياقة المقتبسات وتربيطها.

نشرنا تحقيقات ضعيفة. وأفلتت منا أمور لا نرضاها كل الرضى. لا نريد عبارات إنشائية، ولا مقدمات.

مثال 1: (في سياق حديثه، أثناء ندوة أقامها المجلس الثقافي البريطاني في مدينة رام الله عن موضوع البطالة وما يتعلق بها من جهود إغاثية، قال وزير العمل والشؤون الاجتماعية د. حسن أبو لبدة إن نسبة الفساد في توزيع مخصصات البطالة على المواطنين الذين يعانون من هذا الغول، الذي عرفته بلادنا بهذا الشكل الواسع منذ بدء الانتفاضة قبل أكثر من خمس سنوات، يبلغ ثلاثين بالمئة. وقال الوزير إن وزارته شغّلت خمسمئة موظف، كانوا أساسا عاطلين عن العمل، ضمن خطة أعدتها وتقوم بتنفيذها، من أجل مراقبة صرف المعونات الطارئة وتوزيعها على مستحقيها.) عدد الكلمات 88

هل القطعة السابقة طبيعية في صياغتها؟ وهل هي مما نقرا أمثاله كثيرا في الصحف؟ الجواب: نعم.

ها هي صياغة أخرى للقطعة السابقة:

مثال 2: (قال وزير العمل حسن أبو لبدة: "30% من مخصصات البطالة التي وزعت في الستة أشهر الماضية ذهبت لغير المستحقين، لوجود فساد في عملية التوزيع وإعداد القوائم." وأضاف أن الوزارة وظفت 500 عاطل عن العمل لمراقبة عملية التوزيع.) عدد الكلمات 37

ملاحظات على النصين:

1) النص الأول هو أسلوب الصحافة المعتاد في بلادنا، والثاني هو أسلوب الحال.

2) نص الحال أقصر بكثير، وهو مباشر، ويهتم بإبراز المعلومة المهمة في البداية عوضاً عن دفنها في الوسط.

3) أسلوبنا لا يهتم بإيراد كل المعلومات: فمثلا حسن أبو لبدة في أسلوبنا ليس دكتورا. ومن ذا الذي يجبرنا على ذكر الألقاب كاملة في كل سياق. وسميناه وزير العمل، ولم نخطيء. لم نذكر حقيبته الثانية، فهو ذو الوزارتين. استعملنا علامة التنصيص " " لحصر كلمات الوزير مثلما نطق بها. فهو قد نطق بكلمة فساد، والقاريء يريد أن يشعر بأن الوزير قال هذه الكلمات بعظْمة لسانه، ونحن نحترم إشارات التنصيص، ولا نعبث بكلمات أي مسؤول أو مواطن.

4) أهملنا تماما الموقع الذي تحدث فيه الوزير، فما يعنينا ليس أن نغطي المهرجان الذي أقامه المجلس الثقافي البريطاني، ولكن أن ندخل، وبسرعة، في صلب الموضوع.

5) الكلام العمومي السخيف عن "غول الانتفاضة" ذهب بسرعة إلى سلة القمامة.

6) الجمل الطويلة المقسمة تقسيما حسنا بفواصل لا تخدم القاريء. لذا ففي أسلوب الحال نعتمد الجمل القصيرة. ونكتب الرقم رقما كما في درس الحساب، فهذا أسهل على العين.

7) هناك معلومات غير نافعة: مثلا أن توظيف المراقبين جاء "ضمن خطة أعدتها الوزارة وتقوم بتنفيذها". ألا يعرف القاريء أن كل شيء تقوم به كل وزارة يأتي ضمن خطة؟ لماذا هذه المعلومة النافلة؟ هذه أعشاب ضارة تؤذي النص، وتقلل وضوحه.

8) لماذا نصرّ على أن رام الله (مدينة)؟ هل يستفيد القاريء كثيرا من كلمة (مدينة)؟ قل رام الله ونابلس واترك للقاريء ان يصنفهما على كيفه. وانظر أيضا إلى تعبير "موضوع البطالة". هلا قلت "البطالة" حاف؟

9) انظر إلى البداية السيئة للقطعة الأولى: "في سياق حديثه الخ الخ" لقد أدت هذه المقدمة إلى تأخير المعلومة المهمة إلى السطر الرابع. هذه جريمة أسلوبية.

10) لماذا "صرْف" و"توزيع" المعونات؟ هلا اكتفينا بكلمة واحدة منهما؟ المترادفات من من أقبح ما يرتكبه الصحافي.

في تحرير الحال لا نخشى كثيرا من التهمة التي تقول إن أسلوبنا تلغرافي، أو إذاعي. نحن نعرف تماما لماذا نحرر بهذه الطريقة، وندرك قوة الأسلوب المباشر. ليت كل صحافي يحدث جدّته عن موضوع تحقيقه قبل أن يكتب كلمة واحدة. ثم – عندما يجلس إلى منضدته– يقوم بحذف كل كلمة لم يتمكّن من قولها لجدته.

كلمة أخيرة عن أسلوب التحرير: لو قرأ صحافي من بلدنا الخبر كما ورد في الصيغة الأولى (السيئة) فإنه في الأغلب لن يلاحظ أن هناك مشكلة. نحن لا نرى المشكلة لأننا غارقون فيها. فإذا ما قرأ الصحافي الصياغة الثانية فسوف يشعر بمدى الفارق. هناك فارق في الصنعة الصحافية، وفي القدرة على مخاطبة القاريء. الفارق كبير.

الحدث الجاري:

ياما نشرنا في الحال موضوعات عتيقة. لا أريد طرح أي مثال واقعي. افتح صفحات الحال وأنظر إلى البلاوي التي اقترفناها.

الموضوع، سواء سميناه تحقيقا أم تقريرا، يجب أن يستند إلى حدث جارٍ أو إلى شأن يهم الجمهور كثيرا. نحن لا نغطي مؤتمرا صحافيا ولا ورشة، بل نغطي المشكلة التي عقد من أجلها المؤتمر أو الورشة.

إذا كتبت، مثلا، موضوعا عن (أهمية الانترنت) فإن القاريء لن يجده جديرا بالقراءة. فالانترنت مهم منذ عشر سنوات. فما الذي طرأ على أهميته؟

ولكن، إذا قررت وزارة الاتصالات فتح الانترنت للناس مجانا، وحدث هذا قبل أسبوع فقط فالأمر جدير بالنشر. وسنرجو الصحافي رجاء حارا ألا يبدأ موضوعه بجملة: (ليس هناك أدنى شك في أن الانترنت بدأ يدخل في كل زاوية في حياتنا اليومية). مثل هذه البداية ستجعل المحرر يتنهد ويرخي يديه عن الكيبورد ويرميهما إلى جنبيه، مع إلقاء الرأس على الصدر بيأس. بل قل: (بعد أسبوع سيصبح الربط على الانترنت مجانيا.) لا نريد العموميات. نريد أن يحكي الصحافي لنا عما حدث بدون فلسفة. نريد أن نتخلص من العبارات التي صارت منهكة. لا مكان للكليشيهات في أي كتابة جيدة.

البحث التلفوني والميداني:

ليس هناك وزير يعرف كل جوانب المشكلة حتى لو كانت المشكلة في وزارته. لا بد لنا من لقاء ناس أصغر في الوزارة، فعندهم خبايا مهمة. ولا بد من الالتقاء مع المعارضة السياسية في كثير من المسائل، ولا بد غالبا من لقاءات مع الجمهور. لكن اللقاءات مع الجمهور لها مشكلتها:

لقد صار إيراد كلمات الجمهور ضمن التقرير الصحافي تقليعة صحافية وتلفزيونية وإذاعية. لا نريد إيراد آراء الجمهور فقط لأن ذلك واجب. لا، ذلك ليس واجبا. لكنه في كثير من التقارير عنصر مهم. ومن الأساسي الحفاظ على كلمات الجمهور بشكل حرفي وإيرادها ضمن علامات تنصيص " ".

كثيرا ما نقرأ عن عجوزة في صف لمحو الأمية أنها قالت: "ثمة أهمية لتعلم الحروف حتى نتمكن من قراءة لافتات المتاجر على الأقل"، وتكون هي في الواقع قد قالت: "مليح نتعلم كيف نفك الحرف، على الأقل نعرف نقرا يافطات المحلات". وما قالته العجوزة فصيح ومليح بكل المقاييس ويضيف لمصداقية التقرير ولا ضرورة لتفصيح كلامها باستعمال مفردات لا نتخيل أن عجوزة يمكن أن تقولها، فهذا التفصيح الزائد يضعضع الثقة بأن ما أوردناه هو ما قالته فعلا.

العمق والتشرب:

لا يبدأنّ الصحافي بكتابة تحقيقه إلا بعد أن يكون قد تشرب بالمشكلة وبالحلول الممكنة لها. وعلى الصحافي مهمة صعبة أخرى هي قص الزوائد.

بينما الصحافي يبحث في موضوع معين سيجد بالتأكيد أن الموضوع تشعب عليه. كثيرا ما تسمع صحافيا مبتدئا يقول: "هذا الموضوع يحتاج إلى كتاب لا إلى تحقيق صحافي".

حسنا، المهمة الصعبة هي أن ترمي كل فصول الكتاب المزعوم في سلة المهملات، وأن تُبقيَ على فصل واحد. الصحافي مطالب بأن يتجاهل معلومات ثمينة كثيرة حصل عليها في سياق بحثه. ولكن، لا داعي للقلق فهذه المعلومات ستساعد الصحافي في إدراك جوانب الموضوع الأخرى. وفوق ذلك فإنها ربما شكلت أساسا للقيام بتحقيقات أخرى في المستقبل.

المعلومات الزائدة التي يحصل عليها الصحافي ولا مجال البتة لاستخدامها في موضوعه تخدمه كثيرا لأنها تقيه الزلل. إنها تجعله أكثر حكمة في معالجة الموضوع.

المصطلحات:

التقرير الصحافي ليس أطروحة أكاديمية. وعلى الصحافي ألا ينشر كلمة واحدة لا يعرف معناها تماما. فإذا قال خبير البيئة: "هناك حاجة لتطوير استراتيجيات الاستحداث الإيكولوجي في المنطقة" فإن من واجب الصحافي أن يفهم ذلك فهما جيدا ثم أن يحوله إلى كلام مفهوم لدى الناس، وطبعا في هذه الحالة لن يضع علامات التنصيص على العبارة بل سينسبها إلى الخبير على طريقة (قال فلان إن كذا وكذا) بدون تنصيصٍ لكلام الخبير.

على الصحافي أن يفهم بعمق، ثم أن يعبر عن المشكلة والحلول الممكنة بلغته، مع التوقف عند بعض المحطات المهمة لتقديم اقتباس دقيق منصّص.

قد يقتضي التحقيق مكالمات هاتفية كثيرة، ولقاءات بعدد من الأشخاص. ثم في النهاية علينا أن نقول للقاريء كل شيء في 700 كلمة. مهمة صعبة. لكن إتقانها يمثل الفارق بين صحافي وآخر.

التعميم السيء:

ما أكثره! وما أسوأه!

مثال:

(يتحدث وزيرا التربية والصحة عن حملة ستشنها الوزارتان مع بدء العام الدراسي، بعد نحو شهر، على التدخين في أوساط الطلبة. يقول وزير التربية في المؤتمر الصحافي المشترك: سنفرض غرامة على ولي الأمر مقدارها مئتا شيكل في كل حالة يضبط فيها الطالب وهو يدخن، سواء في الساحة أو حتى بعد الانصراف على بعد مئة متر من المدرسة حداً أقصى. ويقول وزير الصحة إن الوزارة ستوزع كتيبا يبين خطر التدخين وسيتم فرضه كجزء من منهاج العلوم على طلبة الصف الثامن. ويتم في المؤتمر الصحافي التطرق إلى إجراءات عديدة أخرى بعضها صغير وفيه لمسة إبداع، وبعضها عادي. وعندما سئل الوزيران إن كانا أخذا برأي قانوني في مسألة فرض الغرامات، تبين بوضوح أنهما لم يفكرا في الموضوع أساسا. وعندما سئل الوزيران عن نسبة الطلبة المدخنين تحيرا ولم يَحيرا جوابا. وقدم وزير الصحة وصفا جيدا للكتيب الذي سيوزع على الطلبة وعرض نسخا منه على الصحافيين.

خرج الصحافي من المؤتمر الصحافي وكتب لجريدته: (عرض وزيرا التربية والصحة خطة هدفها الحد من التدخين عند طلبة المدارس. وقال وزير التربية إن التدخين يضر الطالب صحيا وماليا وقد يساهم في انحرافه. وقال وزير الصحة إن وزارته ستشن حملة توعية في المدارس).

ولعل صديقنا الصحافي المذكور سيحرص كل الحرص على وضع كلمات من قبيل (تفعيل، وفضاءات، والفئة العمرية، والتنمية المستقبلية، واستدامة التنمية) وسائر قاموس الإن جي أوه في تقريره. ولعله سيحرص أيضا على استعمال أسلوب (هناك غير طريقة للوصول إلى . .) ربما لأنه نسي تعبير (هناك عدة طرق). ربما يتفلسف صاحبنا ما شاء له. ولكن الحقيقة هي أنه لخص المؤتمر الصحافي تلخيصا بشعا. لقد ألغى كل التفاصيل التي تعطي الموضوع نكهة خاصة. ألغى الجانب الخلافي المتمثل في وجود ثغرات في خطة الوزارتين. صديقنا كان يمكنه اقتباس عبارات مؤثرة من الكتيب. لكنه كان أكسل من أن يقرأ. وكان يمكنه أن يسأل خبيرا قانونيا في مسألة فرض الغرامات. وكان يمكنه أن يضرب بعض التلفونات، ولكنه لم يكن أمينا مع نفسه ولا مع صنعته.

وفي النتيجة فالتقرير الذي ينشر يكون تلخيصا قبيحا ليس له طعم، وغير جدير بالقراءة. كان على الصحافي أن يسأل نفسه: لقد تم في الماضي شن مئات الحملات ضد التدخين. فما الذي يميز هذه الحملة؟ وما هي النشاطات التي ابتدعتها الحملة الجديدة؟ فهذا في النهاية موضع الخبر وهو هو فقط الجديد. أليس معظم ما نقرأه من تغطية للورشات هو من قبيل التلخيصات المخلة والمختلة.

الصور:

الذي يكتب تحقيقات صحافية عليه أن يشتري كاميرا ديجيتال حتى تكون معه في الميدان. لكننا ندرك أن الصور الفاخرة هي ما يلتقطه المحترفونَ التصوير. لا نريد صورا فاخرة في كل حين. نكتفي غالبا بالصور المعبرة الواضحة.

التحقيق الذي بلا صورة لا ينفع.

والصورة غير الموصوفة بكلمات تطبع تحتها تكون أضعف.

نحن نطلب صورا ووصفا دقيقا للصور: من هم الأشخاص الذين في الصورة؟ وما هي الحركة التي في الصورة؟

لا بأس بالتذكير بأن الصورة الأنجح يكون فيها شيء من الحركة. أما صور الناس القاعدين على منصة وتظهر رؤوسهم كحبات العدس فهي صور لا نستعملها.

أرسلت هذه الورقة إلى المشاركين في كتابة وتحرير صحيفة الحال التي تصدر عن معهد الإعلام بجامعة بيرزيت، في خريف عام 2005.

في الأول من شباط/ فبراير **2005** صدر العدد الاول من صحيفة الحال الشهرية عن معهد الإعلام بجامعة بيرزيت. وقد ترأست تحريرها حتى استقالتي من إدارة المعهد في الأول من شباط/ فبراير **2006**. هذه الصحيفة صدرت لكي تقدم للصحافيين نموذجا للصحافة الجريئة القوية التي ليس فيها تعتيم، وقامت بدور الحاضنة لعدد من الصحافيين الجادين من مخضرمين ومبتدئين. وقد حققت نجاحا كبيرا، وما زالت. كنت أبعث بين الفينة والأخرى رسالة إلى المشاركين تشرح توجه الصحيفة وما حققته، وما ترمي إلى تحقيقه. وفيما يلي الرسالة الأخيرة، وقد بعثتها عن طريق مديرة التحرير، رئيسة التحرير الآن، نبال ثوابتة إلى جميع المشاركين. ونعيد نشر هذه الورقة هنا لما تضمنته من أسس في التحرير تنطبق على الإذاعة انطباقها على الجريدة. واخترت نشر الرسالة كما هي حتى يلمح القاريء منها روح تلك التجربة.

الحياد

كان مفترضا أن أقدم سلسلة الأحاديث هذه من إذاعة أخرى. ولكن القدر شاء لها ان تتأخر عشر سنوات، وأن تقدم من إذاعة أجيال.

كنت أعمل في القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية. وفي الفترة التي أعقبت حرب الخليج عام واحد وتسعين، عندما أخرج الأميركيون وحلفاؤهم صدام حسين وجيشه من الكويت، واجهت إذاعة لندن هجمة شرسة، كان مما خفف من شراستها أنها جاءت من طرفي المشكلة. فقد حمل الفلسطينيون والأردنيون والمغاربة على إذاعة لندن، وفي نفس الوقت وبنفس الشدة حمل الخليجيون والمصريون والسوريون على الإذاعة. أليس هذا دليلا على أن الإذاعة كانت محايدة؟ ليس دليلا أكيدا. إنه مجرد مؤشر.

في تلك الفترة أردت أن أقدم أحاديث إذاعية أشرح فيها السياسة التحريرية للبي بي سي. ولكن المشاغل الإدارية حالت بيني وبين ذلك، فقررت أن أضع المشروع كله في ملف النسيان. ربما كنت أشعر في قرارة نفسي بعدم الرغبة في أن أدافع عن الإذاعة. ليس عن قلة إيمان بأهمية دورها، ولا عن اعتقاد بأنها قامت بدور سيء. لا، على الإطلاق. لقد كنت وما زلت أومن أنها خير ناقل للخبر وللتحليل. ولكن مجرد الوقوف موقف المدافع يجعلني غير مرتاح.

وفي بداية هذه الأحاديث الإذاعية، التي أسوقها إليكم وأنا مرتاح كل الراحة، أحب التشديد على أن الحياد مسألة نسبية. وقد كنا في إذاعة لندن نقول دائما لمستمعينا: نحن نحاول أن نكون محايدين. ولكننا لا نملك أن نرى الأشياء بعيونكم. نحن نرى الدنيا من لندن.

لا شك عندي في أن رؤية الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية من لندن مختلفة عن رؤيته من أي مكان آخر. الإعلام مختلف عن التاريخ: أنت كإعلامي تتابع الحدث الذي يقع اليوم، ولا تقدم الرؤية التاريخية التي تعطي الحدث عمقه الكامل. الإعلامي لا يهتم بالاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية؛ ببساطة لأن هذه قصة عتيقة. إنه يرى آخر تجليات الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. وانظر عزيزي المستمع إلى هذه العبارة (الصراع الفلسطيني الإسرائيلي) ما أشد ما هي خدّاعة. إنها توحي بأن الطرفين متعادلان، وأنهما يتصارعان. إنها لا توحي بوجود طرف معتدٍ، وطرف معتدًى عليه. عبارة سيئة. ولكن الإعلام، والإعلام الغربي بشكل خاص، يستعملها كثيرا.

يحسن بنا أن نختتم هذا الحديث، بالإشارة إلى أن الإعلام لا يستطيع أن يكون عادلا كل العدل. الإعلام ينسى الجاني والضحية ويلتفت إلى الجريمة فقط.

حديث إذاعي كتبته ليكون بداية سلسلة من 30 حديثا عن الإعلام، يتم بثها في رمضان، خريف 2005، ثم حالت المشاغل دون المضي فيها. فلم أكتب سوى هذا الحديث الذي لم يتم بثه.

نموذج لـ (التحليل السياسي)

المقدمة: يبدو أنّ هناك ضغطا من داخل حركة فتح على الرئيس الفلسطيني لتعيين رئيس وزراء، وقد يتبلور هذا الضغط في اجتماع ذكر مصدر اشترط عدم الإشارة إليه بالاسم أنه سيُعقد للجنة المركزية لحركة فتح قريبا. في هذه الأثناء تستمر المساعي لتشكيل حكومة فلسطينية جديدة بعد أن كانت الحكومة استقالت قبل أيام.

التحليل: ذكر مصدر فلسطيني غفل أن اللجنة المركزية لحركة فتح ستجتمع خلال أيام بالرئيس ياسر عرفات، الزعيم المؤسس للحركة في رام الله. وذكر أن ثمة اتجاها قويا داخل اللجنة – التي تعد الحلقة الضيقة لقدامى فتح – لإقناع عرفات بتعيين رئيس وزراء (وهي المسألة التي كانت مجال أخذ ورد بين السلطة وواشنطن). ومن شبه المؤكد أن يشار بالبنان إلى محمود عباس أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. ولعل السيد عرفات يرى في هذا التعيين مخرجا لا مأزقا فأبو مازن/ محمود عباس سيرضي واشنطن لنظرته العملية إلى النزاع، ولكنه بحكم ولاء ثلاثين سنة لعرفات، وبحكم رفقة النضال قد لا يسعى إلى تهميش عرفات كما تشتهي إسرائيل وواشنطن.

لقد ضاقت مساحة المناورة أمام ياسر عرفات إلى درجة كبيرة اضطر معها قبل أيام إلى إقالة وزارته نزولا عند إرادة المجلس التشريعي الذي كان على مدى سنوات مجرد ختم يدمغ به عرفات مراسيمه بدمغة ديمقراطية. والآن يواجه أقطاب فتح وأقطاب السلطة معركة الوجود أو العدم، ومن الممكن أن يروا في اختيار رئيس وزراء حلا يرضي الخارج، ويرضي الناس أيضا الذين بدأوا ينتقلون من حال

الفقر إلى حال الجوع في بلد لم يعرف الجوع منذ الحرب العالمية الأولى. قد يختار عرفات أن يعين رئيس وزراء بنفسه، فهذا أجدى عليه من أن يصك المجلس التشريعي قرارا بهذا الخصوص. ولعل هذا الإجراء أن يتيح له إذنا من الرئيس بوش بالترشح لمنصب الرئاسة ضمن اللعبة الغربية التي توسم بالديمقراطية في الضفة وغزة. ثمة قوائم وأسماء يجري تداولها لتشكيل حكومة فلسطينية جديدة. لكن القصة الحقيقية في البلد هي هل سيعين رئيس وزراء، ومن سيكون؟

هذا التحليل السياسي تم بثه من إذاعة لندن.

ملاحظة: الإذاعي يقوم بتفسير الخبر ووصف الأجواء السياسية، وليس من مهماته أن يناضل من خلال الميكروفون.

زبوني كإعلامي هو المستمع. ومن حقه علي أن أشرح له ما يجري، وأن أقدم الأمور التي وراء الكواليس، حتى وإن لم تتوفر لدي الادلة المؤكدة عليها. ولا أعبأ بإرضاء رئيس أو أعضاء مجلس تشريعي.

علي هنا أن أقدم شهادة لعل الزملاء ينتفعون بها: لقد قدمت من خلال إذاعة لندن في الفترة بين سنة **2000** و **2005**، أكثر من ألف تحليل سياسي كالتحليل المنشور أعلاه. وتفننت في شرح الانتقادات الموجهة للسلطة الفلسطينية، ولم أخدع مستمعيّ، ولا استعملت مهنتي لكي أقوم بالدفاع عن السلطة ولا عن الوطن. بل اكتفيت بنقل المعلومة وشرحها، وتحليلها، ولم أحترس إلا قليلا، وتصرفت وكأني أعيش في بلد ينعم بالديمقراطية التامة، ومع ذلك لم ألق أذى من السلطة الفلسطينية. سمعت انتقادات محدودة من المسؤولين، وسمعت بعضهم يبدي امتعاضاً، ولكنني أحسست أنهم يفهمون جيدا أن دور الإعلامي لا يتمثل في أن يكون بوقاً للنظام الحاكم.

لقد هوجمت في الصحف مرتين بسبب عملي كمحلل سياسي. وكلتاهما كانتا من زميل في المهنة أرادني أن أكون بوقاً. ووصل به الأمر إلى أن يطلب من الحكومة إسكاتي. ولكن، لا أنا سكت ولا الحكومة أسكتتني. والعبرة هي أن الإذاعي هو الطرف الأهم في رسم خطوطه الحمر. ومن شاء أن يقول كلمته بحرية استطاع ذلك.

نموذج لـ (التقرير الإذاعي)

<u>المقدمة:</u> تأكد نبأ أن معروف الصافي الأستاذ في قسم الإعلام لن يدرّس أيّ مساق في الفصل الثاني المقبل . وكان ترسيبه لخمسة عشر طالبا من أصل عشرين في مساق فنون الإذاعة قد أحدث ضجة على مدى الأسبوعين الماضيين انتهت أمس بتعديل العلامات وترسيب ثلاثة فقط . تقرير أحمد حمدان :

<u>التقرير :</u> رفضت نازك الزهاوي رئيسة قسم الإعلام الربط بين عدم قيام الأستاذ الصافي بالتدريس في الفصل المقبل وبين ترسيبه ثلاثة أرباع طلبة مساق فنون الإذاعة :

<u>(نبذة صوتية) : " . . ما جرى كان بترتيب مع عميد الآداب . . المسألة إجرائية فقط . / لا . . لا . . ما أقوله هو أن الأستاذ معروف لديه عبء إداري معين في الفصل الجايْ . "</u>

جدير بالذكر أن الاستاذ معروف الصافي لم ينقطع في أي فصل عن التدريس منذ التحاقه بالقسم قبل ست سنوات :

<u>(نبذة صوتية) : " – . . يا أخي أنا أتكلم بوضوح . . يا أخي لدي مهام حددها العميد ، وسأقوم بها .</u>

– هل هناك علاقة بين تغيير علاماتك لطلبة المختـ . .

<u>– ليش التأويلات . . ليش؟ ببساطة أنا مكلف بمهام معينة . انتهى . "</u>

وبحسب ما أخبرنا أستاذ من القدامى ، طلب عدم ذكر اسمه ، فإن هذه أول أزمة تحدث في الجامعة بسبب إصرار أستاذ على ترسيب عدد كبير من الطلبة . إذ يتم في العادة التفاهم داخل القسم على تعديل العلامات بموجب منحنى معين . وربما كان سبب الضجة التي أدت إلى أزمة هذه المرة هو أن الطلاب عرفوا نتائجهم مبكرا وقاموا بالاحتجاج وأضربوا عن أداء الامتحانات النهائية المتبقية :

<u>(نُبَذ صوتية) : " شوف . . أنا من المحظوظين الخمسة . جبت خمسة وستين . اللي ازعجنا أكثر شي إنو الأستاذ معروف حكى النتيجة في الصف ، وسمّى الراسبين بالإسم . حسب رأيه بدّوش يخرّج حدا يفضحه بين الصحفيين . "</u>

<u>" إذا كل أستاذ بدّو يفترض إنو الطالب ختم العلم وصار صحفي محترف معناه ولا حدا بِنجح . الشغلة نسبية . بس إيش والله . . روحوا إنتو بتفهموش ! هذا مش تعليم . "</u>

"هو من جهة قدير، قدير. بس يا ريته ولو مرة واحدة بس وقف قدام المراية، بس مرة، وقال لحاله: ليش عمري ما حكيت لطالب كلمة تشجيع! عمره ما حكى إشي إيجابي. "

"بستاهل ينفصل. "

حتى فيما بين الأساتذة، قليلون يؤيدون الترسيب بشكل جارف. ولكن بعضهم لم يكن راضيا عن موقف الإدارة من الأستاذ الصافي. الدكتور عوض زهران، من التجارة:

"علامة الأستاذ إلها حرمة. يعني لما العميد يكسر كلمة أستاذ عنده، كل النظام الأكاديمي بهبط. بصراحة اللي صار اليوم راح يكون إلُه أثر على مستوى الجامعة في المستقبل. "

أحمد حمدان إذاعة بيرزيت (314 كلمة عدا المقدمة)

أسئلة وإجابات:

- هل هناك كلمات زائدة؟ الجواب : لا
- هل رأي المراسل موجود في تقريره؟ الجواب : لا
- هل هناك توازن بين الأطراف؟ (هل أعطينا الصافي حق الكلام؟ وطلبته؟ والإدارة؟) الجواب : نعم . ولا تنس : ليس المهم الوصول إلى أعلى مسؤول . ففي تقريرنا اعتبرنا تصريح رئيسة القسم كافيا .
- هل " كلام الناس " أضاف معلومات؟ أم كان مجرد تعليقات؟ الجواب : معلومات وآراء . لقد تحدثنا إلى عدد كبير وانتقينا بشكل متقن .
- هل قلنا كلمة (اليوم) في التقرير؟ الجواب : لا . ولم نقل (اليوم) في المقدمة أيضا ، فكل خبر تبثه الإذاعة هو خبر اليوم . وفي المقدمة قلنا أمس لكي نروي ما حدث أمس .
- هل ذكرنا فلسطين والجامعة الفلسطينية العريقة ، أم دخلنا في الموضوع فورا؟ الجواب عندك .
- هل هناك عبارات باهتة مثل "تباينت الآراء" ، ومثل "أما فلان فله رأي مختلف" ؟ الجواب عندك .
- هل هناك "قال" و "أضاف" أم أن كلام المتحدثين مقصوص ليكمل القصة بشكل سلس؟ الجواب عندك .
- هل القصة كلها مستحيلة؟ الجواب : إنها تحدث لأول مرة بهذا الشكل الصارخ ، ولكن لا تنس أن الخبر القوي هو الذي يحدث لأول مرة (فيما تعيه الذاكرة) بالشكل الذي حدث به ، وإلا لما كان خبرا . القصة غريبة ولكنها ممكنة الوقوع .
- هل هناك أشياء لم نذكرها في التقرير؟ الجواب : طبعا . اسمع : (لقد حاولوا في قسم الإعلام إقناع الأستاذ الرصافي بالتعقل فرفض ، ورفع هو الأمر للعمادة . وتحدث العميد مع مكتب التسجيل . وقررا أن الأستاذ مخطيء . ولكن الأستاذ مع ذلك أصرّ على ترسيب الخمسة عشر طالبا . في الواقع انه لم يعرف كيف يتراجع . وفاوضه العميد على ترسيب سبعة . فأصرّ . فقرر العميد ، بعد استشارة نائب رئيس الجامعة ، تكليفه بالإشراف على توزيع المساحات في مخططات كلية الآداب التي يجري التخطيط لبنائها ، مبعدا إياه عن القسم . وتم ترسيب 3 فقط بالتشاور مع القسم . وكذلك فإن الصافي عنده حالة اكتئاب خفيفة ، ورئيسة القسم لم تنجح في إقناعه أساسا .) كل هذا لم يذكره المراسل في التقرير .

- لكن هل يستطيع المراسل الصحفي أن يعرف القصة كاملة؟ الجواب : بالطبع لا . لكن ما اقتنصه المراسل من حقائق يكفي لتقريره . ولنفترض أن محرراً في الإذاعة كتب (تحليلاً) للحدث : قد نراه يورد في تحليله افتراضات قريبة من الواقع وتعكس بعض ما جرى حقا . فشغل المراسل لا يمثل كل الجهد الصحافي المطلوب . هناك المحلل، وهناك المقابلات مع المختصين، أو مع أطراف الأزمة . لكننا رأينا بوضوح في التقرير أن الجهات الرسمية بخيلة بالمعلومات .
- هل مقدمتنا تبدأ بخبر الأمس (أن الترسيب وقع على 3 فقط وليس على 15 طالبا)؟، أم أنها تبدأ بخبر اليوم الطازج (أن الأستاذ المذكور لن يدرّس الفصل القادم)؟ الجواب : بخبر اليوم .
- هل تجاهلنا تماما خبر أمس؟ ام أوردناه، وربطناه بالخبر الطازج؟ الجواب : بل ربطناه .
- هل بدأ المراسل (جسم تقريره) بخبر أمس، أم بخبر اليوم؟ الجواب : أيضا بدأ بخبر اليوم .
- هل كررنا معلومة؟ الجواب : نعم . معلومة ترسيب 15 وردت في المقدمة، ووردت في السطر الثاني من التقرير . السبب أنها محور الأزمة .
- هل كان رأي الأستاذ القديم الذي طلب عدم ذكر اسمه مهما لدرجة إيراده رغم غياب الاسم؟ الجواب : نعم، فهو يبرز أن الموضوع مهم لأنه لم يحدث سابقا .
- هل " كلام الناس " واقعي؟ أهكذا يتحدث الناس؟ الجواب : نعم . لكنْ مع بعض القصقصة لتكثيف المعنى دون تشويهه .
- كلام المراسل قليل . فهل جعله ذلك صحفيا ضعيفا؟ أم أن كلامه يساعد مقتبساته لإيصال القصة؟ يساعدها ويتواصل معها .
- هل توزيع المقتبسات يجعلنا نخلط بين المتحدثين؟ أم أن فيه منطقاً؟ الجواب : لا مجال للخلط، ولذلك لم نكرر الأسماء . وطبعا في " كلام الناس " لم نذكر الأسماء، ولا حتى قلنا إنهم طلبة، لأن ذلك مفهوم من السياق .
- هل قيام المراسل بترك سؤاله المقطوش داخل كلام الأستاذ الصافي جاء صدفة؟ أم لإيضاح انفعال الأستاذ؟ الجواب : بل لإيضاح انفعاله، وبيان أن التكليف الإداري للصافي لم يتم بشكل طبيعي، بل له علاقة بإلغاء الترسيب .
- هل أقنعك المراسل بأنه ما كان ليستطيع تحدي رئيسة القسم والأستاذ الصافي بالأسئلة بأكثر مما فعل؟ الجواب : نعم، لقد أبرز لي، أنا المستمع، أن الشخصين لا يريدان تنفيس أي معلومة أخرى . صحيح أنهما قالا شيئا مختصرا، ولكنهما أكدا الخبر الأساسي : (عدم التدريس للفصل المقبل) .

● هل هذا التقرير هو نهاية كل الحكاية؟ الجواب : لا ندري . فتقرير الغد قد يحمل نبأ إصدار القسم بيانا لطلبة الإعلام يشيد بخبرة الصافي الأكاديمية ، ويقول إن (الاختلاف في وجهات النظر لا يعني القطيعة مع أستاذ قدير) ، وإن الصافي سيعود للتدريس بعد إنهائه مهامه الإدارية . (ما جرى فعلا هو أن الصافي ذهب لرئيس الجامعة ، وشكا له أن الأزمة ألحقت بسمعته أذىً ، وأنه أخطأ بإصراره ، ولكن الخطأ أقل من حجم البهدلة التي لحقت به . فطلب رئيس الجامعة تليين الموقف ببيان يعيد للرجل اعتباره ، دون تغيير القرارات الإدارية .) الصحفي لا يستطيع أن يعرف كل ذلك . أنت كمراسل تعرف فقط أن بيانا صدر ، وأن أهم ما فيه هو أن الصافي سيعود للتدريس بعد انتهاء مهامه الإدارية .

● وهل سيكون هناك خبر بعد أسبوع؟ الجواب : ربما . وقد يكون الخبر حينئذاك استقالة الصافي ، لأنه لم يعد قادرا على مواجهة طلبته أو زملائه في القسم . وطبعا عندما نعالج خبر الاستقالة يجب أن نحكي باختصار تاريخ الأزمة . لكن ليس في السطر الأول .

● وهل من الممكن أن يكون تقريرنا هو نهاية كل شيء؟ ربما . فقد لا يحدث شيء ، وتموت القصة . وربما تعود القصة للبروز إذا عاد الصافي للتدريس .

● عبارة ختامية : سأل أحد المتدربين محررا في غرفة الأخبار المركزية في هيئة الإذاعة البريطانية يوما : لا بدّ أنكم تكتبون عددا هائلا من النشرات كل يوم؟ . فأجاب المحرر : لا ، نحن كتبنا نشرة واحدة سنة **1922** مع بدء بثنا ، ومنذ ذلك الحين ونحن نجددها فقط .

هذا التقرير مفبرك . صنعته ليكون مثالاً لتقرير إذاعي نموذجي . وقال لي طلبتي إنهم انتفعوا به .

– الفصل الثالث –

الإذاعة أغنية

قد يقول قائل إن الراديو هو غناء وموسيقى وحسب، وما الراديو بدون غناء وموسيقى؟ إنه مثل الجريدة بدون صور!

لكن. . في الواقع هناك جرائد ليس فيها صور. وهناك إذاعات ليس فيها غناء ولا موسيقى.

كنت أستمع في بريطانيا إلى إذاعة اسمها (راديو أربعة) ليس فيها غناء ولا موسيقى إلا في القليل النادر. حتى في مقدمات البرامج لم يكن هناك موسيقى. يبدأ المذيع برنامجه بالتحية، أو بدونها، وينطلق إلى مواد البرنامج واحدة بعد أخرى، بدون أن يكون هناك موسيقى قبل كلامه، ولا بعده، ولا. . تحته. تلك الإذاعة من الإذاعات الناجحة جداً في ذلك البلد، وهي إذاعة قومية يسمعها الملايين.

في المقابل هناك إذاعات في العالم الغربي ليس فيها كلام، وهي مخصصة للموسيقى. هناك إذاعات تبث الموسيقى الكلاسيكية ليل نهار، وهناك إذاعات تخصصت في موسيقى البوب، وأخرى تخصصت في الجاز. وبعض الإذاعات تتخصص في لون محدد من نمط محدد من الغناء أو الموسيقى. وبعضها يتخصص في مجموعة قليلة من المطربين.

<u>كثيرا ما يسألني أحدهم:</u> وهل يجوز أن تتخصص إذاعة في لون محدد من الموسيقى؟

الجواب: المسألة لا تتعلق بشرف الأمة وثقافة أبنائها. الحكاية حكاية عرض وطلب وتنافس. لكل إذاعة أن تفعل ما تريد لجذب الجمهور، شرط ألاّ تخالف الدستور الذي وضع لها، أو وضعته لنفسها. فالإذاعات الرسمية التي حَدد لها ميثاقُ إنشائها أهدافاً معلومة، يجب عليها أن تتصرف في حدود هذه الأهداف. والإذاعة التجارية، التي ليس لها ميثاق ولا أهداف مكتوبة، ولكنها تلتزم خطا معينا يعرفه المعلن والمستمع، تستطيع أن تتصرف كما تشاء في حدود هذا الخط، أو حتى خارج حدوده إن كان في ذلك مصلحة لها.

<u>عندي مشكلة مع صاحب المحطّة:</u> إنه لا يعرف ما يريد بالضبط. يريد أن يكون كل الناس من كل الأعمار مستمعين لمحطتنا، ويريدنا أن نكوّش على الدعايات كلها، ويريد منّا أن نكون منارة للعلم والأدب والثقافة، وأن نحقق هدف التسلية للجمهور باستمرار، وأن نضع على الهواء الأغاني التي يحبها هو وأولاده، وكذلك الأغاني التي يحبها كل الناس، وأن نكون معبّرين عن أحاسيس

المواطنين جميعاً، وأن ننقل نشاطات المحافظة، وأن نقرأ بيانات المحافظ على الهواء فور إرسالها لنا بالفاكس. ويريد صاحب المحطة ندوات مطولة عن الشؤون العامة، ويريد أن نكون حذرين في طرح المسائل الشائكة حتى لا ينزعج منا الناس أو المحافظ أو رئيس البلدية. ماذا أصنع مع مدير المحطّة؟

طبعاً الصورة أعلاه فيها شيء من المبالغة. لكن بعض أصحاب المحطات يتخبطون بسبب المنافسة، ويفقدون التفكير السليم، ويتصرفون بشكل فيه كثير من التقلب. وهم في كثير من الأحيان يفضلون أن يجربوا الأشياء المختلفة على الجمهور، وقليلا ما يخططون، وقليلاً ما يهتمون باستطلاعات الرأي. وهم يتأثرون بالآراء التي يسمعونها من الناس المحيطين بهم بشكل مبالغ فيه.

لكي تحل مشكلة صاحب المحطة الذي من هذا النوع أنصحك باتباع المثل القائل: اربط الحمار في المكان الذي يريده صاحبه. وأنصحك أيضاً بألاّ تستعمل الشكوى وسيلة للهروب من معاناتك النفسية، فالشكوى سلاح الضعفاء والسلبيين. لا تكثر من الشكوى أثناء الدورات التدريبية، فالدورات لا تهدف إلى التنفيس عنك بل إلى تعريفك بأشياء جديدة، وفتح آفاق أمامك. هذا، طبعاً، غير مضمون؛ ولكنه على كل حال الهدف.

من المفيد للمحطة التجارية، ولكل محطة إذاعية، أن تَفْهَمَ الجمهور وأن تعرف ما يريد أن يسمع من خلال عمليات استطلاع منظمة. في البلاد المتخلفة، كبلدنا فلسطين، أو المتقلبة سياسياً، كبلدنا فلسطين أيضاً، لا يحب الناس الاستطلاعات ولا يؤمنون بها. ويكرهون التخطيط. لكن، حتى لو كنتَ صاحب إذاعة في قرية عدد سكانها 5 آلاف نسمة عليك أن تفهم الجمهور من خلال عملية استفسار منتظمة ووفق استمارة مدروسة، وعليك أن تخطط وتقوم بإعداد خريطة برامجك آخذا بعين الاعتبار أشياء مختلفة، وعليك أن تشاور زملاءك والعاملين معك.

<u>**مثال على تفضيل العمل المباشر ونسيان التخطيط:**</u> فتحنا إذاعة. مبروك! واشترينا مئة سي دي. وفصّلنا عند النجّار رفوفاً. قال لنا النجار على التلفون: كم تريدون ارتفاع الرف، فقلنا له 25 سم. وبخصم سمك الخشب من الجهتين صار ارتفاع الرف 23 سم. واكتشفنا أن الرف واسع لأن ارتفاع السي دي (وقد اكتشفنا هذا فيما بعد، عندما اشترينا مِسطرة) هو 12،5 سم. المشكلة هي أن الرفوف الجديدة واسعة جداً وفيها تضييع للمساحة، وإذا أردنا تنصيف الرف إلى جزأين فإن المدى لا يكفي. عندنا مشكلة سببها عدم التخطيط. وضعنا السي ديّات على الرف. وقررنا أن نصنفها حسب الأغاني القديمة والجديدة. وفي الأسبوع الثاني اشترينا 100 سي دي أخرى. فوضعناها خلف الدفعة الأولى. وصرنا كلما اشترينا مجموعة نضعها في آخر الرف. لم ننفق وقتا في التفكير

والتخطيط لكي نحدد تصنيفاً معيناً يسير عليه الجميع . بعد قليل صار الرفّ مثل رأس المجنونة ، وصار مهندس الصوت يحتار في العثور على أغنية من الأغاني ، وصار يتصايح مع زميله من تحت رأس الترتيب غير المرتب .

العبرة من المثال: الارتجال شيء طبيعي في الإنسان ، فنحن نحب أن نبادر إلى العمل ، وإلى تحقيق نتائج سريعة ، ولكنّ التخطيط يضمن لنا نتائج أفضل على المدى البعيد . من الأفضل أن ننفق ساعات الليل - بعد شراء السي ديّات - في التفكير والتخطيط وأخذ القياسات بدلاً من أن يأخذنا الحماس ونبدأ في العمل والتصنيف .

الموسيقى والغناء في الإذاعة: الغناء والموسيقى شيء جميل ، لذلك هناك خطر مستمر في أن يعالج المرء هذه الناحية بشكل تذوّقي لا بشكل منظم . علينا ألا ننسى أن مذاقات الناس مختلفة . وعلينا ألاّ ننجرف وراء ما نفضّله نحن . الأمر يحتاج إلى دراسة ، واستكشاف ، وتدريب . أحياناً تتوفّر لديك سي ديّات عظيمة ، ولكنّك لا تعرف ماذا يوجد فيها لأنك لا تقوم بعمليّات استكشاف . أحيانا تكون الكتابة الموجودة على ظهرها بلغة أجنبية ، مما يسد نفسك عنها . أحياناً يكون عندك جهل بهذا النمط الموسيقي أو الغنائي ، ولا تنتبه إليه إلا عندما تسمعه في إذاعة أخرى . وتأخذ بعد استماعك إليه بالبحث عن هذه الأغاني ولكنّك لا تجدها إلا بعد أن تكون الإذاعة الأخرى قد حققت سبقاً مهماً . لحل هذه المشكلة عليك أن تدرس أنماط الموسيقى والغناء القديمة والحديثة . وعليك أن تتعرف على مصادر الحصول على المعلومات اللازمة . والمعرفة لا تكفي : لا بد من تدريب الأذن على التذوق السريع .

مثال: مذيع يسمع جورج وسّوف وديانا حدّاد طول النهار . وفي البيت يسمع إذاعته تبث نفس الأغاني . صاحب دكّان السي ديّات يعطي الإذاعة ما ينزل إلى السوق باستمرار ، ولكن هذا المذيع وزملاءه في المحطة لا يهتمون إلا بلون واحد من الغناء . بعد قليل ستصبح سمعة هذه الإذاعة أنها لا تبث الجديد ، وأنها لا تعرف التنويع .

عندما تنزل إلى السوق سي دي جديدة لمطرب جديد على الساحة ، من بلد بعيد ، يغني لوناً مختلفاً ، (إلهام المدفعي في أول نزوله مثلا) ، سينتبه إليه مذيعنا متأخراً ، بعد أن تكون الإذاعة المنافسة قد شبعت منه ، وأشبعت مستمعيها ، وسيعرف المستمعون أن الإذاعة الأخرى هي التي تبث الجديد ونحن نلحقها .

مثال آخر: مذيع وصله ألبوم عمرو دياب (تملّلي معاك) . وباشر فوراً بوضع الأغنية التي أعطت الألبوم اسمه على الهواء . وفي اليوم نفسه استمع المذيع إلى السي دي كلها . ثم استمع مرة أخرى ، واكتشف أن هناك أغنية أخرى ذات إيقاع ولحن جميلين ومرشّحة لأن تكون مفضّلة

عند الجمهور هي (العالِم الله). هذا المذيع وضع الأغنية على قائمة الأغاني التي يجب الاهتمام بها. وبدأت المحطة تذيع هذه الأغنية. بعد شهر من الحكاية كلها، سينسى الجمهور كل شيء، ولكنه سيخرج بانطباع عام هو أن هذه الإذاعة هي أول من يبث الأغاني الجديدة والجميلة.

مثال على إذاعة فيها تقدير للتخطيط: إذاعتنا فيها مهندس صوت مجتهد وهو يخصص ربع ساعة في المساء لوضع مقاطع متعاقبة من الأغاني يردّ فيها المطربون على بعضهم بعضاً. مدير المحطة كافأ المهندس بتخصيص يوم كل أسبوع يقوم فيه المهندس بتطوير هذا الفن. وصار المهندس يكتب كلمات الأغاني الجديدة على دفتر مخصوص، وصار يستعمل الكتب الصغيرة الموجودة في السوق التي فيها كلمات الأغاني القديمة التي مضى عليها خمس سنوات أو حتى عشر سنوات. وصار لهذا المهندس مكتبة صغيرة فيها العديد من هذه الكتب. هذا الأمر سيضمن له الاستمرار في هذه الحكاية المسلية. وصار يدوّن المقاطع المتناسبة التي يحدث من تكرارها أثر فكاهي أو التي ينتج عنها حوار جميل. بعد فترة من العمل الدؤوب وجد المهندس أن هذه الفترة الإذاعية تجد قبولا عظيماً عند الناس، ووجد نفسه قادراً على الاستمرار والإتيان بأشياء جديدة. وفي بعض الأحيان صار يكرر المواقف الناجحة بعد أن يكون قد مرّ عليها بضعة أسابيع.

مدير المحطة متفهم، وهو يشجع المهندس على التخطيط لساعته وعدم الاكتفاء بالارتجال. فالارتجال ينفع ليوم ويومين، ولكنْ.. مع التخطيط يمكن للنجاح أن يدوم مدة طويلة.

مثال على مذيعة برامج أغانٍ تحترم التخطيط: هذه المذيعة مطلوب منها أن تربط الأغاني. لقد اكتشف صاحب المحطةً أن الحديث فيما بين الأغاني مرغوب. المذيعة ملّت الكلام الفارغ. في كل مرة عليها أن تخترع صيغة جديدة لكي تقدم الأغنية. ولكن كل الصيغ صارت مستهلكة. بدأت المذيعة تكتب.

استطراد: الذين يكتبون ويقرأون هم الذين ينجحون وينتصرون. فالمخ الإنساني، رغم كل جبروته، عنده نقطة ضعف كبيرة هي النسيان.

بدأت تكتب معلومات مختلفة عن المطربين والملحنين، من المجلات الفنية ومما تسمعه من مقابلات في الفضائيات. واكتشفت أن في وسعها أن تبدأ أرشيفاً بسيطاً. صارت تقص كل خبر فني في الجريدة، وفي المجلات الفنية الأخرى، ومن الانترنت. بعد فترة صنعت أرشيفاً على أسماء المطربين. وكانت تحرص على كتابة تاريخ النشر على كل قصاصة. نستمع إلى هذه المذيعة تتحدث:

".. عندما بدأت أقصقص الأخبار والصور من المجلات والجرائد أحسست بعدم جدوى هذا الأمر كله، أتذكر أنني ذات مساء وبعد جلسة قصقصة طويلة رميت بكل ما قصقصته في تلك الليلة في سلة

المهملات. لقد شعرت أنني أفعل مثل تلميذات المدارس. لكنني لحسن الحظ استمررت في الأمر في الأيام التالية. بعد فترة رتبت مجموعة القصاصات على حسب أسماء المطربين، أبجديا، في دفتر كبير. وسرعان ما امتلأ الدفتر وصار منتفخاً. ولكنني كنت قد بدأت أتعلق به لسهولة حمله، ولأنه صار مفيداً بعض الشيء. أتذكر جيداً عندما فوجئت بغياب زميلة وكان عليّ أن أقدم برنامجاً طويلاً على الهواء.. لقد فتحت الدفتر السمين وبدأت أختار حكاية جديدة عن كل مطرب ومطربة مع إذاعة أغنية بين الفينة والأخرى، ومرّت الساعة بسرعة وكان برنامجاً عظيماً لقي ردّ فعل جميلاً.

المهم، الآن عندي نظام (دوسيه المنفاخ) حيث أضع القصاصات في جيوب هذه الدوسيه بدون صمغ.

مشكلتي هي أنني لا أستطيع قصقصة الخبر فور قراءته لئلا أتلف الجريدة أو المجلة. لذلك أجمع الجرائد، وأقوم بالقصقصة مرة كل عدة أيام. وبالنسبة للمجلات فإنني أنتظر أسبوعاً حتى ينزل العدد الجديد. ومشكلتي الأخرى أنني أشعر أنني مثل العجائز وأنا أقصقص الجرائد والمجلات. لكن، بما أن عندي قناعة بالأمر فلا يهمني.

بعد مرور ثلاث سنوات على بدئي بالألبوم أشعر أنه أثمن شيء عندي. بواسطته أقدم فترات ربط طويلة ناجحة، وأستطيع أن أقدم صورة متكاملة عن أي مطرب. طبعاً هناك دائما مشكلة في المطربين القدامى، حيث أضطر إلى الاستعانة بالكتب بشأنهم. "

موسيقى المحطة: بعض المحطات لا تريد أن تذيع "لوغو" عليه اسم المحطة مرة في كل نصف ساعة. وتستعيض عنه بموسيقى خاصة تميزها. الأفضل أن تدفع المحطة مالاً لمؤلف موسيقي ليضع لها موسيقى بدلاً من استعارة موسيقى من السي دي. لكن في كل الأحوال من المناسب أن تعتمد المحطة موسيقى معينة لكي تعزز شخصيتها من خلالها وتجعل المستمع يحس بأن هذه هي محطته.

موسيقى الإشارة: هي تلك الموسيقى التي تأتي في بداية البرنامج الإذاعي، وفي الوسط وفي الختام. أفضل وأسهل طريقة أن يختار المذيع قطعة موسيقية طولها لا يقل عن دقيقة ونصف الدقيقة. يضع قطعة منها في بداية البرنامج، ويختار من موقع آخر جملة موسيقية لتكون فاصلاً بين فقرات البرنامج، ويختار جزءاً يضعه في نهاية البرنامج. هذه طريقة سهلة وفعّالة.

بعض المذيعين يشغلون بالهم طويلاً بمزج عدة أشياء في موسيقى الإشارة، هذا يحتاج جهداً، أحياناً تكون المسألة محرزة الجهد إذا كان البرنامج يومياً وناجحا ومستمراً على مدى سنوات. لكنني رأيت مذيعين يصنعون برنامجاً يبذلون في إعداد الحلقة منه نصف ساعة، ولكنهم ينفقون نهاراً كاملاً في

اختيار موسيقى الإشارة . . ثم لا يدوم البرنامج على الهواء سوى بضعة أسابيع .

سجّل فوق موسيقى الافتتاح اسم البرنامج إن شئت، لكن لا تقل صباح الخير ولا مساء الخير فقد يذاع البرنامج في وقت مختلف . ولا تسجّل التحية فوق موسيقى الإشارة لأن تحيّتك يجب أن تكون طازجة، ويجب أن يكون مزاجك فيها مثل مزاجك وقت التسجيل . لا تذكر اسم الإذاعة على موسيقى الإشارة فقد يكون برنامجك ناجحا جداً، ويباع لإذاعة أخرى في بلد آخر .

موسيقى الإشارة ليس لها قواعد . أنت وذوقك .

بعض المذيعين يختار موسيقى إشارة طولها خمس دقائق . ويدخل إلى الاستديو ويترك الموسيقى على الهواء دقيقتين أو ثلاثاً أو أكثر ريثما يستعد . وعندما يبدأ بالكلام يكون المستمعون قد غيّروا الموجة وفتحوا الراديو على إذاعة تحترم عقل المستمع أكثر .

الأوركسترا الكبيرة تملأ الأذن أكثر . لهذا فالموسيقى الكلاسيكية مناسبة جداً للإشارة . وكذلك طبعا الموسيقى العربية التي تعزفها فرقة كبيرة، مثل موسيقى عمر خيرت، وموسيقى إلياس رحباني . لكن في نهاية المطاف المسألة مسألة ذوق .

<u>لا تقيّد نفسك:</u> ليس ضرورياً أن تضع موسيقى وطنية كإشارة للبرنامج الوطني . وليس ضرورياً أن تضع موسيقى عربية قديمة كإشارة للبرنامج التراثي أو الديني . . المسألة مسألة إحساس . لكنني متأكّد أنك لن تستعمل موسيقى ناي حزينة كإشارة لبرنامج مسابقات .

في موسيقى الإشارة هناك عنصر الإيقاع . برامج المسابقات تقتضي عادةً إيقاعاً سريعاً . لكن ليس مطلقاً . . كان هناك برنامج مسابقات في غاية السرعة ويعتمد على عنصر الوقت . . وكانت موسيقاه في غاية البطء، وتوحي بالرهبة . . رهبة الامتحان . . ورهبة التحقيق . ليس هناك قواعد ثابتة . أنت وذوقك .

ثمة عنصر آخر هو الصوت البشري : هل يجوز أن يكون في موسيقى الإشارة صوت بشري؟ الجواب عندك .

<u>اللوب السخيف:</u> اللوب من أخطر الأفكار "المستوردة" . كثيرون من مهندسي الصوت يريدون أن يفرشوا أرضية البرنامج بالمزيكا، فيأخذون قطعة موسيقى طولها **20** ثانية مثلاً ويكررونها ألف مرة، ويبدأ المذيع بقراءة برنامجه فوق هذه الأرضية الوسخة . من الأفضل للمذيع أن يقرأ بدون موسيقى . المشكلة في اللوب أن المهندس يغلط في ضبط الإيقاع فيكون اللوب مثل السي دي المشروخة، فيقفز

قفزة منكرة في كل إعادة ويقفز المستمع أو يفر. اللوب لا ضرورة له، ولم أر أحداً يستعمله بشكل جيد.. لا من المهندسين ولا من المذيعين.

هل نقرأ فوق الموسيقى: أحياناً ينجح ذلك. إذا كان المذيع متمكناً، ويستطيع أن يسمع الموسيقى أثناء قراءته، فهو عندئذ سيتمكن من اختيار المواضع التي يترك فيه للموسيقى أن تعلو. ولكن هذا صعب. في قراءة الشعر تكون الخلفية الموسيقية عاملاً مساعداً في تقوية أثر القراءة. لكن التلعثم في الشعر ينسف القراءة والموسيقى معاً. إذا قرأنا فوق الموسيقى في التسجيل فسنضطر إلى الإعادة من مكان بعيد إذا غلطنا.. وعندئذ سيتغير المزاج. بعضهم يريد أن يضع له المهندس موسيقى وهيصة بينما هو يقرأ أسعار الخضار ودرجات الحرارة، بعضهم يشكو من أن الموسيقى منخفضة تحته.. ويطالب المهندس برفعها حتى يتبارى معها في الصوت العالي.. إذاعات الإف إم فيها عجائب أكثر من ذلك. بعض المذيعين يريد أن يَطْرَب وهو يقرأ.. يريد غناء تحته وليس موسيقى فقط..! الموسيقى تحت الكلام ليست أمراً ناجحاً دائما. الغناء تحت الكلام أمر فاشل دائما.. لكن قد يكون هناك استثناءات لم تخطر ببالي. ومن الأفضل أن تكون الموسيقى التي تضعها تحت كلامك ليس فيها إيقاع قوي وسريع وبارز.. بل الأفضل أن تكون بلا إيقاع.. ومن الأفضل ألا يكون فيها جملة لحنية قوية، لأن المستمع ينصرف إلى الاستماع للجملة اللحنية ويطرب لها ويتركك، ويترك برنامجك.

أم كلثوم على الراديو: كنّا نفضّل ألاّ تكون إذاعة إسرائيل هي المشهورة بفقرة أم كلثوم. ولكنها صاحبة السبق. سبب نجاح تلك الإذاعة في تلك الفقرة: الثبات. فقد تم تثبيت تلك الفقرة وموعدها وطولها على مدى أكثر من ثلاثين سنة. الثبات مهم في الإذاعة مثلما هو في الدكاكين. إن الدكان الذي يبيع الزعتر البلدي أباً عن جد يكتسب سمعة في هذا الصدد، ويقصده الناس، وقد يشترون منه أشياء أخرى. وهكذا فنحن نشتري أغنية أم كلثوم.. وسريعاً بعدها نشتري نشرة الأخبار. الثبات في البرمجة مهم. وعدم الثبات مهم.

كيف ننافس كلثومياً: المستمعون أصناف وحاجاتهم الكلثومية شتى. صنف يريد أن يتجلّى وأن يسمع الأغنية بكلّ الإعادات، ولا يشبع إلا من ساعة كاملة. وصنف يحب الكلثوميات الراقصة التي بدأت مع بليغ حمدي (الأولى التي لحنها لها "حب إيه" **1960**)، ثم عبد الوهاب (انت عمري **1964**). وهذا الصنف لا يبالي كثيراً بوجود جمهور، ولا بمقدار التجلّي عند أم كلثوم في الأداء، ولعلّه يفضّل أم كلثوم في تسجيلات الاستديو القليلة الإعادات. هذا الصنف يحب اللحن والصوت، ولكنه غير متعمق في اللغز الكلثومي. إنه يريد أنصاف ساعات. وثمة صنف من الصغار في السن الذين لا يهمهم صوت أم كلثوم كثيراً. ولا يهمهم التجلّي ولا الجمهور. لكنهم يحبّون

اللحن. هؤلاء لا يصبرون على نصف ساعة. وهم يتمنون لو يسمعون مقطعا واحداً، وبدون إعادات، من أغنية سريعة الإيقاع لأم كلثوم. يتمنون لو نكتفي بمقطع واحد طوله 4 دقائق. طبعاً هذا ممكن. لماذا لا تصنع الإذاعات ذلك؟ أليس من الأفضل للإذاعة أن تلبي تمنيات مستمعيها؟ لماذا لم تبدأ أي إذاعة بسياسة كلثومية من هذا القبيل؟ السبب في رأيي هو الكسل. هل نخاف أن ينقطع التجلي عند المستمع؟ حسناً فلنبدأ باختيار المقطع الأخير من الأغاني، وطبعاً بانتهاء هذا المقطع لا يتوقّع المستمع المزيد. هناك حالة وسطى لمستمع يريد ربع ساعة من أم كلثوم. . أليس ممكناً أن نذيع المقطعين الأخيرين من أغاني أم كلثوم؟ هذه أشياء جديرة بالتجربة، وبالبحث والمشاورة. إن التغلب على إذاعة إسرائيل يحتاج إلى شغل كثير، فنحن طبعاً لا نملك الثبات الذي تميزت به. . لكن علينا أن نبدأ في مشوار التميز. يمكننا أن نقدم، في أوقات مختلفة، أشكالاً مختلفة من الغناء الكلثومي. هذا يقتضي تعباً وتفكيراً وتخطيطاً. . قليلاً. المهم أن نفكّر في كل شيء نقدّمه.

أم كلثوم ليست شيئا واحداً: هناك أم كلثوم العتيقة عندما كان صوتها مثل صفارة الإنذار. هذا الغناء الذي قدمته أم كلثوم على مدى عشرات السنين زبائنه قلّة قليلة من السمّيعة (ولم يبق من هؤلاء في فلسطين إلاّ ثلاثة)، وإذا أرادت الإذاعة أن تتجنب هروب المستمعين فعليها أن لا تذيع شيئا من هذا الغناء إلا في سياق تاريخي، وشرط أن يكون النموذج المذاع لا يتجاوز الدقيقة الواحدة.

هناك أم كلثوم الوسطى (الخمسينات: يا ظالمني، أروح لمين، ذكريات، شمس الأصيل). وهناك أم كلثوم الحديثة (1960 – 1973). هناك أم كلثوم وألحان زكريا أحمد، وفيها طرب يحبه كثيرون. وهناك أم كلثوم وألحان السنباطي. . وهذه حكاية طويلة، وذات مراحل. هناك غناء الأفلام عند أم كلثوم وهو غير جدير بالاهتمام الإذاعي عدا بعض أغاني زكريا الشعبية (ومن هذا القبيل الفتوى المشهورة: القبلة ان كانت للملهوف/ اللي على ورد الخد يطوف/ ياخدها بدال الواحدة ألوف. **1944**/ وغني لي شوية شوية **1944**) .

ليس مما نريده هنا أن نخوض في تفاصيل الغناء الكلثومي، ولا حتى أن ندرس كيفية التعامل معه إذاعياً، ولكننا نقول إن على الإذاعي أن يسمع كثيراً وأن يتعرّف على الأشياء المختلفة حتى ينجح في تقديمها بصورة ترضي مستمعيه، وفي الأوقات المناسبة. على أننا في المقال اللاحق سنقدم تحديدا بالثواني لمقاطع كلثومية متكاملة يمكن للإذاعات أن تجربها.

الأغنية المخدومة إذاعياً: الكلام قد يجعل الأغنية أحلى. . لكن ليس دائماً. ربط الأغاني بكلام يكون جيداً إذا كان الكلام جيداً. والكلام المليء بالمعلومات قد يكون مزعجاً قبل الأغنية. . والكلام الفارغ قد يكون مزعجاً. الأغنية مثل حبّة المعمول. . لا تقدمها بلا تغليف لئلا تهرّ على تنانير

السيدات وبنطلونات الرجال من الضيوف. استعمل لسانك. . قل من هو المؤلف والملحّن والمطرب. ضع الأغاني في مجموعات: وطني، سريع جديد، سريع قديم، مواويل، شعبي فلسطيني، شعبي مصري. . الخ. التغليف قد لا يكون بالكلام. عليك أن تخدم الأغنية ذات المقدمة الطويلة التي ليس فيها لحن حلو، ولكنّها تعزف حتى يستعد المطرب للغناء، عليك أن تخدمها بقصّ المقدّمة الموسيقية. وعليك أن تخدم أغنية جديدة بأن تحدثنا عن ظروف غنائها (مثلاً أن الملحّن استعملها في مسرحية له قبل عشرين سنة ولكنّه هذه المرّة أعطاها للمطربة المشهورة – أمّه – وغنّتها في حفلة بيت الدين). اخدم الأغنية بأن تفكر قبل أن تضعها على الهواء: هل هذه أغنية حلوة؟ إذا كنت أنت تحبها فلا شك في أن بعض الآخرين يحبونها أيضا. لا تتردد في إذاعة أغنية جديدة عدة مرات في اليوم. من قال إن هناك قانونا ضد ذلك؟ بعض الذين يعشقون القوانين ويحترفون سنّها خرجوا بهذا القانون التافه. لكنّ الأغنية الجديدة الحلوة يجب أن تعاد كثيرا. . لماذا؟ لأن المستمع يريد أن يسمعها كثيراً. أليس هذا سبباً كافيا؟

اخدم الأغنية بوضعها في سياق. ضعها في سياق معنوي مع أغنيات أخرى (أغنيات متشابهة في موضوعها: الليل وسكونه مثلاً، أو رفض الرجل لمحبوبته التي تتدلل عليه، أو العيون، أو القدّ الحسن). عملية التجميع هذه تجعل المستمع يشعر بأن المهندس أو المذيع يشاركه الاستماع ويختار له اختياراً واعيا ويتعب لإسعاده، وهذا شعور يعزز الارتباط بالإذاعة.

<u>لماذا الأغنية من الراديو أحلى من الأغنية من الكاسيت؟</u>: صحيح، لماذا؟ هناك أحد عشر سبباً: هذه الخمسة الأولى منها: **1**) على الراديو يشعر المستمع أنه ليس وحده بل كل الناس يسمعون معه، **2**) المستمع يحس بوجود مذيع يختار له ويسمع معه ويؤنسه، **3**) هناك عنصر الخطر والترقب الحذر: فقد تقطع الدعاية الأغنية، أو يقطعها المذيع، أو تتشوش الموجة، **4**) هناك عنصر "المكسب العابر"، فالأغنية ليست محفوظة عندك على كاسيت، وإذا فاتتك فلن تستطيع استعادتها، **5**) أغاني الراديو منتقاة: إنها أحلى الأغاني، وأحدث الأغاني، والأغاني التي أريدها أنا، أما الكاسيت فيكون فيه أغنية حلوة واحدة، وعشرة لتكملة العدد.

كل هذه العوامل هي في صالح الإذاعة. ولكن بعض المذيعين ومهندسي الصوت يصرّون إصراراً على تهريب المستمع وجعله يبحث عن الكاسيت والمسجّل، فهم يهزمون كل هذه العوامل الطبيعية التي تجعل أغنية الراديو أجمل. بعض المذيعين هوايتهم النكد. إنهم كسولون، يختارون أي أغنية من الشريط الجديد، وكأنما هم يريدون تعذيب المستمع بأقبح أغنية في الشريط.

كوبليه متعوب عليه (فكرة كلثومية إذاعية)

فيما يلي سبع من أغنيات أم كلثوم وقد قصصناها إلى كوبليهات منفردة، مع تحديد المكان الملائم للقطع وذلك بحسب السي دي الذي توفر لنا (تسجيلات صوت القاهرة).

أولا: الحب كله الاغنية كلها تراك واحد ورقمه2

1- تراك 2 على السي دي،

بداية: الحب كله حبيته فيك 15:3 - 15:6 نهاية: حسيت كأني اتخلقت تاني

2- تراك 2

بداية: روح قلبي يا حياة أيامي 51:11 - 18:16 نهاية: حسيت كأني اتخلقت تاني

3- تراك 2

بداية: الهوى العطشان في قلبي 52:20 - 57:25 نهاية: حسيت كأني اتخلقت تاني

4- تراك 2

بداية: يا حبيبي يا عبير الشوق 58:29 - 22:35 نهاية: حسيت كأني اتخلقت تاني

ثانيا: سيرة الحب. الاغنية كلها على تراك واحد ورقمه 1

1- تراك 1

بداية: طول عمري بخاف 57:2 - 06:9 نهاية: وليل على بابه

2- تراك 1

بداية: فات من عمري سنين 34:15 - 45:19 نهاية: وليل على بابه

3- تراك 1

بداية: يا اللي ظلمتوا الحب 11:26 - 00:31 نهاية: وليل على بابه

4- تراك 1

بداية: يا اللي مليت بالحب حياتي 05:33 - 05:39 نهاية: وليل على بابه

ثالثا: هذه ليلتي (الأغنية مفروشة على 4 تراكات)

1- تراك 2

بداية: هذه ليلتي وحلم حياتي 00:00 - 15:4 نهاية: أحبك الآن أكثر

2- تراك 2

بداية: والمساء الذي تهادى إلينا 15 : 4 – 46 : 9 نهاية: أحبك الآن أكثر

3- تراك3

بداية: يا حبيبي طاب الهوى ما علينا 48 : 1 – 25 : 6 نهاية: أحبك الآن أكثر

4- تراك 4

بداية: هلّ في ليلتي خيال الندامى 10 : 2 – 10 : 7 نهاية: أحبك الآن أكثر

رابعا: ألف ليلة وليلة (أغنية وحيدة بتراك واحد)

1- بداية: يا حبيبي الليل وسماه 38 : 7 – 02 : 13 نهاية: هو العمر إيه غير ليلة زي الليلة

2- بداية: ازاي أوصف لك 01 : 22 – 25 : 28 نهاية: هو العمر إيه غير ليلة زي الليلة

3- بداية: يا حبيبي إيه أجمل من ليل 00 : 39 – 37 : 45 نهاية: هو العمر إيه غير ليلة زي الليلة

خامسا: دارت الأيام (أغنية واحدة بتراك واحد)

1- بداية: ودارت الأيام 51 : 5 – 27 : 10 نهاية: أنا ليّ مين إلا حبيبي

2- بداية: قابلني والأشواق في عينيه 49 : 16 – 00 : 20 نهاية: أنا ليّ مين إلا حبيبي

3- بداية: وصفوا لي الصبر لقيته 15 : 26 – 55 : 33 نهاية: أنا ليّ مين إلا حبيبي

4- بداية: ودارت الأيام وهلّ الفجر 15 : 34 – 40 : 39 نهاية: أنا ليّ مين إلا حبيبي

سادسا: يا مسهرني (أغنية واحدة بتراك واحد)

1- بداية: ما خطرتش على بالك يوم 05 : 18 – 33 : 22 نهاية: يا مسهرني

2- بداية: إسأل على اللي يصحي 00 : 23 – 24 : 26 نهاية: يا مسهرني

3- بداية: يا مسهر النوم في عينيّه 02 : 38 – 53 : 44 نهاية: يا مسهرني

4- بداية: تعال خللي نسيم الليل 55 : 49 – 25 : 55 نهاية: يا مسهرني

سابعا: حيرت قلبي معاك (أغنية واحدة بتراك واحد)

1- بداية: حيرت قلبي معاك 30 : 3 – 50 : 5 نهاية: وعزة نفسي مانعاني

2- بداية: يا قاسي بص في عينيّه 00 : 12 – 20 : 16 نهاية: وعزة نفسي مانعاني

3- بداية: ياما ليالي أنا وخيالي 50 : 20 – 25 : 41 نهاية: وعزة نفسي مانعاني

4- بداية: خاصمتك بيني وبين روحي 50 : 35 – 25 : 41 نهاية: وعزة نفسي مانعاني

تمّ إجراء تجربة على هذا التقطيع، وبثّ كوبليهات مكتملة من أغاني أم كلثوم تبدأ بالقطعة الموسيقية التي تسبق الكوبليه وتنتهي بالقفلة الكلامية. التجربة جرت في إذاعة بيرزيت وفي إذاعة أجيال، ولم أتمكن من رصد نتائجها لدى المستمعين.

فكرة كلثومية أخرى

أراك عصيّ الدمع

والآن حان موعدنا . . سيداتي وسادتي لنستمع إلى كوكب الشرق . . أمِّ كلثوم . . التي غنّت ستين سنةً كاملة ، إلى ما قبل وفاتها بسنتين . . في عام خمسةٍ وسبعين .

نسمع اليوم إلى أغنية غنتها كوكب الشرق ثلاث مرات . . بثلاثة ألحان . غنتها عام ستة وعشرين باللحن القديم لعبده الحامولي . . ثم غنتها عام اثنين وأربعين . . بلحن لزكريا أحمد ، ومن المفارقات أن اللحن القديم سُجِّل وبقي حتى يومنا . وأما لحنُ زكريا فلم يسجّل . نستمع إلى الأغنية الآن بلحنها الثالث : لحن رياضَ السنباطي وهو يعود إلى عام خمسةٍ وستين .

أراك عصيّ الدمعِ شيمتُك الصبرُ   أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ

الشاعر أبو فراس الحمداني . كتب القصيدة وهو مأسور عند الروم قبل ألفٍ وثلاثين سنة .

الأغنية من مقام الكرد ، وهي فيما أعتقد الأغنية الوحيدة لأمِّ كلثوم التي دخلها البيانو ، وهو يسيطر على المقدمة الموسيقية . يستمع معكم عارف حجاوي

أروح لمين

والآن حان موعدنا سيداتي وسادتي . . لنستمع إلى كوكب الشرق . نستمع إلى لحن بديع وضَعَهُ رياضُ السنباطي مفصّلا على قد هذه الكلمات التي كتبها عبد المنعم السباعي . الأغنيةُ تعود إلى عام ثمانية وخمسين ، وكلماتُها بسيطة ليس فيها شيءٌ خارجٌ عن المألوف ، وأعتقد أن أمّ كلثوم والسنباطي تحمّسا للكلمتين الأولَيَيْن في الأغنية . . فقط .

(أروح . . لمين) . . بكلمتين فقط لخّص الشاعر حالة يأس وضياع وعشق وألمْ . وبعد ذلك جاءت الأبيات عادية جداً ليس فيها تحليق ولا خيالٌ بديع (طّول ما انتَ غايبٌ ما ليش حبايب . . في الدنيا ديّة . .) هذا كلامٌ عادي . . السلام عليكم . . وعليكم السلام . لكنّ موسيقى السنباطي ضاعفت عمقَ الكلام ومعانيه . واتخذ السنباطي من عنوان الأغنية (أروح لمين) مِنصة خطابية ، ولا سيما في المقطع الأخير .

أروح لمين من قام الراست . يستمع إليها معكم عارف حجاوي .

اسأل روحك

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. من ملحني أمّ كلثوم المتأخرين محمدُ الموجي، وقد لحّن لها ثمانيَ أغنيات. ولكنْ كتبت الشهرةُ لاثنتين منها فقَط هما الأغنيتان العاطفيتان، أما الستة الأخرى فهي بين دينية ووطنية.

نستمع اليوم إلى أغنية (اسأل روحك) وهي آخرُ ما لحن الموجي لأمِّ كلثوم، وغنتها سنة ألف وتسعمئة وسبعين.

كان الموجي يشكو أن أمّ كلثوم تغيرُ كثيراً في اللحن أثناء التدريبات. وقد جعلته يشعر أن الأغنية العاطفية الأولى التي لحنها لها (للصبر حدود) لم تَعُدْ من تلحينه بسبب كثرةِ التغييرات. وأما في أغنية (اسأل روحك) فإن كوكبَ الشرق أخذت اللحن تقريباً كما هو. اللحن من مقام الحجازكار.

اسأل روحك من كلمات عبد الوهاب محمد. يستمع إليها معكم عارف حجاوي.

أغار من نسمة الجنوب

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. كتب أحمد رامي الشعر الفصيحَ في شبابه.. ثم داهمت حياتَه مطربةٌ شغلت باله خمسين سنة هي أمُّ كلثوم.. وكتب لها بالعامية. قليلاً ما غنّت له بالفصحى. هذه قصيدة من الفصحى غنتها كوكب الشرق لرامي عام أربعةٍ وخمسين. وهي على بحرٍ غريب من بحور الشعر اسمُه "مخلّعُ البسيط".

أغارُ من نسـمةِ الجنـوبِ — علـى محيّـاك يـا حبيبـــي
وأحسُدُ الشمس في ضحاها — وأحسُدُ الشمس في الغروب
وأحسُدُ الطير حين يشـدو — على ذُرى غصنِـه الرطيـبِ
فقـد ترى فيهمـــا جمـــالاً — يـروقُ عينيـك يـــا حبيبـي

اللحن من مقام الراست والملحن رياض السنباطي، يستمع معكم عارف حجاوي.

أغداً ألقاك

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. عزيزي المستمع، إن كنت واقفاً فاقعدْ، وإن كنت متكئاً فارفع هامتك واستعدّ لهذه الأغنية. ستسمعُ في المقدمة الموسيقية بعضَ الخرابيش التي يريد الملحن من ورائها جذبَ اهتمامِك وإيقاظَك، ثم سيستوي اللحن قوياً . . وستسمع أغنية من أحلى ما غنت أمُّ كلثوم. أما اللحن فهو لمحمد عبد الوهاب، وأما الشاعر فهو الهادي آدم السوداني. الأغنية تعود لعام واحدٍ وسبعين.

أغـداً ألقاك يا خـوف فؤادي من غـد

يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعدِ

الأغنية من مقام العجم. يسمعها معكم عارف حجاوي.

الآهات

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. هناك أغانٍ لأم كلثوم يشيخ الزمان ولا تشيخ، هذه واحدة منها. كلُّها آهات، وكلها أنغام عذبة مليئة بالطربِ والاقتدار. اسم الأغنية (الآهات) وهي من صُنع الثلاثي العظيم: غناءُ كوكب الشرق، في لحن زكريا أحمد لكلمات محمود بيرم التونسي.

الأغنية من مقام الهزام وقد غنتها كوكب الشرق عام ثلاثة وأربعين. ألحان زكريا أحمد في غاية العَجَبْ. تسمعُ خمسَ ثوان فتعرفُ أن اللحن لزكريا، وقد تعتقدُ بعد زمن أن كلّ ألحان زكريا أحمد متشابهة. أو أنها لحنٌ واحدٌ يجري عليه زكريا تعديلاتٍ في كل مرة. ثم تبدأ باكتشافِ عالمَ زكريا الواسع، وترى في كل لحنٍ مدناً وجبالاً وأنهاراً مختلفة. الآهات يسمعها معكم عارف حجاوَي.

الأوّلة في الغرام

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. ذات مرةٍ استمعتُ إلى صوفيا صادق تغني لأم كلثوم. كان غناؤها دقيقاً ومضبوطاً، وصوتُها جميلاً وصادقاً. وأسرعت إلى الأغنيةِ

الأصلية لأسمعها من كوكب الشرق. . (الأوله في الغرام). . وأدركت بسرعة أن أمّ كلثوم تغني بدمها وبروحها.

في مرحلة من مراحل السماع والتدرج فيه يقف سميعُ أم كلثوم عند هذه الأغنيةِ وقفةً طويلة. هذه أغنية للسمّيعة الذين سكنتْ أمُّ كلثوم في أعصابهم. الكلام لمحمود بيرم التونسي واللحن لزكريا أحمد، وقد غنتها كوكبُ الشرق عام أربعةٍ وأربعين. يستمع إليها معكم عارف حجاوي.

أمل حياتي

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. الفرح هو الشيء الذي أدخله محمد عبدُ الوهاب إلى أغاني أمّ كلثوم. في بعض الأغاني يغلب على كلمات بعض المقاطع الحزن والشجن. . ولكنهما يتحولان عَلى يد عبد الوهاب إلى فرح غامر ينطلق من القلب كألف حمامة بيضاء تصفق بأجنحتها.

في أغنية (أمل حياتي) اتفق شعر أحمد شفيق كامل ولحن محمد عبد الوهاب على الفرح الغامر. وكانت أفرح وأحلى الغناء العربي: أمل حياتي من مقام الكرد.

أحمد شفيق كامل كان خطيراً في بعض المقاطع:

خد عمري كله	بـس النهـــاردة	خليني اعيـش
خليني جنبـك	في حضن قلبك	وسيبني أحلم
يا ريت زمانـي	مـا يصحنيـــش	

يستمع معك عارف حجاوي.

جددت حبك

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. أغنيتنا اليوم عامرة بالنقلات المقامية البديعة. . وهي كما وصفها فكتور سحّاب المؤرخُ الموسيقي أغنيةٌ شامخة تكاد ألحانُها الرائعة لا تنتهي. . لحناً وراء لحن.

(جددت حبك) غنتها أم كلثوم سنة اثنتين وخمسين من ألحان رياض السنباطي. وقد كتبها الشاعر أحمد رامي الذي كان على علاقة حب أفلاطونية بأم كلثوم. كان في ذلك الزمن متزوجاً، وكان قد مرّ على زواجه عشرون سنة. ولكنه قيل إن زوجته انزعجت جداً من كلمات هذه الأغنية، ولا سيما المطلع: جددت حبك ليه.

وفي الواقع أن رامي لم ينقطع عن حب أمّ كلثوم أبداً حتى يجدد الحب. وظل يحبها حتى وهما عجوزان.

الأغنية من مقام النهاوند. يسمعها معكم عارف حجاوي.

حبيبي يسعد أوقاته

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. إن كنتم نسيتم الأغنية التي تقول فيها أم كلثوم (الليلة عيد) فسوف نذكركم بها. هذه الأغنية هي (حبيبي يسعد أوقاته). الكلام لمحمود بيرم التونسي.

الإعجاز في تلحين هذه الأغنية هو أن زكريا أحمد صاغ المقطع الأول كلّه، وهو مكون من سبعة أبيات، في جملة نغمية متماسكة على نحو يذهب بالعقل ويفتن الفؤاد.

المقام بياتي مع تركيز على العجم في المطلع.

هذه الأغنية غنتها كوكب الشرق في عام سعيد مليء بالأغاني العظيمة لزكريا: عام ثلاثةٍ وأربعين. يستمع إليها معكم عارف حجاوي.

حيرت قلبي معاك

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. هل تستمع -عزيزي المستمع- إلى اللحن أم إلى الكلمات؟ أنا كنتُ أركز على اللحن كثيراً ولا انتبه لكلمات الأغنية، ثم تحولت وصرت أنتبه إلى الكلمات.. وتقلّبت بين هذا وذاك كثيراً.. والآن صرت أرى أن الكلام الجميل والعميق يجبر الملحن على أن يجود بأحسنِ ما عنده.. أصبحت أرى علاقة بين الجانبين.

أغنيتنا اليوم كلماتُها رائعة وعميقة وتصوّر أغوار مشاعر أحمد رامي، وقد جاراه رياضُ السنباطي في اللحن.

خاصِمْتَك بيني وبين روحي وصالحتك . . وخاصمتك تاني

هذه الحالة الشعورية غاص فيها الملحن، وصوّر الكلمات باللحن تصويراً بارعاً . . صوّر التردد والقلق بجمال وقُدرة، ثم عندما يأتي البيت الحاسم :

ح افْضَل احبّك من غير ما أقول لك إيه اللي حير أفكاري

نرى اللحن يتغير ويتدفق . هذه أغنية (حيرت قلبي معاك)، مقامُها الكرد وغنتها كوكب الشرق أول مرة سنة إحدى وستين . يسمعها معكم عارف حجاوي .

دارت الأيام

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق . (دارت الأيام) من كلمات مأمون الشنّاوي . هذا الشاعر التقى بأم كلثوم عام اثنين وأربعين فطلبت منه أغنية، وكان شاباً صغيراً، فأعطاها (الربيع) فطلبت تغيير بعض الكلمات فرفض، وانصرف من عند أم كلثوم معتدّاً بنفسه والأغنية في جيبه فوجد فريد الأطرش عند الميكانيكي يصلح سيارته فوقف معه دقائق وأعطاه الأغنية . ثم طلبت أمُ كلثوم من مأمون الشناوي أغنية أخرى . نعم، كانت معتدّة بنفسها جداً، ولكنها كانت مستعدة لملاحقة موهبةٍ شعرية كبيرة . وحدث لقاء آخر على أغنية (أول همسة) . وطلبت أم كلثوم تعديلات . وذهبت الأغنية مرة أخرى لفريد الأطرش . ولم تنجح أم كلثوم في ترويض مأمون الشناوي إلا في عام ستين في أغنية أنساك حيث أجرت بعض التعديلات . وغنّت له بعد ذلك عدة أغنيات . وآخر ما غنت له " دارت الأيام " من ألحان محمد عبد الوهاب في سنة سبعين . الأغنية من مقام الهزام . يستمع إليها معكم عارف حجاوي .

رق الحبيب

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق . كانت كوكبُ الشرق مرة تسافر بالقطار ومعها الفرقةُ الموسيقية وعلى رأسها طبعاً محمد القصبجي . أخرج القصبجي من جيبه قلماً أسود وبدأ يمرره على شاربه الصغير، فقالت أمُ كلثوم : شوفوا القصبجي رجع شباب . . بجرة قلم .

ورغم أن مسلسل أم كلثوم المشهور عرض لنا القصبجي محباً ولهاناً لأم كلثوم يعيش في بيته وحيداً . . فقد تزوج هذا الملحن العظيم أربع مرات .

آخر أغنية غنتها له كوكبُ الشرق "رق الحبيب" . . وظلٍ بعدها يعزف على العود في الفرقة اثنتين وعشرين سنة وهو يحاول أن يقنع أمّ كلثوم بأن تغني له لحناً آخر لكنْ دون فائدة .

"رق الحبيب" غنتها أمُّ كلثوم عام أربعة وأربعين، وقد شبهها نقاد الموسيقى بالسيمفونية لقوتها التعبيرية، ولكونها تنقسم إلى مشاهد مختلفة . المقام الأساسي للأغنية النهاوند . كتبها أحمد رامي . . ولحنها محمد القصبجي . يستمع إليها معكم عارف حجاوي .

شمس الأصيل

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق . هذه أغنية تعبيرية حلوة . لكن لا يغيب عنها الغزل طبعاً . الأغنية من شعر محمود بيرم التونسي وهي من بحر شعري مستعمل في العامية والفصحى هو البسيط .

شمس الأصيل دهّبِت خوص النخيل يا نيل　　　تحفة ومتصورة في صفحتك يا جميل

كانت أم كلثوم تحبُّ بيرم وتصبر على كبريائه . ذات مرة أصرت على أن يوصله سائقُها إلى بيته فرفض بيرم . فقالت أم كلثوم: لا يوجد أيُّ إزعاج . . أبداً . فقال بيرم: يوصلني السائق وأنتِ معي في السيارة، حتى يراكِ أهلُ الحارة، ويعرفوا أن أمّ كلثوم أوصلتني إلى البيت .

هذه الأغنية لحنها رياض السنباطي عام ثمانية وخمسين، وهي من مقام الحجازكار . يستمع إليها معكم عارف حجاوي .

فات الميعاد

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمعِ إلى كوكب الشرق . في الأغنية التي نستمع إليها اليوم تدخل إلى فرقة أمّ كلثوم آلة جديدة وعازفٌ جديد: سمير سرور على الساكسفون . لقد تبارى الملحنون في إدخال الآلَات الغربية إلى فرقة أمّ كلثوم فبعد الغيتار الكهربائي الذي أدخله عبدُ الوهاب عام **64** دخل البيانو عام **65** ثم الأورغ عام **71**َ . . وبينهما دخل الساكسفون على يد بليغ حمدي في عام سبعة وستين قبل الهزيمة بأربعة أشهر .

"فات الميعاد" من كلمات مرسي جميل عزيز وهي من مقام الهزام . لقد هاجم الصحافيون والموسيقيون ألحان الشاب بليغ حمدي لأم كلثوم كثيراً . . واتهموا لحن "فات الميعاد" بأنه رديء . ولكن الزمن والجمهور أثبتا العكس . يستمع إلى الأغنية معكم عارف حجاوي .

كل ليلة وكل يوم

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. قد تسألني: وكم عددُ أغنيات أم كلثوم كلِّها. الجواب موجود. والحصر ليس صعباً. . لأن أمّ كلثوم بدأت تسجل أغانيها على أسطوانات منذ البدايات الأولى، وقد كانت مشهورة ومهمةً طول عمرها.

اليوم سنستمع إلى أغنية من ألحان بليغ حمدي تعود إلى عام أربعةٍ وستين. . "كلِّ ليلة وكلِّ يوم". الأغنية من مقام الراست.

أظنُّ أنك ما زلت. . عزيزي المستمع. . تريدُ أن تعرف عددَ أغنياتِ أمّ كلثوم. العدد مئتان وثمانٍ وثمانون أغنية.

ابعت لي قل لي: إنت فين لو تقدر

باستنى منك كلمتين مش أكثر

يطمنوني حبّة عليك وع المحبة

الكلمات لمأمون الشناوي. عارف حجاوي يستمع معك.

لسة فاكر

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. أغنيتنا اليوم. . أشبِّهُها بالطفل الصغير المضطهد في العائلة الذي أصبح، عندما كبر، عبقرياً. هذه الأغنية وُلِدتْ مع "سيرة الحب" و "انت عمري" و "للصبر حدود". فاضطهدتها أخواتها. على أن أغنيتنا هي الأختُ الكبرى فهي أقدم من هذه الأغاني بثلاث سنوات وبأربع سنوات.

"لسه فاكر" ولدت عام ألف وتسعمئة وستين. لحنها رياض السنباطي من مقام (دو ماجور) وهو السلم الأساسي في الموسيقى الغربية. ولكنه أدخل إليه مقام الصبا الشرقي في الكوبليه الثاني. الكلمات للشاعر الغنائي عبد الفتاح مصطفى المحامي الذي درس الشريعة، وقد كتب لأم كلثوم خمس أغنيات.

بعد الاضطهاد الذي تعرضت له "لسة فاكر" عدة سنوات عاد الجمهور وتعلق بها. . وظلت تعلو حتى صارت الآن من أشهر أغنيات كوكب الشرق.

"لسة فاكر" عنوان أغنية رومانسي . . هكذا يظن الناس . يظنون أن معناها "أما زلت تتذكر أيام زمان" ، ولكن العنوان لا يعني ذلك . إنه يحمل عدم الثقة والتهديد . . "لسة فاكر قلبي يديلك أمان ، واللا فاكر كلمة ح تعيد اللي كان . . " يسمعها معكم عارف حجاوي .

يا مسهرني

والآن حان موعدنا ، سيداتي وسادتي ، لنستمع إلى كوكب الشرق . (يا مسهرني) أغنية لحق بها الملحن سيد مكاوي نفسه . كان ملحناً قديماً و أصيلاً ، وقد لحن الأناشيد الدينية والمسرحيات الشعبية . ولكنْ ، لم يضمن لنفسه مقعد الخلود الذي احتله اثنا عشر ملحناً فقط .

ذات يوم استدعته أم كلثوم ليكون آخر ملحن يلحن لها . كان رقمه الثالث عشر . وكان اللحن ميموناً ناجحاً .

وفي يوم الخميس ، السادس من نيسان/ أبريل عام اثنين وسبعين طلبت أم كلثوم من ملحنها الأخير ، الضرير ، سيد مكاوي أن يقوم بنفسه بضبط الآلات الموسيقية قبل أن تقدم الأغنية على المسرح . وبينما هو يفعل ، فوجيء برفع الستار . كانت حيلة طريفة من كوكب الشرق . طبعاً لم يكن قصدُها أن يضبط سيد مكاوي الآلات بل أرادت أن تقدمه للجمهور تكريماً له . ونال سيد مكاوي نصيبه من التصفيق وانصرف راضياً يفكر باللحن القادم . ولكنّ أم كلثوم مرضت ثم رحلت قبل أن تقدم لسيد مكاوي لحناً آخر . فهو بالنسبة لها صاحبُ لحن يتيم . وهو لحن من أجمل ما غنت . (يا مسهرني) الكلمات لأحمد رامي . والمقام راست . يستمع إليها معكم عارف حجاوي .

مصر تتحدث عن نفسها

والآن ، حان موعدنا ، سيداتي وسادتي ، لنستمع إلى كوكب الشرق . هناك أغنيات لأمّ كلثوم لم يكتشف الناس جمالها بعد . هذه واحدة منها . أحد الأسباب أن الأغنية مُنعت من الإذاعَة سنوات طويلة في عهد عبد الناصر بسبب لهجتها المصرية الفرعونية . (مصر تتحدث عن نفسها) هي القصيدة الوحيدة لحافظ إبراهيم التي غنتها كوكب الشرق . وهي من أجمل الشعر وأجمل الغناء . ولها مقدمة موسيقية فاخرة كلها كبرياء .

الأغنية من مقام الراست وهي من أغاني عام واحد وخمسين :

وقف الخلق ينظرون جميعـــاً كيف أبني قواعد المجد وحدي
وبناةُ الأهرام في سالف الدهر كَفَوْني الكلامَ عند التحـــدي

يستمع معكم عارف حجاوي.

هذه ليلتي

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. من قال إن محمد عبد الوهاب لا يحسن تلحين القصائد؟ وهو الذي لحنها شاباً صغيراً لم ينبت له شاربان، ورجلاً وكهلاً وعجوزاً. لكنْ.. هناك خرافات يخترعُها النقادُ الفنيون ثم يصدقونها.

عبدُ الوهاب من سادة ملحني القصيد. ومن الأغاني العشر التي لحنها لأم كلثوم أربعُ قصائدَ فصحى. كانت الثانية منها قصيدة لشاعر غير مصري: جورج جرداق اللبناني. حلّق جرداق، وهو المحب للطرب وللكأس وللسهر والانطلاق، حلّق في دنيا الحب والصبابات. وكان عبدُ الوهاب بحاجة إلى من يفتحُ له الباب نصف فتحة حتى يندفع اندفاعاً في تلحينٍ ساحرٍ يخلُبُ الأسماع ويجعل السامع يثب على قدميه مرحاً وإقبالاً على الدنيا.

كان عبدُ الوهاب يحبُ الدنيا. أنظروا أعزائي إلى هذه الصورة لجورج جرداق:

والمسـاءُ الذي تهادى إلينـا ثم أصغى والحب في مقلتينـا
لسؤالٍ عن الهـوى وجـواب وحديث يـذوب في شــفتينا
قد أطال الوقوف حين دعاني لِيَلُمّ الأشواق عن أجفـــاني
فادنُ مني وخذ إليك حنانـي ثم أغمض عينيك حتى تراني

الأغنية من مقام الكرد، ومن عام تسعة وستين. يستمع إليها معكم عارف حجاوي.

هوّ صحيح

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. كانت أمُّ كلثوم كريمة بوقتها على فنها. كرست حياتها له، وكانت كريمة بودها ورعايتها على الموهوبين من الشعراء والملحنين، ولكنها

لم تكن كريمة بالجنيهات. ولهذا اصطدمت بزكريا أحمد. هذا الملحن الكبير كان كريماً وسخياً. دخل بيته مرة في المساء وهو يحمل حزمة كبيرة من الفجل، فقالت له زوجته: لماذا اشتريت كل هذا الفجل، فقال: حزنت على الولد الذي يبيع الفجل، رأيته تعباناً ونعساناً. قالت له: كنت أعطيته قرشين وكفى، قال زكريا: لم أرد أن أذله، اشتريت كل ما معه من الفجل حتى يذهب إلى بيته وينام.

حَرَمَتْ أمُّ كلثوم زكريا من الأجر المناسب فرفع عليها قضية. ودام الخلاف اثنتي عشرة سنة، وكان الصلحُ في قاعة المحكمة لأن القاضي عبد الغفار حسني كان يحب الفن. وتم الاتفاق على أن يلحن زكريا أحمد لأم كلثوم ثلاث أغنيات بسبعمئة جنيه. لم يمهل القدر زكريا.. فلحن أغنية واحدة من الثلاث ومات. وهي "هُوّ صحيح الهوى غلاّب". وهي من مقام الصبا ومن كلمات بيرم التونسي. الأغنية من عام ستين. وقد مات زكريا فبيرم في عام واحد وستين. كان بينهما أربعون يوماً.

يستمع معكم عارف حجاوي.

يا ظالمني

والآن حان موعدنا، سيداتي وسادتي، لنستمع إلى كوكب الشرق. عندما خرجت أغنية أم كلثوم يا ظالمني في عام واحد وخمسين صارت الأرملةُ التي مات زوجها بقضاء الله وقدره تتنهد وتردد مع كوكب الشرق "يا ظالمني"، وصار العاشق يردد "يا ظالمني"، والناسُ كلهم يقولون وراء الست "يا ظالمني". وهذا حالُنا: كلُّ واحدٍ منا يظن أن هناك شخصاً ظلمه. هاتان الكلمتان صرخة عبقرية من أحمد رامي. وجاء موضعُهما في أولِ الأغنية مثل الشعار الذي يعبر عما في نفوس كل الجماهير.

وجاء الملحن رياض السنباطي ومدّ اليـا... ظالمني في اللحن وأعطاها حقّها.. وزيادة. اللحن من مقام حجاز كاركرد. يستمع معكم عارف حجاوي.

اخترتُ من بين أغاني أم كلثوم ستين أغنية معروفة يحبها الناس، ولا تكاد الإذاعات تستعمل سواها لكوكب الشرق، وكتبت شرحاً في نحوِ دقيقة لكل أغنية. وسجلت الشروح كلها على أسطوانة، تم توزيعها على عدد من محطات الإذاعة الخاصة في فلسطين. وأخَذَتْ بعض المحطات تذيع الشرح قبل الأغنية. مضت على هذه التجربة ست سنوات، وما زالت عدة إذاعات تبث الشرح قبل بث أغنية أم كلثوم، مما يجعل المستمع يشعر بأن هناك من يستمع معه.

لقد ركزت في هذا الفصل على الأغنية الكلثومية لأنني جربت فيها كثيرا، ولأنني أحببت إبراز كمية الشغل الممكنة في مجال واحد محدد من الأغاني. وهناك عشرات الأفكار الأخرى التي يمكن للمذيع أن يجربها حتى يقدِّم الأغنية الكلثومية بصورة جديدة.

لكل مقام مقال

(إشارة..)

السلام عليكم، ليس عنديَ اليوم أغنيةٌ أجنبية. ولكنني سأسمعُكم أربعَ دقائق من كونشرتو لتشايكوفسكي قامت عليه القيامة في أيام ظهوره. وعندي قصة حب طريفة يرويها غناءً محمد العِزَبي. . اسمعوا كيف يستعيدُها منه الجمهور. .

(العِزَبي تراك 3، من 4.50 وحتى 5.05)

(التعقيب): لا بدّ أن تكون هذه الأغنية في منتهى الجمال.

عندي أيضاً أغنية من الكويت، وأغنية من عصر مضى من عصور الغناء العربي. . أغنية تَشُرُّ طرباً. . تعصرها فتملأ سطلاً من الطرب العتيق. وعنديً قصص من بلدي، قصصٌ عادية سمعتها من ناس عاديين عن أشياء تحدث للناس في حياتهم اليومية. وعندي على كل أغنية من أغنياتي قصةٌ أو حديث أسوقه. وعندي. . لكل مقام مقال.

(فاصل موسيقي)

عزيزي المستمع. . مشغرة قرية في لبنان خلدتها فيروز في موّال يجيءُ من بعيد كأنما من مغارة في أعماق الأرض أو في أعماق التاريخ. موّال فيروز يتغنى بقمر مشغرة. قال لي صديق لبناني، بعد أن أقسم بالله، قال إنه كان في مشغرة، وبات بها ليلة وكان القمر بدراً. ورأى قمراً لم ير مثله في حياته حجماً ونوراً وبهاءً. وصار يدوي في قلبه موّال فيروز حتى آمن أن عبقرية فيروز والرحبانيّيْن ليس فيها عنصر من هذه الأرض، فهي قادمة من السماء مباشرة. . هكذا قال لي. تغني فيروز الموّال والأغنية التي تليه. . وغناؤها من مقام الصّبا. . والكلمة واللحن للأخوين رحباني:

(سي دي فيروز تراك1، من أوله حتى آخره، الطول 4.05)

(التعقيب): الكلمات واللحن للأخوين رحباني. خبطة قدمكن من مسرحية أيام فخر الدين– فيروز. التسجيل من المسرحية. . لم أسمع أحداً وضع كل هذا الحماس في لحن من مقام الصبا أبداً. . أبداً.

عزيزي المستمع حدثتني قريبةٌ لي بقصة وقعت في مدرسة إعدادية للبنات في القدس:

"معلم في المدرسة. . أكبر ما فيه صوته. . وأبرز ما في وجهه شاربان أسودان. . يعتزّ بهما. . ويتكلم منهما.

كانت في الصف بنتٌ لا تسمعْ. كانت تفهمُ شرحَ المعلماتِ والمعلمين بمتابعة حركة الشفاه، ولكنّ شنب ذلك المعلم كان يحول بينها وبين فهم الشرح. أسرّت التلميذةُ لإحدى معلماتها بالأمر، واحتارت المعلمة ومعها المديرة في الموقف، وبعد طول تدبر أخذ أحد المعلمين على عاتقه أن يحل المشكلة. فقال للمعلم ذي الشنب الكثيف بلهجة دعابة إن شنبه ربما ابتلع بعض الكلمات، خاصة إذا كانت هناك في الصف تلميذةٌ ضعيفةُ السمع.

في اليوم التالي.. جاء الأستاذ صاحب الشنب إلى المدرسة.. بدون شنب.

قال أبو الطيب المتنبي:

وما الحسنُ وفي وجه الفتى شرفاً له — إذا لم يكن في فعلـه والخلائقِ

وجائــزةٌ دعـوى المحبـة والهـوى — وإن كان لا يخفى كلامُ المنافقِ

(فاصل موسيقي)

نستمع الآن إلى أغنية من الكويت. الأغنية شعبية.. وقد وزع الموسيقى وطوّر اللحن فيصل السعد. وكتب على اللحن الفولكلوري كلماتٍ جديدةً الشاعر دعيج خليفة العبد الله. يا نواخذ يغنيها فيصل السعد.. والنواخذ هم صائدو اللؤلؤ.

(سي دي يا نواخذ، تراك 2، من 1.16 حتى 3.57)

(التعقيب): فيصل السعد. اللحن فولكلوري، والكلمات لدعيج خليفة العبد الله، والمقام راست بطعم كويتي.

(فاصل موسيقي)

حدثتني طالبة جامعية بقصة عن طالبة جامعية أخرى.. أنهت تلك الطالبةُ السنة الجامعية الأخيرة، وعادت إلى أهلها في قطاع غزة. وحان موعدُ الشهادات.. فخاضت صراعاً مع أبيها لكي تذهب مرة أخرى وتتسلمّ شهادتها. وسمح لها أخيراً بالسفر وسافرت وحضرت حفل التخرج. ثم باتت عند صديقات لها في منزل الطالبات. وفي ذلك المساء رجع أخوها من العمل، واستشاط غضباً عندما علم أنها باتت خارج البيت، وتكلم بالهاتف مع منزل الطالبات، وهدد أخته بالضرب والإهانة إن لم تعد إلى البيت. وخافت الفتاة واختفت عن الأنظار، وظلت شهراً لم تعد فيه إلى أهلها، حتى توسط أهلُ الخير فأعادوها على وعْد ألا يمسّها أحد بمكروه.

عندما عادت حبسها أبوها في غرفة، ولم يكلمها كلمة واحدة. وجاءه كبار العشيرة. وسألوه:

هل غسلت العار أم لم تغسله بعدْ؟ ثم إنه دخل على ابنته الغرفة وخيرها بين السكين والسُم. ثم قتلها بسُمِّ الفئران.

هنا صوت فلسطين. برنامجنا يأتيكم في يوم. الأحد. . في الحادية عشرة ضحىً بعد الموجز. . وفي يوم الأربعاء في العاشرة ليلاً. . بعد الموجز. لكل مقام مقال.

<u>(فاصل موسيقي)</u>

بيوتر تشايكوفسكي الموسيقار الروسي الذي مات قبل مئة سنة وست سنوات كان رقيقاً لا يجادل. وعندما عَرَض كونشرتو البيانو الأول له على الموسيقار الصديق والمعلم روبنشتاين أسمعه كلمات قاسية هي إلى التجريح أقربُ منها إلى النقد. يصف تشايكوفسكي في رسالة إلى أحد أصدقائه، حفظها لنا التاريخ، كيف أن روبنشتاين استمع إليه وهو يعزف الكونشرتو. . بصمت مطبق. . ثم ما إن انتهى تشايكوفسكي حتى وثب روبنشتاين بالنقد العنيف والتقريع، ووصف الكونشرتو بأنه قطعة لا قيمة لها.

لقد غير روبنشتاين رأيه واعتذر بعد سنوات. ولكن شيئاً بين الرجلين انكسر ولم يعودا إلى سابق صداقتهما. أما الكونشرتو فأصبح من أشهر وأهم أعمال تشايكوفسكي.

نسمعُ الدقائق الأربع الأولى من الحركة الأولى من هذا الكونشرتو. أنبّه المستمع إلى. . البوق الذي يُفتتح به الكونشرتو، وأنبهُهُ أكثر إلى الضربات العظيمة على البيانو التِي تأتي بعد مرور اثنتي عشرة ثانية على بداية الكونشرتو.

ضربات البيانو التي في البداية من أجمل ما سمعتُ من أنغام من هذه الآلة. الفرقة هي أوركسترا لندن الاحتفالية وعلى البيانو آيدا زيرنكا. المقام نهاوند من السي بيمول.

اسمع. . وادخل في النغم عزيزي المستمع. . الحياة قصيرة.

<u>(سي دي تشايكوفسكي تراك1 كله)</u>

<u>(التعقيب):</u> من الحركة الأولى لكونشرتو البيانو الأول لبيوتر تشايكوفكسي. معكم من صوت فلسطين. . وهذا برنامج: لكل مقام مقال

<u>(فاصل موسيقي)</u>

بعد الثمانين-عزيزي المستمع- لا يعود الفرح يظهرُ على الوجه. . ولا الحزن. فالتجاعيد قناع. ويبقى في العينين ضَوْء خافت.

حدثني صديقي بقصة جده وجدته قال: الناس لاحظوا أن (أبو حنا) لم يُظهر حزنا ولا جزعاً عندما ماتت امرأته. كانت في الثانية والتسعين، وكان هو في الخامسة والتسعين. تَقَبّل التعازي بهدوء. وانصرف الناس وبهم حزنٌ على هذا الشيخ الذي فقد رفيقةً عاشرته سبعين سنة. في المساء.. وضع أبو حنا رأسه على الوسادة- ومات، ولما تمض ثماني ساعات على موت امرأته. وقد سُرّ له في المساء أولئك الذين حزنوا عليه عند الظهر.

قال تميمُ بن مقبل:

يـا حُرّ ، من يعتـذر من أن يلـمّ بـه	ريبُ الزمـان فإني غيرُ معتـذرِ
يا حُرّ أمستْ بَقيّاتُ الصِّبا انقطعت	فلستُ منها على عين ولا أثــرِ
كان الشـباب لحاجـات، وكـنّ لــه	فقد فزعتُ إلى حاجاتيَ الأُخَرِ

نسمع الآن موشحاً من مصر، من فرقة الموسيقى العربية. الموشح من الراست وهو من تلحين سيد درويش:

<u>(كاسيت سيد درويش/ الموشح)</u>

<u>(التعقيب):</u> كلما رمت ارتشافاً. موشح سيد درويش أدته فرقة الموسيقى العربية بقيادة عبد الحليم نويرة.

وما دمنا في مصر فلننتقل من هذا الغناء الكلاسيكي الجميل إلى غناء شعبي أجدُهُ من أحلى الغناء، ولن نغير المقام.. سنبقى في الراست.

ولعل المستمع يرى كيف أن المقام الموسيقي بستانٌ ينبُتُ فيه الحلو والحامض. لكل مقام مقال.

<u>(فاصل موسيقي)</u>

محمد العزبي كان له مجد وشهرة في السبعينات، وخرج على الناس بباقة من أبدع الأغنيات والمواويل الشعبية. هذا الموّال يقصُّ قصةً عن رجل وجد عصفورة مشردّة.. الكلمات لصلاح يحيى واللحن والغناء لمحمد العزبي:

<u>(سي دي محمد العزبي تراك1، من 5.53 حتى 8.25).</u>

<u>(التعقيب):</u> ألحان محمد العزبي والكلمات لصلاح يحيى.

قال بشارُ بنُ برد :

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

لأخرُجنّ من الدنيا وحبُكُـمُ بين الجوانحِ لم يشعرْ بـه أحــدُ

عزيزي المستمع ننقُلُكَ من حال إلى حال . . ونقول لك إن عندنا لكل مقام مقال .

كان محمد عبد الوهاب يصيّف في لبنانَ ذاتَ سنة وجاءه إلى الفندق صديقه اللبناني زائراً . سأله عبد الوهاب عن مشكلة كان يعاني منها ، ضائقة مالية أو شبه ذلك ، فقال اللبناني : " خيّ . . لم يعد هناك مشكلة " . قال عبد الوهاب : الحمد لله . . ولكن ما معنى خيّ؟ فقال اللبناني هي كلمة نقولها عندما ينزاح عن الصدر حملٌ ثقيل . استطرف عبدُ الوهاب التعبير وطلب من حسين السيد أن يكتب له كلماتِ أغنية مطلعها (خيّ) . . الأغنية من السوزناك ، من عائلة الراست .

<u>(سي دي خيّ ، تراك **1** ، من ث **53** حتى **4،07**)</u>

<u>(التعقيب) :</u> خيّ من محمد عبد الوهاب . الكلمات لحسين السيد . هذه الأغنية طلعت في سنة ثمان وخمسين أي في شيخوخة صوت عبد الوهاب عندما صار غليظاً عميقاً . وعندما كان عبدُ الوهاب في شبابه كان هو وصوتُه ونظارته وتسريحته وربطاتُ عنقه موضةً في مصر وبلادِ العرب . في تلك الأيام كان كبار السن من محبي الطرب يهاجمون عبد الوهاب مثلما يهاجم الكبار في السن الآن عمرو دياب ، وكانوا يحبون كثيراً المطرب العتيق صالح عبد الحي ذا الصوت الواسع العريض .

نسمع صالح عبد الحي زعيم زعماء الطرب . . وقد توفي في عام اثنين وستين . نسمعه يغني من ألحان محمود الشريف . . هذا الملحن الذي ظلمه عصره . . وظلمته أمُّ كلثوم . . ظلمته لأنها تزوجته . . ولم تأخذ أي لحن من ألحانه على الإطلاق .

الكلمات . . لبيرم التونسي . واللحن لمحمود الشريف . . صالح عبد الحي :

<u>(حبيبي هُوّ من الكاسيت)</u>

<u>(التعقيب) :</u> صالح عبد الحي غنى من الراست حبيبي هوّ ، ألحان محمود الشريف وكلمات بيرم التونسي .

مسك الختام أمُّ كلثوم . الكلمات لعمر الخيام ، بترجمة أحمد رامي ، واللحن لرياض السنباطي . نستمع إلى مقطع تصل فيه أم كلثوم إلى ذروة في التعبير والإحساس ويرتفع رياض السنباطي ويحلق في أجواء لم يصل إليها من قبل أحد .

يا عالم الأسرار علم اليقين، رباعيات الخيام:

(رباعيات الخيام: يا عالم الأسرار)

(التعقيب): يا رب.. أصدقائي أنت، وساعاتي بدون صحبتك انتظار. بك يطيبُ الوقت، فأنت سيد الوقت. أنت سقفي. امش معي حتى آخر الطريق.. وسهل عليّ جواز العتبة.

يا سيدي عندما أبتهلُ إليك تسقط الاعتبارات.

إلى اللقاء في الحلقة القادمة.

نص إحدى حلقات البرنامج الموسيقي "لكل مقام مقال". يعود البرنامج إلى عام **1999**. حافظنا على النص كما هو تقريبا وتركنا في النص بعض الإشارات الموجهة لمهندس الصوت.

همس وضوضاء

عزيزي المستمع ، السلام عليك ،

في هذه الحلقة ، وهي السادسة والعشرون

(فهرس)

- موسيقى مصاحبة كتبها (فون وليامز) لمسرحية الدبابير للإغريقي (أريستوفانيس)

- وفيها لحن من إحدى أغنيات جورج غيرشوين .

- وفي لحظة سعيدة منها نستمع إلى هذه الموسيقى :

(أسطوانة 3 ، تراك 6 ، من البداية حتى ث 19 ، ثم تفييد)

(التعقيب) : هذه موسيقى روبرت شومان من السمفونية الراينية .

نبدأ بالدبابير . في مسرحية (الدبابير) للإغريقي القديم أريستوفانيس ، شخصية كثيرة الشكوى ، رجل تعود أن يرفع كل شكاواه إلى القاضي . وذات يوم اختطف كلبه قطعة جبن من البيت ، فرفع شكوى ضد الكلب إلى محكمة " خاصة " شكلها ولده في البيت ، وسيق الكلب إلى المحكمة متهما . كان الابن يريد علاج والده من مرض التوجه إلى المحاكم .

المسرحية ساخرة . . تسخر من النظام القضائي الذي فتح أبوابه للشكّائين المحترفين .

المهم أن الشهود الذين استدعاهم الكلب المسكين في تلك المحكمة البيتية كانوا عبارة عن أدوات المطبخ .

هذه المسرحية عرضت على المسرح في كايمبردج بإنجلترا عام ألف وتسعمائة وتسعة ، وكتب الموسيقى المرافقة لها الموسيقار الإنجليزي رالف فون وليامز .

نستمع الآن إلى القطعة المرافقة لدخول أدوات المطبخ إلى المحكمة .

(فون وليامز ، دخول أدوات المطبخ : أسطوانة 35 ، تراك 3 ، كاملاً ، 3 دقائق و26 ث)

عزيزي المستمع، (ثمة مركب مقلع للتوّ إلى نيويورك)،

There is a boat , that's leavin' soon for New York

هيا معنا لنستمع إلى هذا اللحن من ألحان (جورج غيرشوين) الأمريكي في أوبراه اليتيمة بورجي وبس. نستمع إلى اللحن بدون الكلمات في هذا التسجيل:

<u>(أسطوانة 30، تراك 11، من 2.33 إلى النهاية، الطول 3 دقائق و20 ث)</u>

<u>(التعقيب):</u> موسيقى جورج غيرشوين،

ونستمع الآن إلى الحركة السريعة (Scherzo) من سمفونية روبرت شومان الثالثة.. السمفونية الراينية كما سمّاها/ نسبة إلى نهر الراين.

ذهب شومان إلى دوسلدورف وتسلم المنصب الذي طالما حلم به: قائداً للأوركسترا.

كان قلبه مفعماً بالتفاؤل، وفي ذلك الجو كتب السمفونية الراينية، وفي الحركة السريعة منها اقتبس لحن أغنية شعبية ألمانية على عادة الموسيقارين الكلاسيكيين الذين لا يروْن ضيراً في بناء أعمالهم الموسيقية استناداً إلى ألحانٍ شعبية.

بقبوله منصب قائد الأوركسترا كان شومان قد سار في الطريق الخطأ، فهو مؤلف عبقري لكنه ليس قائد أوركسترا ذا بال، وفشل شومان. وانقلب كل السرور الذي شعر به عندما قدم إلى دوسلدورف، الواقعة على نهر الراين إلى حزن، وفي نهر الراين حاول الانتحار، ألقى بنفسه في النهر، ولكنهم انتشلوه، وأودعوه مصحة عقلية مات فيها بعد سنتين.

كنت ذات يوم في فسّلنج على الراين وهي تبعد كيلومترات قليلة عن دوسلدورف، ورأيت الراين يسير هادئاً كأنه لا يسير، كلما تذكرت تلك الإقامة القصيرة تجلّت في أذني السيمفونية الراينية.

عندما أتذكر هذا النهر العريض الذي ينساح صامتاً نحو الشمال، أسمع في ذهني الآت التشيلو والفيولا والباسون وأصواتها تترقرق بألحان حركة الشيرتسو السريعة.

هذا اللحن هو عندي أجمل ما كتب روبرت شومان.

<u>(الراينية، الحركة السريعة، شومان: أسطوانة 3، تراك 6، كاملاً)</u>

(التعقيب) : وبهذه الموسيقى من سمفونية روبرت شومان الثالثة/ الراينية نأتي إلى ختام هذه الحلقة من برنامج : همس وضوضاء .

حلقة من برنامج همس وضوضاء الذي أذيعت حلقاته الأربع والخمسون في عامي **2004** و **2005** .

- الفصل الرابع -

الإذاعة كلمة

يتعوّد المذيع على طريقة في الكتابة يشقى بها. يتعوّد على الجمل القصيرة التي ليس بينها روابط مثل الفاء والواو وحيث وبما أن. فهو يصنع الربط بصوته. عندما يلقي نصه على الميكروفون يغير نبراته بشكل يضمن للمستمع أن يفهم. ثم يأتي المذيع منا ليكتب مقالاً، أو ليؤلّف كتاباً. فيكتب النص ثم يعود إليه، فيدرك أن القاريء لن يفهم بسهولة ولن يقرأ بسلاسة، ويحاول قدر استطاعته مستعملا الفواصل والنقط أن يجعل النص قابلاً للقراءة.

يكتب المذيع بطريقة صائتة لا تعجب الكثيرين، يكرر كثيراً ويأتي بالأمثلة الكثيرة. لكنه من ناحية أخرى يدرك أن التطويل ممل. فلا يختار أن يفصّل أفكاره تفصيلاً في صفحات كثيرة، بل يكتفي برؤوس الأفكار، وأطراف الموضوعات.

لكنّ العمل في الكتابة الإذاعية مفيد. فالمذيع يخرج منه وقد كفر بكثير مما ينشر في الصحف. قضيت زمناً أقدِّم برنامجا إذاعياً أعرض فيه ما جاء في الصحف. كنت مضطرا إلى إيجاز المقال الطويل في فقرة من خمسين كلمة. واكتشفت بعد حين أن المقال الذي يملأ نصف صفحة من الجريدة يمكن دائما تلخيصه في خمسين كلمة، إذ ليس فيه من الأفكار ما يستحق خمسين كلمة. اكتشفت أن كتّاب الصحف مسرفون في الثرثرة إسرافاً شديداً. وعندما بدأت أدرّس الإعلام، وأعلِّم الطلبة كيف يقدِّمون برامج عرض الصحف اضطررت لاختراع شيء سميته (نظرية التكثيف).

<u>نظرية التكثيف:</u> ابتدعت هذا الشيء الذي أسميه نظرية قبل نحو ست سنوات. وتخليت عنه قبل سنتين أو ثلاث. ثم أعدتُ إليه الاعتبار بسبب حادثة مرت بي. وسأقص عليك حادثتين لا حادثة، وبينهما قاسم مشترك هو بيروت.

الحادثة الأولى: شاركت في مؤتمر بالجامعة اللبنانية الأميركية في بيروت قبل نحو سنتين، وألقيت كلمة عن موضوع إعلامي. وكانت كلمتي صفحتين ونصفاً. قلت ما أريد بمنتهى الدقّة والاختصار والبساطة، والصراحة أيضاً. وجاءتني صحافية تعمل مع جريدة لبنانية بُعيد انتهاء الجلسة وطلبت مني نص كلمتي حتى تقتبس منها في تقرير للجريدة عن المؤتمر.

في اليوم التالي فتحت الجريدة، ورأيت في التقرير المنشور عن المؤتمر فقرتين عن أفكاري النيّرة. وملخص الفقرتين أن الإعلام شيء مهم، وأن القضية الفلسطينية مهمّة، الخ. كلام عام باهت. لقد كتبت الصحافية من عقلها أي شيء. كتبت عبارات مفرطة في العمومية ومضحكة لخلوّها من

أي فكرة. والأنكى أن ما كتبته لم يكن مما قلته أنا. شعرت بحزن هادىء على الصحافة في بلادنا. ومضت سنتان.

الحادثة الثانية: قبل شهر من كتابتي هذه الأسطر، وأنا أكتبها في كانون الثاني/ يناير **2006**، حضرت مؤتمرا آخر في بيروت بدعوة من المجلس الثقافي البريطاني. وقدّمت ورقة استغرقت تلاوتها أربع عشرة دقيقة. كانت أطول قليلاً من الورقة التي تلوتها قبل سنتين. وبعد انتهاء الجلسة جاءتني صحافية مصرية وطلبت الكلمة. فأعطيتها نص كلمتي. وبعد أيام رأيت ما نشرته في صحيفة الأهرام ويكلي عن المؤتمر. وقد رأت أن تكتب عن كلمتي فقرتين، أيضا، جاءتا في وسط التقرير. لقد استطاعت الصحافية فاطمة رجب، وهذا هو اسمها، أن تقدِم لقرائها في فقرتيها زبدة كلامي. جعلتني أتعجّب من قدرتها على اقتناص روح المعنى. وقد اقتبست من كلمتي بضعة أسطر مع استخدام علامات التنصيص، وكان اقتباسها بارعا. عدت أفكر في نظريتي عن التكثيف. لقد أشعرني صنيع فاطمة رجب بقوة الكلمة. وراء فقرتيها تينك ثمة فكر كثير وفهم كثير، وقدرة على التلخيص دون إخلال. وما الصحافة إن لم تكن معرفة الأهم؟

<u>التكثيف والإذاعة:</u> بداية التكثيف الحذف. فالخبر الذي يتحدث عن وداع الرئيس لضيفة الكريم يحتاج فقط إلى أن يحذف. وبعد أن يعرف الإذاعي الأشياء الجديرة بالإهمال التام، يأتي إلى المهمة الأصعب التي تتمثل في اقتناص الفكرة المهمة.

التكثيف ضروري للإذاعة أكثر مما هو ضروري للجريدة، أو للتلفزيون. فقارىء الجريدة قادر على أن يمسح الصفحة بنظره ويختار منها ما يعجبه، وقادر على أن ينزلق بعينيه عن الأسطر الفارغة ليصل إلى العبارات الجوهرية. ومُشاهد التلفزيون عنده صورة تسليه، وهو يجلس أمام التلفزيون ساعات طويلة. أما المستمع إلى الراديو فهو ملول جدا. ولن يسمح لك بالثرثرة طويلاً في انتظار أن تقول شيئا مفيدا أو مسلياً.

لكنّ ما نقصده بالتكثيف ليس الاختصار المطلق. لا بل نحن نطالبك بأن تكرر أشياء كثيرة في الراديو. نريد منك أن تكرر موجز الأنباء في ذيل النشرة. ونريد أن تشرح بعض الأمور حتى نستوعبها، فالكلمة في الراديو تذهب في الهواء فوراً بخلاف كلمة الجريدة التي يمكننا أن نقرأها مرتين إذا كانت ملتوية. التكثيف هو القدرة على اكتشاف الأهم، وإعطاؤه للمستمع في أوضح صورة، وتنحية ما هو أقل أهمية. وهذا يتطلب قدرة ومهارة ومعرفة.

<u>الكلمة المنطوقة:</u> بعد أن تعثر على ما هو مهم، وتستخلص أهم المهم لمستمعيك، يبقى عليك أن تلقيَه على الميكروفون. الصوت الجميل مطلوب. ولكنّ الإلقاء المعبّر هو الأهم. خذ كلمة (يا

حبيبي) : إنك تستطيع أن تقولها باستهزاء، أو بحب، أو بمداعبة، أو بغضب، أو باستغراب. يمكن لك أن تقول كل كلمة من كلمات اللغة بأشكال مختلفة. يمكنك أن تحمّل الكلام مشاعر كثيرة. قد يجعل إلقاؤك المستمع يفهم القصة وينغمس فيها أكثر مما لو قرأها مطبوعة. صحيح أن بعض واجبات المذيع، كقراءة نشرة الأخبار، تقتضي منه عدم الإفراط في التعبير. ولكن حتى هذه الأمور تحتاج إلى أن تُقَدّم بفهم. والقاعدة هنا هي: أن المذيع الفاهم يستطيع أن يُفهِم المستمع. والمذيع الذي يقرأ بشكل أوتوماتيكي يُتعب المستمع. وفي العمل الإذاعي أشكال كثيرة من النصوص التي تحتاج إلى أشكال مختلفة من الإلقاء.

للمذيع بعض الحيَل المفيدة: عرفت مذيعا يكثر من التنهد، وآخر يطيل أحرف العلة كخطباء المساجد، وثالث يملأ الفراغات بكلمة آآآء. كل تلك من أساليب كسب الوقت. والمذيع المستعد الذي أعدّ نصّه جيدا لا يلجأ إلى أساليب اصطناعية. بل هو يخلق النصّ خلقة جديدة، ويكسوه وضوحا وحيوية. المذيع المبتديء يسرف عادةً في (التلوين)، أي تغيير نبرة الصوت، لمجرد التنويع، أما المذيع القدير فيستعمل كل شيء بالقدر المعقول.

<u>المذيع والنصّ:</u> في هذا الفصل مقال عن المادتين الأساسيتين اللتين تكوّنان الإلقاء الإذاعي: الصوت والصمت. وفيه حوار إذاعي أدبي مكتوب لصوتين. وفيه تمرين على التحكم بالكتابة والكلمات. وفيه نماذج من أحاديث إذاعية كنتُ قدّمتها، وتمثيليتان إذاعيتان: واحدة بالفصحى وأخرى بالعامية.

لا تهولنّك، عزيزي القاريء، كثرة النصوص في هذا الكتاب. فما المذيع إن لم يكن صاحب نص؟ النص هو المضون، هو الذي يجعل مهنة المذيع محترمة. ولئن كنت ترى عشرات المذيعين ممن لا يكاد الواحد منهم يفك الحرف، فاعلم أن هذا سبب مهم لانحطاط مهنة المذيع في بلدنا. المذيع ليس لسانا ذلقاً سريع الطلقات، ولا هو آلة صوتية تحول الأحرف المكتوبة إلى كلمات مسموعة.

يستطيع مذيع قدير من خلال سؤال قصير يوجهه لضيفه في الوقت المناسب أن يقنعك ويشفيّ غليلك. وبالمقابل يأتيك مذيع خائب فيقدّم لضيفه سؤالاً من سبعة أسطر يحتوي على كل شيء في الدنيا: فيه مقدمة وفيه آراء المحللين والخبراء، وفيه عرض موجز لتطورات الأزمة الأخيرة، وفيه ثلاثة أرباع الجواب، وفيه رأي شخصي، وفيه أخيراً عبارة: فما تعليقكم؟ وأنت إذ تسمع هذا الهراء تحزن على الضيف المسكين الذي لم يبق له مجال للجواب. فهو قد نسي السؤال، أو أنه لم يعرف ما هو السؤال. وهو يريد أن يفند الكثير من النقاط التي قالها المذيع.

المسألة ليست بالكم. والحذاقة ليست في طول السؤال، بل في قصره.

صوت وصمت

الإلقاء الإذاعي

من هو الذي يقرأ بسرعة وبدون أي فترات صمت؟ التلميذ في المدرسة وهو خائف من أستاذ سيء .

من هو الذي يقول جملا متتالية واحدة بعد الأخرى ، دون صمت متفاوت الطول؟ الأحمق .

من هو الذي يرسم صورة بلونين فقط : الصوت والصمت ، وتكون مريحة للأذن ، ومعبرة؟ المذيع .

الصمت الذكي يحتاج إلى تدريب طويل ، وإلى الاستماع إلى الذات ونقد الذات . الصمت الذكي لا يقاس بالثواني وأنصافها ، بل بالقدرة على تلوين الوقفات وجعل كل منها ذاتَ شخصية مختلفة ، وبالقدرة على التحكم في النفَس وتصريفِه بشكل مريح . فالوقفة الخطأً تفضح المذيع وتظهر قلة فهمه للنص ، واضطراب النفَس يشير إلى أن المذيع لا يتحدث بشكل طبيعي .

الكلام الذكي يحتاج إلى إتقان مخارج الحروف على أحسن وجه ممكن ، وإلى عدم بلع الحروف ، وإلى رفع الصوت بالشكل الملائم لطبيعة الميكروفون ، وعدم الخروج بمستوى الصوت عما هو مريح للأذن ، وللأجهزة ، علوّا أو انخفاضا .

إليك هذا النص بلغة ربما تكون غريبة عنك ، الرجاء إلقاؤه إلقاء ميكروفونيا :

(كاخ آضي بيللا سوف "كاخ سام . . سوتهاف" ؛ أوترام قاب سوف . لاجوت غيلام كاخ؟ مونيوم موقيما هولريف ، أونقيلاب عوقلاه .)

المذيع الجيد صاحب الصنعة يستطيع أن يقرأ هذا الكلام بلهجة مقنعة . مع أنه لا يفهم منه شيئا ، ولا يستطيع إفهام المستمع شيئا . إنه يستغل الوقفات الإذاعية المختلفة ، والصمت ، والتنفس المعبر . كل ذلك يجعله يصنع من هذا الهراء قطعة صوتية-صمتية لو سمعها سامع شارد الذهن لحسبها شيئا له معنى .

العبرة من المثال : هناك آلية للإلقاء تجعلك تحول حتى الهراء إلى لوحة مرسومة بالصوت والصمت مقبولة في الأذن .

خذ قطعة أسهل:

الأرقام بين الأقواس تشير إلى طول الصمت بالثواني. (انتبه: في نهاية النص تطول الوقفات تمهيدا للختام)

عندما نطق القاضي بالحكم [2]: "الإعدامْ [1] رميا بالرصاص" [1] خيم الصمت على القاعة. [1] حتى المتهم كان صامتا، [2] ثم ارتخت مفاصلُه [1] وهبط على مَقعده. وفجأة [2] دوّت زُغرودة. [3] إنها أم الشاب المحكوم، [4] لقد أصيبت بالجنون.

اللونان كلاهما اللذان نرسم بهما اللوحة الإلقائية: الصوت والصمت، يحتاجان إلى فهم النص.

عنصر آخر يمكن للمذيع من خلاله أن يزيد في شخصية إلقائه: إطالة وتقصير أحرف العلة. وتغيير نغمة الصوت أثناء النطق بأحرف العلة.

العناصر كثيرة. والصوت يفصح عن الشخصية كثيرا، ويمكنه أن يحمل شحنة تعبيرية كبيرة، إذا أراد المذيع ذلك؛ لكن المبالغة سيئة. ما أسوأ المذيع الذي عرف آليات الإلقاء ثم راح يستعملها بإفراط!

الصمت يكون بين الجملة والجملة، ويكون بين الكلمة والكلمة، ويكون في وسط الكلمة نفسها بين الحرف والحرف، والصمت أيضا يكون في وسط الحرف نفسه بإطالة حرف العلة.

تمرين أطول: فيما يلي قطعة قدمها على الميكروفون مذيع قبل أن يختم الإرسال: (لاحظ وجود انتقالات فجائية من لون إلى لون: من عرض برامج إلى حكمة إلى قصة إلى شعر. المذيع يجب أن يتقن الانتقال من حال إلى حال.)

[كانت هذه سيداتي وسادتي نهايةَ نشرتِنا الإخباريةِ الأخيرة. لكنّ إرسالَنا مستمر طولَ الليل بالغناء والموسيقى.

عشرُ دقائق بعد منتصف الليل. يومُنا الجديد في إذاعة (أخبار وموسيقى) يبدأ في السادسة صباحا، حيث نقدم الأخبار، يليها القرآنُ الكريم. وفي السادسةِ والنصف نقرأ عناوينَ الصحف، ثم نقدم برنامج "مع المزارع". في السابعة إلا الربع حالةُ الطرق: حيث يوافينا مراسلونا في رام الله والقرى المجاورة بتفاصيلَ عن الحواجزِ وأوضاعِها. وبعد نشرة السابعة نقدم "البرنامج الإخباري" وفيه لقاءاتٌ مع المسؤولين والمواطنين وتقاريرُ إخباريةٌ من الوكالات والإنترنت. يستمر البرنامج حتى الثامنة.

أعزائي المستمعين، تسمعون الآن أغنياتٍ منوعة. (أخبار وموسيقى) معكم أربعاً وعشرين ساعة.

عزيزي المستمع، في الليل أسمع صوتا يهتف في أذني، ويقول: إذا كنتَ فرحاً، فتذكرْ أن العالمَ مليءٌ بالمحزونين. وإذا كنت حزينا فتذكرْ أن الذي خلقَ الإنسان، يستطيعُ أن يكشفَ عنه الهمّ. فلتكنْ ثقتُكَ بالله كبيرة.

قرأت في كتاب قديم قصة عن أحد المتمردين المخالفين للسلطان، يقول هذا المتمرد:

" ساقني حارس ضخم الجثة إلى مجلس الملك لكي تُضرَبَ عنقي بالسيف. وكان الحارس يُمسِكني بذراعه القوية، وأنا لا أقوى على المشي، وأكاد أسقط من الجزع والخوف.

قال لي الحارس: ويحك! لتكنْ ثقتُك بالله كبيرة. فعادت إلي نفسي. ودخل قلبي خاطر كأنه نسْمة من نسائم الجنة، فتبسمتُ وسلّمت أمري إلى الله. وسرت معه رافعا رأسي. وفي مجلس الملك رأيت رؤوس أصحابي متناثرة في وسط المجلس بعد أن قتلهم جلاد الملك، ولكني والله لم أجزع ولم أخف. لقد امتلأ قلبي ثقةً بالله. ورأى الملك ثباتي، ورباطةَ جأشي، فأخذ يتحدث إلي بفظاظة، ويتوعدني بالقتل الوشيك حتى ألحَقَ بأصحابِي. وما زادني كلامُه إلا ثقةً بخالقي. وازداد الملكُ غيظا، وأقسمَ بالله ألا يتركَ مجلسَه إلا بعد أن يقتلَني. وفجأة ارتفع صوت المؤذن. فأمر الملك الجلاد بأن يهيئَني للموت، ثم قام للصلاة. وفي سجوده.. هجم عليه رجل بخنجر مسموم فقتله. وخرجت من سجني بعد يومين. "

عزيزي المستمع.. خفف عنك، واملأ نفسك.. ثقةً بالله.

يقول الشاعر:

لو أني أعرف أن البحر عميق جدا ما أبحرت

لو أني أعرف خاتمتي.. ما كنت بدأتْ

الشعر لنزار قباني، واللحن لمحمد الموجي. نستمع إلى عبد الحليم حافظ.. "ورسالة من تحت الماء"]

هذا المقال تدارسته مع طلبة الإذاعة والتلفزة في السنة الرابعة من التخصص في جامعة بيرزيت، ويعود لعام 2002.

وضّاحُ اليمن

فيما يلي نص موزعٌ بين صوتين . المطلوب : تحضيره جيدا وتقديمه أمام الميكروفون من قبل شخصين . احرص على أن تَسْمَعَ زميلَك وعلى أن تفهَمَ منه ، وعلى أن تؤديَ حسب المعنى ، أي بتلوين الصوت حسبما يقتضي المعنى ، لكن دون المبالغة في ذلك .

معايير النظر إلى جودة الأداء في هذا التمرين :

1) صحة اللغة . 2) سلامة النطق بالحروف . 3) دع عينك تسبق لسانك . 4) افهم المادة أثناء الأداء . 5) قلة التلعثم . 6) أنت تأخذ من زميلك وتعطيه بسلاسة . 7) لا يوجد عندك تلك القفلات المدرسية الرتيبة . 8) عند نشوء حاجة إلى أداء مسرحي فأنت تلبيها . 9) أنت تستمتعُ بالنص ، وتجدُ في إيصاله للمستمع ، ولا ترميه رميا لتتخلص منه . 10) عندما أسمعك أَنسى أنك تقرأ عن ورقة .

هذه عشر نقاط . كان يمكن أن تكون خمسا ، أو عشرين . عددها ليس مهما . وتفصيلها في نقاط ليس مهما . لا تحفظها ، لكن تابعها واجعلها دائما نصب عينيك .

(موسيقى الإشارة)

1 : حكاياتُ الشعراء .

2 : برنامَجٌ أدبيّ . كتبه . . . .

1 : ويقدمُه: . . . . و . . . .

(الموسيقى تعلو لمدة 10 ثوان)

2 : وضّاحُ اليمن

(الموسيقى تعلو وتستمر 10 ثوان ثم تذوب في النص)

1 : عاش وضّاحُ اليمن في العصرِ الذهبيِّ للدولة الأموية .

2 : وحكايتُه حكايةٌ غريبة، رواها أبو الفرجِ الأصفهاني في كتاب الأغاني.

1 : وهو بدوره نقلها عن كتاب قديم اسمه (كتابُ المغتالين)، ألّفه محمّدُ بنُ حبيب.

2 : وضاحُ اليمن.

1 : كان من أجمل خلق الله. ويحدثنا أبو الفرج عن ثلاثةٍ من شعراءِ العرب كانوا لا يأتونَ الأسواقَ والمحافلَ إلا متلثّمين حتى لا يحسُدَهمُ الحاسدون لشدة جمالِهم.

2 : وهؤلاء هم: المقنّعُ الكِنْدِيّ، وأبو زُبيدٍ الطائيّ. .

1 : ووضّاحُ اليمن.

2 : كان وضّاحُ يتعشّقُ امرأةً اسُمها روضة. وله فيها قصيدةٌ مرحةٌ ومشهورة:

(تبدأ موسيقى ناعمة وتستمر تحت القراءة)

1 : قالت ألا لا تلِجَنْ دارَنا — إن أبانا رجلٌ غائرُ
2 : قلتُ فإني طالبٌ غِرّةً — منه، وسيفي صارمٌ باترُ
1 : قالت فإن القصرَ من دونِنا
2 : قلت فإنّي فوقَه ظاهرُ
1 : قالت فإن البحرَ من دونِنا
2 : قلت فإني سابحٌ ماهرُ
1 : قالت فَحَوْلي إخوةٌ سبعةٌ
2 : قلت فإني غالب قاهر
2 : قالت فإن اللهَ من فوقِنا
2 : قلت فربي راحم غافر
1 : قالت لقد أعيَيْتنا حُجّةً — فأْت إذا ما هجع السامر
فاسقُطْ علينا كسقوط الندى — ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجرُ

(الموسيقى نفسها تعلو 10 ثوان تقريبا)

2: ويقول صاحب الأغاني إن روضةْ، محبوبةَ الوضّاح، أصيبت بمرض الجُذام الخطرِ المُعدي فعزلها أهلُها عن البشر، فكان الوضّاح يزورها ويحسنُ إليها.

1: وسَرعانَ ما استهوت الوضّاحَ امرأةٌ أخرى..

2: وليست كأيّ امرأة..

1: كانت زوجةَ الخليفة وابنةَ عمه..

2: إنها أمُ البنين زوجةُ الوليدِ بنِ عبدِ الملك..

1: كانت تحج ذاتَ عام، فرأت وضّاحَ اليمن وعشقتْه..

2: ثم صار يزورُها، ويجلسُ إليها، ويُنشِدُها أشعارَه متغزلاً فيها..

1: ولا يبدو أنه كان بينهما أكثرُ من ذلك..

2:.. وذاتَ يوم..

(موسيقى لمدة 10 ثوان تقريبا)

1: جاء الوضّاح لزيارة أمّ البنين، وجلسَ عندَها في خيمتِها في غُوطة دمشق ينشدُها شعرَه..

2: قُرَشيّةٌ كالشمسِ أشـــرقَ نورُها ببهائها
زادَت على البيضِ الحسانِ بحسنِها ونقائها

(الموسيقى تعلو لعشرين ثانية تقريبا)

1: وبينما هما كذلك إذا بخادم يترجلُ عن فرسه. أستأذنتْ له الوصيفة.. فدخل على زوجة الخليفة.. والشاعرُ عندَها. ووضع بين يديْها عِقدا من الجوهر الثمين..

2: وقال لها "مولاتي.. بعثني أميرُ المؤمنين بهذا العقدْ، لعله أن يعجبَك." ورأى الخادمُ الشاعرَ جالسا على أريكةٍ في ناحية من الخيمة، فطمعَ، وأراد أن يبتزّ امرأة الخليفة.. "ألا تَهَبُني مولاتي جوهرةً من هذا العِقد؟"

1: "جوهرةً من العقد؟ اذهب من فورك إلى أمير المؤمنين، واشكره بلساني. وقل له أن لا يرسلَك مرة أخرى إليّ."

2 : انصرف الخادم وقد حقد على زوجة الخليفة. وأتى مجلسَ الخليفةِ الوليد وأخبرَه بما شاهد ورأى.

ولعل الخليفةَ أدرك أن العلاقةَ بين امرأتِه وبين وضّاح اليمن علاقةٌ بريئة . . ولكنّ الغيظَ استولى عليه. فركب من فوْره إلى الغوُطة . . واستأذَنَ على أم البنَين.

1 : احتارت امُ البنين، ونظرت حولها فوقعت عينُها على صندوقِ ثيابها. فقالت لوضّاح اليمن: هيا اختبيءْ في الصندوق . .

2 : ثم دخل الخليفة . . وأجال نظره في أنحاءِ الخيمة فما رأى أحدا . . ثم لمح الصندوق . . فجلس عليه. وأخذ يحدث زوجتَه: "طال اشتياقي إليك، وإنك لتقيمينَ في هذه الخيمةِ وحيدةً، بعيداً عن مباهج الشام. "

1 : ثم أخذ الخليفةُ يتمشّى في الخيمة، وعاد إلى الصندوق وجلسَ عليه مرة أخرى وهو يقول: ماذا تضعينَ في هذا الصندوق؟ فقالت له: ثيابي وحوائجي . .

<u>(موسيقى لمدة 10 ثوان)</u>

2 : "لم أسمع منك حتى كلمةً واحدة . . "

1 : "عن أي شيء يا أميرَ المؤمنين . . "

2 : "أما أعجبكِ العِقدُ الذي بعثتُ به إليكِ قبلَ ساعةٍ من الزمن . . "

1 : "لا أدري كيف نسيتُ أن أشكرَكَ عليه، عِقدٌ بديع . . "

2 : "ألا تهدينَني هدية؟ شيئاً مما عندك في هذه الخيمة. "

1 : "أنا والخيمةُ مِلْكُ أميرِ المؤمنين. "

2 : "أريدُ هذا الصندوقَ. "

1 : "فيه ثيابي وحوائجي . . "

<u>(موسيقى 10 ثوان)</u>

2 : وأصرّ الوليدُ على هذه الهدية التي اختارَها لنفسه. وأخذ يضربُ بكفِّه على الصندوق متعجّبا

من حُسْنِ صَنْعتِه . . ثم أمرَ رجالَه فحملوا الصندوقَ إلى البستان . وهناك جلس الوليد بنُ عبدِ الملك على الصَندوق وأمر رجالَه فحفروا حفرةً في الأرض عميقة . ثم وقف إزاءَ الصُندوق وقال : " قد بَلَغَتْنا أشياءُ ، لَم نصدِّقْها . فإن كانت حقاً فقد كفَّنّا وَدَفَنّا . وإلاّ فقد دفنّا الخشب . " وأمر بالصندوق فأُنزِلَ في الحفرة ، وأُهيل عليه التراب . ولم يشاهَدْ وضّاحُ اليمن بعد ذلك أبدا .

(موسيقى)

1 : كانت هذه حكايةَ . . وضّاحِ اليمن . .

كتب النص : . . . . . .

2 : وقدمه . . . . و . . . .

هذا نص شبه تمثيلي عن قصة الشاعر الأموي وضّاح اليمن كما وردت في الأغاني . يؤدي النص صوتان : ويفضل مذيع ومذيعة . وفي بدايته ملاحظات تتعلق بالإلقاء .

قصة وضاح اليمن في 50 كلمة

عشق الشاعر الوسيم وضاح اليمن زوجة الخليفة ، وذات يوم زارها في خيمتها الصيفية لينشدها شعره . عرف الخليفة بالأمر ، فذهب مسرعا للخيمة . فاختبأ وضاح داخل صندوق خشبي . دخل الخليفة الخيمة ووقع نظره على الصندوق ، فأمر رجاله أن يأخذوا الصندوق إلى الحديقة حيث دفنوه دون فتحه . وكان ذلك آخر العهد بوضاح اليمن .

قصة وضاح اليمن في 40 كلمة

زار وضاح اليمن زوجة الخليفة في خيمتها الصيفية لينشدها شعره. عرف الخليفة بالأمر، فتبعه. فاختبأ وضاح قبل وصول الخليفة في صندوق خشبي. دخل الخليفة الخيمة ورأى الصندوق، فأمر بالصندوق فدفن في الحديقة دون فتحه. وكان ذلك آخر العهد بوضاح اليمن.

قصة وضاح اليمن في 30 كلمة

عرف الخليفة أن وضاح اليمن موجود عند زوجته بخيمتها فداهمهما. ولكن وضاحا اختبأ بصندوق. دخل الخليفة خيمة زوجته وانتبه للصندوق، فأمر بدفنه بمن فيه دون فتحه. واختفى وضاح اليمن للأبد.

أخيرا: هل تريدها في عشرين؟ هاك:

أحس الخليفة أن زوجته تخفي زائرا. داهمها. نظر حواليه فرأى صندوقا. فأمر بالصندوق فدفن في الأرض بمن فيه، دون فتْحه.

العبرة: أيها الصحافي اعرف أن للكلمة قيمة، ولا تفرط في استخدام الكلمات إلا إذا كانت تعبر عن أشياء جديدة أو تصور أجواء، وتزيد من الدراما في القصة. في الأمثلة السابقة المثال الأول هو الأفضل. لأن فيه معلومات أوفى، وهو يحتوي على التشويق والتسلسل الصحيح. وفي كل مرة يتم إنقاص عدد الكلمات يخسر النص من حلاوته وتسلسله قليلا، لكنه يبقى متماسكاً. أنت تحترف الكلمة، وعليك أن تتعلم التصرف فيها. أشتهي أن أطلب منك حفظ الأمثلة السابقة غيبا. ولكن نفسي لا تطاوعني. لا تحفظها. لكن، افهم الطريقة حتى تصنع الشيء نفسه في نص آخر. على الأقل احتفظ بهذه الورقة.

هذا من التمارين التي أعطت نتيجة حسنة جدا. بعد أن يستمع المذيع المتدرب إلى قصة وضاح اليمن بكل تفاصيلها (أنظر القصة في النص السابق)، يُطلب منه أن يكتب القصة كاملة في خمسين كلمة فقط. سيحتج المذيع المتدرب، وسيعلن بكل ثقة أن الأمر مستحيل. لكنه طبعاً سيكتشف العكس. وبعد إنهائه الكتابة، سيكتشف المدرب المشكلات المختلفة: ومنها التركيز على تفاصيل لا تخدم الخط الأساسي في القصة، وافتراض أن المستمع يعرف أشياء معينة، واستعمال جملة طويلة كان يمكن الاستعاضة عنها بكلمتين. الخ. عندئذ يعطي المدرب المذيع النص المثالي كما هو أعلاه. ثم يطلب منه كتابتها في أربعين كلمة من باب التحدي، وتتكرر الحكاية.

غلط غلط

ليس عندها دم

عزيزيَ المستمع، طَرَشْتُ جدرانَ بيتي باللونِ الأبيض. طبعاً ستظنُّ أن هذا كان حبّاً في النظافة! ظُنّ ما بدا لك. وأنا أحبُّ أن أتركك لظنونك، وألاّ أتدخلَ في تفكيرِك. ولكنّ السببَ الحقيقيّ هو أنني أحبُّ أن أرى الأعداءَ عندما يقفونَ على جدرانِ البيت.

وعدوّيَ الأكبر.. البعوض.

تأتيكَ البعوضةُ وأنت تدخلُ في النوم دخولاً هيناً، وتطِنُّ في أذنك. وتقومُ أنت لكي تلاحقَها، وتضيءُ الغرفةَ وتبدأُ البحث.

لن تجدَها. فهي نحيفةٌ وشفّافة. وإن وجدتَها فلن تصيدَها لأنها خفيفةٌ ورشيقة. عليك أن تنامَ مرةً أخرى. أُرقُدْ في فراشِك وتظاهرْ بالنوم. ستأتيك البعوضةُ مرةً أخرى، وستلسعُك. لا تتحركْ، وتحمّلِ اللسعة. اكشفِ الغِطاءَ، واكشفْ من جسمك أكبرَ جزءٍ ممكن. واتركْها تلسَعْك عدةَ مرات.

الآنَ أَضيءِ الغرفةَ من جديد. صارت البعوضةُ كبيرةً وغيرَ شفافة بعدما ملأتْ بطنَها من دمك؛ وصارت ثقيلةَ الحركة. فتّش ببصرك على الجدرانِ من حولِك ولا سيّما قربَ السرير، وستجدُها. أَمسِك بيدِك مجلّة، وتوكّلْ على الله. ثم نمْ بعد ذلك.

ستكتشفُ أن في الغرفة عشراتِ البعوضات.

كرّرِ الحركةَ الأولى. وبعدئذ ستنامُ مهدوداً من التعب.

البعوضةُ شفافةٌ لأنه "ليس عندها دم". وهي تعيشُ على مصّ دمك مثلما يعيشُ كثيرٌ من الموظفين. لكنّ أولئكَ الموظفينَ ليسوا شفّافين. وكما أن التخلصَ من البَعوض باصطيادِه لا يأتي بنتيجة، إذ لا بد من النظافة ومن تجفيف المستنقعات أيضاً قبل التخلّصِ الحقيقيّ منه، فإن معالجةَ الفسادِ باصطيادِ حالاتٍ فرديةٍ يتركُ الجدارَ ملوّثاً ولا يحُلُّ المشكلة.

ثم إن الاصطياد يتعب القلب. إنه.. غلط غلط.

النجار الطروب

عزيزي المستمع، لي جارٌ عوّاد يشتغل نجاراً، يغني فقط لفريدِ الأطرش. ويغني فقط لنفسه. أسمعُ صوتَه جميلاً مطرباً يأتي من بعيدٍ في ليالي الصيف. فإذا زرتُه، جلسنا وشربنا الشايَ وتحدثنا. ولكنْ. . لا غناءَ ولا عزف.

ذاتَ مرةٍ قال لي: أنت غريبُ الأطوار. لماذا لم تطلبْ مني أبداً أن أعزفَ أو أغنيَ لك. قلت له: لا أظنُّك تفعلْ. قال لي: صحّ، واللهِ صح. لكنْ مع ذلك. . كلُّ الناس يطلبون مني وأردُّهم خائبين، ولا ألبّي طلباتِهم. أما أنت فلم تطلبْ قط. قلتُ له: واليومَ لن أطلب. لكنْ. . لماذا ترفضُ أن تغنيَ وتعزفَ للناس؟ قال لي: فعلتُ ذلك في أيام الشبابِ مراتٍ قليلةً، واكتشفتُ أن الناسَ لا تُحْسنُ الاستماعَ أبداً. يريدون منك أن تعزفَ وتغنيَ حتى تتيحَ لهم همْ الفرصةَ كي يغنّوا. ما إن تبدأُ بالغناء حتى يرفعوا أصواتَهم بنهيقٍ بشع ويرافقوك، وتعلوَ أصواتُهم على صوتك. وإذا غنيتَ لهم أغنيةً لا يعرفونها ينصرفون عنك ويبدأونَ بالحديثِ والتنكيت.

ثم تنهدَ صاحبي، وشكا شكوى مرةً من قلةِ ذوقِ الناسِ ومن فسادِ حسّهم في الموسيقى.

ثم نظرَ في وجهي نظرةً ذاتَ مغزىً، وقال: ماذا تريدُ أن تسمع؟ قلت له: أريد أن أسمعَ شريطاً تضعُهُ في المسجل. أيّ شريط، لا يهُمّ.

امتُقِعَ لونُه، وفوجيء. كان يظنُّ أنه قد منحني شرفاً عظيماً إذ قَبلَ أن يغنيَ أمامي. ولكنه لم يكنْ يعرفُ أنني أُشبهُهُ في هذه الناحية. فمثلما يكرهُ هو أن يغنيَ للناس، أكرهُ أنا أن أسمعَ أحداً يغني أمامي.

وضعَ جاري العزيزُ شريطاً في المسجل، وعاجلني بقهوةِ "مع السلامة".

وكان الفنجانَ الأخير.

لم نعدْ نتزاور.

أنا أعتقدُ أن أيّ علاقةٍ بين المغني والجمهور. . غلط في غلط.

مدارس بلا ترهيب

عزيزي المستمع، مضتْ عليّ عشراتُ السنينَ منذُ أن غادرتُ مَقْعَدَ المدرسة. كنّا نسمي المَقعَدَ في المدرسة "البنك" . . بنكٌ مُفْلس. لا أعادَكِ اللهُ يا أيامَ المدرسة. عشراتُ السنين مرّت منذُ أن فارقتُ المدرسة، ولكنني لم أنسَ درسَ الحساب المقيتَ، ولا درسَ القواعدِ البغيض. واللهِ لولا العيبُ والحياءُ لكسّرتُ قواعدَ اللغةِ تكسيراً وأنا أتحدثُ إليكمْ، نِكايةً بالطريقة التي درسّونا بها القواعد. لكنْ، المذيعُ يتعاملُ مع القواعدِ بشكلٍ عجيب: يكرهُها، ولكنّهُ حريصٌ عليها. المذيعُ الذي يقرأُ نشرةَ الأخبار إذا غَلِطَ في القواعدِ تَراهُ اضّطَربَ، واختلّ توازُنُ نشرتِه. ولا يزالُ يعكُّ عكّاً حتى ينتهيَ منها. المذيع يَعُدُّ إتقانَه القواعدَ رأسَماله وشرفَه وعِرضَه المِهْني.

عزيزيَ المستمع. . أعودُ بك إلى حكايةِ المدارس. بعضُ الناس يتصورونَ أن المدارسَ مكروهةٌ هكذا. . بدونِ سبب. . خلقةُ الله. المرضُ مكروه، وأن تسقط منَ الطابق الرابع وتقَعَ على أمّ رأسِك مكروه. . شيءٌ طبيعي. والمدارسُ مكروهةٌ. . طبعاً.

لا.

ليس طبعاً.

هناك مدارسُ يتشوقُ التلميذُ أن يذهبَ إليها. التلميذُ في هذه المدارس العجيبة يأتي عليه يومُ الخميسِ فيستريحُ. . ثم الجمعةُ. . ويستريح. . وفي مساء يوم الجمعة يتعجّلُ التلميذُ أن تطلُعَ شمسُ اليومِ التالي شوقاً للذهابِ إلى المدرسةِ ليلقى أصحابَه ولِيستمتِعَ بدروسٍ يفهمُها ويدركُ أنها مفيدة. المدرسةُ التي ليس فيها ترهيبٌ موجودة. . لكنْ ليسَ في بلادنا. أما المدارسُ في بلادنا فهي مكروهةٌ ليسَ لأن التلامذةَ مجانين. ولكنْ لأن المدارسَ. . غلط في غلط.

قاع الطنجرة

عزيزي المستمع، عرفتُ رجلاً في بلدٍ من بلادِ الخليج. اشتغلنا معاً في دائرةٍ حكومية، في الزمن الذي كانوا يشغّلوننا فيه في الحكومةِ هناك. كان ذلك الرجلُ عصيّ الابتسامة. إن ضبطَ نفسه متلبّسا بابتسامة ندمَ وتراجعَ وسحبَ البسمةَ من عن وجههِ فتذوب. وجهُهُ: يا ساتر.. كئيبٌ كجريدةِ أمس. فيه توجُّعٌ وسخطٌ كأنه طنجرةُ المقلوبةِ وقد احترقَ في قاعِها ما احترق، والتصقَ بأرضِها ما التصق، وصارت تُنذر أهلَ البيتِ بشرّ مستطير: فها هو الرجلُ عصّبَ على كيلو اللحمْ، الذي تحولَ إلى فحمْ، وها هي المرأةُ أخذت تحلفُ أنّ هذه هي طريقةُ الطبخِ الصحيحة، وها هو الولدُ راحَ يتغدّى عندَ عمتِه، وها هي البنتُ قالت إنها أفطرتْ متأخرةً ثم ذهبتْ إلى غرفتها.

أنت طبعاً عزيزي المستمع تلاحظ أنني ما زلت أصفُ زميلي أبا نَكَد.

ليتَه كان كثيرَ الكلام، فهذا يخففُ البلية. كان كثيرَ الصمتِ، مستهزئاً بكل شيء.

ذاتَ يوم جَمَعنا المدير للتباحُثِ في مسألة. ووردَ ذكرُ موظف لم يكن حاضراً ذلك المجلس. أحدُ الزملاءِ هزّ رأسَهُ وطَعَنَ في الزميلِ الغائبِ بكلام ناعم مملوءٍ بالسُّم. زميلٌ آخرُ تبسّمَ وهزّ رأسَه وقال ما معناه أنّ الزميلَ الغائبَ لا ينفعُ لشيء. وعندئذٍ، وبكلِّ برودِ أعصاب، خرجَ زميلي النّكِدُ، قاعُ الطنجرة، عن صمته.. وَنَطَق.

وبكلماتٍ بسيطةٍ دافعَ عن الزميلِ الغائب. فكأنه أَلْقَمَ الآخرينَ حجراً. قال كلمةَ حقٍّ.. وفي مكانِها. وقالها ببرود، وبدون مبالَغة.

من يومِها وأنا أراه من أحسنِ الناس. ومن يومِها وأنا أعتبرُ الحكمَ المتسرعَ على الناسِ.. غلط غلط.

المخابرات منذ نعومة الأظفار

عزيزي المستمع، في مدرسةٍ من المدارسِ الخاصةِ في بلدِنا حدثتْ حادثة.

في فسحةٍ من الوقتِ، غابَ فيها المعلمُ عن الصفِّ، صعِدَ الطلبةُ فوقَ المقاعدِ كالقرود، وتلاكموا، وتقاذفوا الطباشير. هذا طبيعي.

أحدُ الطلبةِ أخذتْهُ الحالُ فرفعَ كرسيّاً بيديْهِ إلى الأعلى وصعدَ فوقَ الطاولة، ففقد توازنَه، فوقعَ وقعةً مُنْكَرةً، فانهارتْ واجهةٌ زجاجيةٌ-خشبيةٌ هي جزءٌ من جدارِ الصفّ. وسادَ الصمتْ.

جاء المعلم.

من الفاعل؟

ساد الصمت.

وجِيءَ بالمدير. نظَرَ وقَدَّر وصمتْ. ثم استدعى إلى مكتَبِهِ لجنةَ الصفّ، فأكّدوا لهُ أنّ طلبةَ الصفّ قرّروا ألا يَشُوا بزميلِهم الذي فعلَ الفِعْلة.

أجرى المديرُ بعضَ المفاوضاتِ بهدفِ التوصُّلِ إلى حلٍّ تربويٍّ صحيح: يجبُ أيضاً أنْ يدفعَ الطّلبةُ جزءاً من تكاليفِ الإصلاح.

اتفق المديرُ ومساعدوه فيما بينهم ألاّ يسمعوا كلامَ أيّ طالب يريدُ الوشايةَ، وألاّ يحاولوا، حتى مجردَ محاولة، كسرَ وَحْدَةَ الموقفِ الطُّلابي. لكنْ، لا بدّ مع ذلك من تحميلِ الطلبةِ المسؤولية بشكل جماعيٍّ، وبشكلٍ حضاريّ.

استغرقتِ المفاوضاتُ يومين تعطّلتْ فيهما الدروس في ذلك الصف. وفي النهاية دفعَ الطلبةُ جزءاً من التكلفة، وحافظوا على تكاتُفِهِمُ المطلق. وتعلّموا درساً في الوطنيةِ والمسؤوليةِ كبيراً جداً. والطالبُ الشقيُّ.. لقد تعلّمَ احترامَ زملائِهِ الذين احتضنوه وحموْه، وتعلّمَ احترامَ مدرستِه وإدارتِها. صار هذا الولدُ إنساناً أرقى مما كان.

بعضُ المدارسِ تفضّلُ أساليبَ المخابرات، حتّى لو كان من نتيجةِ ذلك تعويدُ الطلبةِ على خيانةِ زملائِهم. وهذا.. غلط غلط.

الأناقة خِلقة

عزيزي المستمع، إليك مثلاً جديداً لم تسمعْ به من قبل: (معَرّقْ على معَرّق. . لا يَلْبَق)، وقد استوحيتُه من حادثةٍ مرت بي.

لعلّك تعرف المثل الإنجليزي الذي يقول: **Black and white's always right**، ومعناهُ أن لُبْسَ الأبيضِ على الأسود هوَ دائماً صَحّ. فالقميصُ الأبيضُ، مثلاً، يلبَقُ على البنطلونِ الأسود، وهكذا.

في الواقع فإنني، في مرحلةٍ من مراحلِ العمر، قررتُ أن أُريحَ نفسيَ من عناء التلبيق فجعلتُ كلّ ما أَلْبَسُ من اللونيْنِ الأبيضِ والأسودِ، وذاتَ يوم رأيتُ نفسيَ أشتري بنطلوناً كَمُونيّاً. ما الذّي أوحى إليّ بذلك الخاطرَ التخريبيّ؟ لا أدري. كان ذلكَ يومَ نحس. فمن يومِها انحرفَ ذوْقي وصرتُ أحاولُ التلبيقَ على الكمّوني فلبستُ البُنّيّ والبتروليّ والأصفر، وكسرتُ قاعدتي الذهبيّة.

أما حادثةُ المعرّق فهي لا تتعلقُ بملابسي أنا. وفي الواقع فإنني لم أضعْ على جسمي شيئاً مُعَرّقاً في حياتي، وأنا أعتقدُ أنه لُبسٌ لا يليقُ إلا بالشخصِ المرحِ الفَرحِ السعيد، ولستُ بهِ.

كنتُ ذاتَ يوم في متجر كبير في لندنَ أحاولُ شراءَ تَنُّورة وبلوزة، لأم أو لزوجة أو لصديقة. . هذا ليسَ شُغلَكَ عَزيزيَ المستمعَ. . ركّز معي في القصةِ الأساسية. صرتُ أُمسكُ التنورةَ وهْيَ معلقةٌ بعَلاّقتِها وأضَعُ فوقَها البلوزة وأمُدُّ يديّ على طولِهما. . بهما. . لأرى إن كانتْ هذه تَلْبَقُ على هذه. وتناولتُ بيدي، فيما تناولت، تنورةً معرّقةً ومعها بلوزةٌ معَرّقةٌ بنَقشةٍ قريبة وصرتُ أتأمّلُهما معاً.

ومِنْ على بعد نحو عشرينَ متراً رأيتُ عجوزةً إنجليزيةً أبيضَ شعرُها وانحنتْ قامتُها. . عجوزةً في نحوِ الثمانين. . رأيتُها تقبلُ عليّ وهْي ترفعُ عصاها التي تتوكأُ عليها، ترفعُها في الهواءِ وتشيرُ بها نحوي إشارةَ تهديد. وصارتْ تقتربُ مني وتحثُّ الخطى، ثم وقَفَتْ إزائي وهي تقول: معرّقْ على معرّقْ، لا يلبقْ. هززتُ رأسي موافقاً، ومذعناً، وشاكراً.

في هذِهِ المسائلِ سأظلُّ أرتكبُ الغلطْ وراءَ الغلطْ.

مكان في الجنة

عزيزي المستمع، إذا كنتَ متزمتاً في الدين فقد يزعجُك كلامي اليوم، معَ أنه فيما أظنُّ كلامٌ مبنيٌّ على المشاهدة، وليس فيه ما يؤذي. ولكن إذا كنت متزمتاً فليس عليكَ ضمانة. قد يؤذيك وَرَقُ الورد، وقد يجرحُ خدَّكَ مرورُ النسيم.

رأيتُ أقواماً من الهندوس ومن البوذيينَ ومن السيخ. عايشْتهم في بلدٍ أوروبي، وكنتُ طبعاً أنظر إلى سلوكهم بتوجُّس، وأعاشرُهم بحذر فأنا لا أعرفُ أديانهم. كانوا في الواقع من الهنود. أي أنهم مختلفون عني في الدين والتربية وحتى في الشكلِ. كانوا سُمْراً سمرةً تلمع، ذوي بشرةٍ برونزية، وكان لهم جميعاً شعرٌ أملسُ مسحوبٌ سحباً ربانياً. بعضُهم يأكل اللحم، ومن ضمنه لحمُ الخنزير، ونحن نأنفُ من ذلك؛ وبعضُهم لا يأكلُ اللحمَ أبداً، وهؤلاءِ بالتأكيد يأنَفونَ منّا.

كثيرونَ من أهل هذه الديانات يعتقدونَ بوجودِ حياةٍ أخرى بأشكالٍ مختلفة. ونحن، أهلَ الكتاب، لنا جنةٌ ونار سنذهب إلى واحدة منهما.

من تعاملي مع أهل الديانات الآسيوية رأيتُهم مثلَنا في كل شيء تقريباً، فيهمُ البخيلُ والكريم، النصابُ والمحترم، المرحُ الضحوك والمقطِّبُ العبوس. وبناءً على ذلك صرتُ أعتقدُ أنني سأقابلُ هؤلاءِ في الدار الأخرى: في الجنة أو في النار. ولا أعتقد أن اللهَ سبحانه، إذ جمعنا في الحياة الدنيا، سوف يفصلُنا في الآخرة.

بعضُ الناس لا يحبُّ أن يجاورَ أهلَ الديانات الأخرى، لا في دنيا ولا في آخرة. أما الآخرةُ فلا أقول فيها صحٌ ولا غلطْ لأنها من شأنُ صاحبِ الشأن جل وعلا. أما الدنيا فأعتقد أن تجنُّب الآخرينَ، المختلِفين عنّا، فيها.. غلط غلط.

ثقل دم المذيعين

عزيزي المستمع، ترى المرأةَ في دعاية التلفزيون في بيتِها مع أولادها، ومع ذلك فهي محجّبة في لبسها. ترى وجهَها الصبوح. . ولكنْ، ممنوعٌ أن ترى الشعر.

إذا كنت صبوراً وجلست دقيقةً أخرى فسوف ترى المرأةَ نفسَها في دعايةٍ قادمة وشعرُها يهفهفُ وينسابُ على كتفيها. وسترى تنورتَها فوق الركبة بشبر.

الدعاية الأولى مصنوعة حسب المواصفات الخليجية. فإخواننا في الخليج محافظونَ ويحبون الدينَ حباً جماً. والدعايةُ الثانية مصنوعة حسب الرَغبات الخليجية. فإخواننا في الخليج، مثلَ إخوانِنا في كل مكان، ومثلَ كلِّ البشر، يحبون البصبصة.

وترى الفلمَ الأميركي على قناة تلفزيونية خليجية وتقرأُ الترجمة. ترى رجلاً طويلاً عريضاً يدخل إلى الخمّارة ويطلبُ كأساً مزدوجةً من الويسكي - والويسكي، وُقيتَ شره وخيره، شراب سكوتلنديٌّ قوي يجعل الحصان يمشي على اثنتين والبني آدم على أربع - وتقرأ الترجمة، فتكتشفُ أن الرجل يقول للساقي: أعطني كوباً من العصير.

جاء في الأثر أنه سيأتي يومٌ يكونُ فيه القابضُ على دينه كالقابض على الجمر. أصبح التمسكُ بالدين تمسكاً صارماً أمراً صعباً هذه الأيام. لكنني أرى أن مشايخ الأَنظمة يقودون الشعوبَ إلى مأزق، ويخلطون الدين بكثير من نفاقهم. وأرى أن الحلّ يكمُنُ في التمسك بمكارمِ الأخلاق وفي تَرك الرياء.

بعضُ المذيعين صار يبدأُ نشرة الأخبار بعبارات دينية وآيات، ويختمها بأدعية وابتهالات. ويبدأ النشرة الجوية بالبسملة ويختمها بعبارات اعتذارية دينية، وكلما ذكر منخفضاً جوياً قال بإذن الله، وكلما رفع درجة الحرارة قال والله أعلم، وبعضهم يزيد العيار ويقول: والله تعالى أعلى وأعلم.

ونحن نقول: أنتم يا إخواني المذيعين دمكم ثقيل، وربُكم يطلب طهارةَ القلب لا نفاقَ اللسان. ونقول لهم أيضاً: لو قرأتم سورة البقرة خلال نشرة الجو فسوف مع ذلك تظلون. . غلط غلط.

ظالم ومظلوم

عزيزي المستمع، عندي لك حكايتان عن عاملين. فتحمّلِ الحكايتين وقل لي بعذ ذلك رأيك، وأعِدُك وعدَ شرفٍ ألاّ أطيلَ عليكَ الكلام.

العاملُ الأول اشتَغَل عند جاري. ركّبَ له محرّكاً كهربائياً يسحبُ الماء من البئر. ثم بعدِ ساعةِ عَمَل لم يشتغلِ المحرك، ولم يسحبِ الماء. طلبَ العَاملُ أجراً كبيراً. قال له جاري: المحركُ لم يشتغل. قال العاملَ: هذا ليس اختصاصِي. قال له جاري: أنت الذي اشتريتَه وركّبته فإذا لم يشتغل فكيف أدفعُ لك؟ لكن خذْ أجرة يدك على الساعتين اللتين أنفقتَهما، وفُكّ المحركَ واذهبِ به. قال العامل: لا أَفُكُّ المحرك، بل تدفعُ أنتَ ثمنه وأجرةَ تركيبه. جاري لم يدفعْ، فذهبَ العاملُ غاضباً، ثم رجع في المساء ومعه أخوه وشخصٌ ثالث يبدو أنه يشتغلُ جزّاراً في النهار ومصارعاً في الليل.

أدرك جاري أنه ورطَ ورطةً كبيرة، فأمر لهم بالقهوة وانسلّ من البيت، وجمعَ رجال الجيرة. جلسنا جميعاً في مجلسِ صلح وتحكيم. وارتفعت الأصوات. وفي النهاية دفع جاري ثمن المحرِّك وأجرةَ العامل. نعم.. دَفَع.

كُلُّنا شعرنا بالغيظ، لكنْ.. ربما كان إحضار ذلك المصارع قد أتى بنتيجة. وواسينا جارَنا وعزفنا سيمفونية الصنايعية الخائبين، وانصرفنا. ما أبشع الظلم. قلنا لصاحبي: قد ظلمك عامل خائب.. احتسبْها عند الله.

الحكاية الثانية. رجل متقاعد يعيش في فيلا جميلة. أتى بعامل لتنظيف أشياء في الحديقة وحول البيت. وكلما أنهى العامل شيئاً قال له: إرفع كومة الحجارة هذه. واسق الشجرات، ثم أحضر كذا، ثم اصنع كذا. لقد حوّش هذا المتقاعد كلَّ الأشغال حتى يخلُصَ منها دُفعةً واحدة.

وبعد ساعات شعر العامل بألم في الظهر لكثرة ما اشتغل، وعلى نحو متواصل، والمتقاعد واقفٌ على يديه يواليه بالأوامر ولا يترك له مجالاً للتنفس. ومالت الشمس للمغيب فأخرج المتقاعد من جيبه قروشاً وقال للعامل: تفضل يا أخي.. سلّم الله يديك. نظر العامل في القروش.. وقال له: هذه لا تشتري ربطة خبز. فضحك المتقاعد ضحكة مصطنعة بغيضة مثل وجهه وقال: لا والله لن تأخذ غيرها. وتستهينُ بربطة الخبز يا أخي.. ربطة خبز أحسن من بلاش. أعاد العامل القروش للسيد الجليل، وقال له: سوف نتساوى ذات يوم، آخرتي وآخرتك حفرةٌ متران في متر.. عندئذ صار المتقاعد يلُح على العامل أن يقبل القروش، لكنّ العامل انصرف وهو يقول في نفسه نجوعُ اليومَ ونشبعُ غداً. وعاهد نفسه ألا يشتغل عند بخيل.

عزيزي المستمع: الغنى غنى النفس، وبعض الناس فيها شرٌّ، وبخل. وهذا غلط. وبعض الناس.. بصراحة.. متهاونون في حقوقهم، وهذا.. غلط غلط.

العداوة المرغوبة

عزيزي المستمع، ما أصعب العداوة، وما أثقلها على كتفي المرء. ومن العداوةِ ما يفيد. لكنْ، لا تحمّلْ نفسك عداوة رجل لا تُطيق عداوته، ولا تحمّل ظهركَ وظهرَ أولادِك عداواتٍ كثيرة.

الذين يُظهرون لك العداوة قليلون والذين يبطنونها ولا يظهرونها كثيرون. لكنْ. . اعلم أن الذي يُظهر العداوة أشدُّ استعداداً للأذى. وأهم أسبابِ العداوةِ الحسد.

إذا ورثت عشرةَ آلاف دينار فأخفها إخفاءً ولا تقل لجارك، فسوف يحسُدُك. وإذا نالك أذى صغير فأخْفِ ذلك، لئلا يتمنى لك عدوُّك أذىً أكبرَ منه.

ما رأيتُ أسوأَ من العداوة إلا الحسد. قال الشاعر:

كلُّ العداواتِ قد تُرجى مودّتها ... إلا عداوةَ من عاداكَ عن حسدِ

فإنها نكتةٌ في القلب ثابتـــــةٌ ... وليس يدفعُها شيءٌ إلى الأبـدِ

أعودُ إلى جملةٍ قلتُها لك في أولِ حديثي، ولعلك نسيتَها: من العداوة ما يُفيد. نَعَمْ. فبعضُ الناس يؤذونَكَ باسم الصداقة، ويسببون لك الإحراج حيناً والضرر حيناً.

عزيزيَ المستمع: أنت أعلمُ بأصحابك. هناك بينهم شخصٌ أحمق يحرجُك ويؤذيك، وأنت أخبرُ به، لكنّني متأكِّدٌ من أنه موجود. أقولُ لك شيئاً: فكِّرْ في الأمر دقيقة، قل لنفسك: من الآن وحتى آخرِ الدنيا. . هل يمكن لهذا الأحمق أن يقف معي في لحظة الضيق؟ أم هو من النوع الذي يقف معي عندما أكون قوياً، ويهجُرُني عندما أكون ضعيفاً. إن كان من هذا النوع فانا أنصحك أن تزيّن أيامَك بهجرانه، وأن تجعل القريب والغريب يعرفانِ أنه لك عدوٌّ مبين.

إن ظننت أن الحمقى والغدّارين قد ينفعونك ذات يوم، فظنُّك يا صاحبي. . غلط غلط.

المراهقون الأعداء

عزيزي المستمع، يسألك ولدُك: وهل من الضرورري أن أكونَ موجوداً عندما يحضُرُ الجماعة لكي يخطِبوا أختي؟ وتقولُ: طبعاً، ولماذا تسألْ؟ فيقولُ لك: سين سؤال. ثم يتركُ الغرفة.

إذا قال لك ولدُك: (سين سؤال)، فاعلم أن عندك في الدار مراهق. وأنا أبشِّرك بوجع الرأس. هناك ناسٌ عندهم سُكّري، وناسٌ عندهم صراصير، وهناك ناسٌ عندهم مراهقون.

التعامل مع المراهق يتم بالتحايل والرّوِيّة، والتأجيلِ والتنازلات. أراه شبيها بالتعامل مع الرشح. الرشح مشكلة تحتاج فقط إلى زمن. اشترِ علبةَ محارم وانسَ نفسَك ثلاثةَ أيام، وستجدُ أن المشكلة حلت نفسها.

إذا طلب المراهق مالاً كثيراً لشراء بنطلون جينز أبو ماركة ممزقاً عند الركبتين، فتحايلْ عليه. لا تقلْ له إن هذا البنطلون هو لُبْسُ الصائعين المائعين، قل له: يا سلام.. بنطلون جميل.. رغم أنه معجّق وولاّدي قليلاً. عندما يسمع ذلك قد يغير رأيه ويكرهُ بنطلون. فإذا أصرّ على رأيه فعليك بالتأجيل إلى الأسبوع القادم، وقل له: سأعطيك المالَ الذي كنتُ سأشتري به لعبةً لأختك الصغيرة. هذا الأمر سيجعلهُ يفكر ملياً، وقد يغيرُ رأيه. لكن ليس بالضرورة، فالمراهق معدوم الضمير في الغالب. إذا لم يغيِّر رأيَه فعليك أن تتنازل.

العلاقةُ مع ولدك المراهق علاقةُ أخذٍ وعطاء. دعه ينتصر أحياناً. وكلما كنت متفهماً له في سنوات مراهقته زاد شكرُه لك وتعلقُه بك عندما يصبحُ رجلاً. وأما أن تتعاملَ مع ابنك المراهق كعدو وخصم فهذا.. غلط غلط.

برنامج فارغ

عزيزي المستمع، في هذا البرنامج ممنوعٌ الكلامُ في السياسة وفي الدين وفي الجنس، وممنوع الكلامُ في الإعلانات، وممنوعٌ إيرادُ أسماءِ الشركات أو المؤسسات، وممنوعٌ أن نقولَ صباحُ الخير أو مساءُ الخير لأن البرنامج قد يذاع في أي وقت. وتسألُني بعد ذلك لماذا برنامجُك فارغ. . ليس فيه شيء؟

صارَ برنامجي مثلَ أشعارِ ابنِ سودون. اسمعْ ما يقول هذا الشاعرُ القديم:

البحرُ بحرٌ والنخيلُ نخيلُ   والفيلُ فيلٌ والزرافُ طويلُ
والأرضُ أرضٌ والسماءُ خلافُها   والطيرُ فيما بينَهُنّ يجولُ
وإذا تعاصَفَتِ الرياحُ بروضةٍ   فالأرضُ تثبُتُ والغصونُ تميلُ

ولعلك عزيزي المستمع: تريد أن تسمعَ شيئاً آخرَ من إبداعاتِ ابنِ سودون. لن أفشّلَك، قالَ يرثي أمّه:

لموتِ أُمّي أرى الأحزانَ تحنيني   فطالما لَحَسَتْني لحسَ تحنينِ
أقول مَمْ مَمْ تجي بالأكلِ تطعمُني   أقول إمبو تجي بالماءِ تَسقيني
وربما شكْشَكَتْني حين أُغضبُها وبعدَ ذا كَشْكَشَتْني كي ترضّيني

وأريد أن أختم هذه المختارات ببيتٍ عبقريّ يتحدثُ عن فتىً ذكيٍ عاقلٍ أدرك حقائقَ الكون. يقول ابنُ سودون:

إذا ما الفتى في الناسِ بالعقل قدْ سما   تبيَنَّ أنّ الأرضَ من فوقِها السّما

وأخيراً أدعو الله دعاءً: يا ربّ كثّرِ الحريةَ في بلدِنا، واجعلِ الناسَ يتقبّلونَ مواضيعَ أكثر، واجعلْ صدورَهم أوسع، وافتحْ عليهم يا ربُّ، إنك أنت الفتّاح.

اللهم خذْ بيد المتعصّبين ثم خذهم، واقبضْ على الجبناءِ ثم اقبِضهم، فهؤلاءِ وأولئك. . غلط غلط.

اثنتا عشرة حلقة من برنامج إذاعي اسمه (غلط غلط) من أصل 260 حلقة أذيعت من راديو أجيال. نال البرنامج نصيبا من النجاح وأعيدت حلقاته.

الوحشية (تمثيلية إذاعية)

عاتكة : الحمدُ لله الذي أراحنا من بني أميةَ ، ومن ظلمِهم .

زينب : (بغضب) ولكنني لا أنسى عبدَ الله (وقفة . . ثم يتسلل شعور الحزن) لقد قتلوه في سجنه جوعاً وعطشاً (حزن عميق) ليتني مِتُّ قبلك يا عبدالله! لقد حفروا له حُفرة وألقوْه فيها ، وعادوا بعد أيام . . وأخرجوه منها جثة هامدة .

عاتكة : (تهوّن عليها) لقد هُزموا وذهبت أيامُهم . وها هو أبو العباس قد بويِع أميراً للمؤمنين ، فافرحي يا زينب .

زينب : وكيف أفرح؟ إنه قد جعل بني أمية ندماءَه ورفاقَ مجلِسه .

عاتكة : لا تنسيْ أنه قتل خليفتهم مروانَ بنَ محمد ، وقتل العشراتِ منهم . . لم يبق منهم سوى عشرين أو ثلاثين رجلاً .

زينب : كلما تذكرتُ أخي عبدَ الله . . تذكرتُ هؤلاء الباقين من بني أمية . كيفَ يُجالسهُم أبو العباس . . وهو يعلمُ أنهم من بني أمية! (سخطها يتصاعد) لا أدري واللهِ . .

عاتكة : يا زينب . . إنهم يجلسون على الوسائد . . يفترشون الأرض . . أما رجالُنا من بني العباس فهم يجلسون على الكراسيّ والأسرّة . لقد رفع الله قَدرَنا وجعلنا سادةَ المسلمين . . ولا تنسيْ يا زينب أن بني أمية هم أبناءُ عمنا . .

زينب : ليتهم تذكّروا ذلك أيامَ دولتهم . . لقد بَطشوا بنا وقتلوا رجالَنا . لا والله لن يهدأ لي بال . . إلا إذا حلت ببقيتِهم نكبةٌ تقضي عليهم . .

عاتكة : ارحموا عزيزَ قوم ذلّ . .

زينب : لا يكفيني أن يَذِلّوا . . يجب أن يموتوا . .

عاتكة : القتل يَجُرُ القتل . . كفانا دماءً يا زينب . .

زينب : دمُ أخي ما زال طرياً . . إنه يطلبُ الثأر . .

عاتكة : لقد قتل بنو أمية منا كثيراً . . وقتلنا منهم أكثر .

زينب : لكننا نحن الغالبون . .

عاتكة : ليتك تستطيعين النسيان! الثأر يعذبك أنتِ .

—————— موسيقى ——————

عاتكة : من هذا الفارس القادمُ من بعيد؟

زينب : (بعد تردد حتى تتحقق) هذا سُدَيْفٌ الشاعر . لقد طلبتُ إليه أن يأتيَ الينا .

عاتكة : سُديف! الشاعرُ السفيه . . صاحبُ المهاترات! (صوت سنابك الحصان)

زينب : أهلاً يا سديف . . تفضل بالجلوس . . أهلا بك يا شاعرَ بني العباس . .

سديف : زينب! يا أبنه الاشراف! قد سبكتُها سبكاً ، فجاءت كأنها صخرةٌ صماء .

زينب : هاتِ يا سديف . . هاتِ أنشدنا . .

سديف : لا والله . . لا أُنشد بيتا منها إلا على مسمع أمير المؤمنين . أقسمت ألا يسمعَها أحد قبلَه . . ها هو الآن في مجلسه وأنا ذاهب إليه . . غير أنني أحببت أن أمُر بك حتى تطمئنّي .

زينب : (بلهجة تحريض) اذهب الآن . . إن بني أمية جالسون عنده الآن . . كُلُهم عنده . . كُلُهم .

سديف : ما ألذّ الانتقام . . ما أطيب رائحة الدم!

عاتكة : ويحك يا سديف . . تريدُ ان تحرّض الخليفة حتى يقتلَ أبناءَ عمّه . .

سديف : (يضحك) السلام عليكما . . ولا عدوانَ إلا على الظالمين . . السلامُ عليكما . .

زينب : (بصوت أعلى إذ إنه يبتعد) وعليك السلام يا سديف . . (بصوت أعلى من السابق) اذهب واللهُ معك .

—————— موسيقى ——————

عبد العزيز : قد وهبك اللهُ الخلافةَ يا أميرَ المؤمنين ، ونحنُ جميعاً في حاشيتك ، جنودٌ في عَسكرِك .

أبو العباس : وقد عفونا عنكم ، لا تكونوا جنوداً ولا أمراء . . كونوا في الخدمة . . حتى يتم الرضى عنكم .

عبد العزيز : نحن في خدمة مولانا أمير المؤمنين . كانت الخلافة فينا ، وهي اليومَ فيكم يا بني العباس ، وقد بايعنا على السمع والطاعة .

أبو العباس : (بغضب) وما زلتَ تذكُرُ الماضي وتذكُرُ الخلافة .

الحاجب : (من بعيد يرفع صوته، ينادي نداء رسميا رتيبا كأنه حاجب المحكمة) مولايَ أميرَ المؤمنين! (يتحدث بشكل عادي أكثر الآن) بالباب فارس ملثم، يُقسِم ألا يَحسِرَ لثامَه إلا في حضرة أمير المؤمنين .

أبو العباس : هذا شاعرُنا والمدافعُ عنا . . هذا سديف . فليدخل . . (كأنه يكلم نفسه) والله لا يكونُ إلا سديفاً . . وهل يجرؤُ أحد على الدخول عليّ مُلثّما إلا سديف! (انتظار)

أهلا بك يا سديف . . والله ما جاءَ بك إلا أمرٌ جَلَلْ . . ما وراءَك . . (ثم بغضب) أرِنا وجهك وإلا أمرتُ هؤلاءِ الجندَ بأن يجُرّوك من رِجليك ويلقوا بك في الخارِج . .

عبد العزيز : أميرُ المؤمنين يرحبُ بك . . ولا تقولُ شيئاً! هلا ألقيت السلام على أمير المؤمنينِ؟

أبو العباس : دعه يا عبدَ العزيز . . فإن سديفاً إذا كانت معه قصيدةٌ جديدة لا يستطيع أن يقول أيَّ شيءٍ آخر إلا بعد أن يُنشِد . . أنشِدنا يا سديف!

سديف : (ينشد)

يا ابن عمّ النبي أنت ضِيـاءٌ
استبَنّـا بك اليقينَ الجليّا
جرِّدِ السيفَ وارفعِ العفـوَ حتى
لا ترى فوق ظهرِها أمويـا
لا يَغُرّنْكَ ما ترى من رجـالٍ
إن تحت الضلوعِ . . داءً دَويّـا

أبو العباس : (تأخذه رعدة الغضب) صدقتَ يا سديف . صدق شاعِرُنا . . وكذب بنو أمية . . أيها الحرس . . أيها الجند . . سُلّوا سيوفّكم . . اقتلوهم . . اقتلوهم واحداً واحداً . . فرداً فرداً . . لا تتركوا منهم أحداً . . يا ثاراتِ بني العباس . . (ثم يردد وهو يشهد المقتلة الشطر . .)

لا ترى فوق ظهرها أُمويا . .

لا ترى فوق ظهرها أَمَويا . .

–––––––––––––– موسيقى ––––––––––––––

عاتكة : (صوتها عال فهو ما زال بعيدا ويقترب من البيت) لا سَلّم الله يديك يا سديف . .

سديف : سَلم الله لساني . . يا سيدة النساء . لقد أفناهم أبو العباس . . (يضحك) . . ها هي زينب . . سيدتي زينب . .

زينب : (قادمة) سديف . . بوركت يا شاعرَ العرب . . بوركتَ يا لسانَ الصدق . . أحقاً أنه قضى عليهم جميعاً . .

سديف : (يضحك) . . كان مجلساً بهيجاً . . سمعتِ بما حدث!

زينب : أَعِد عليّ يا سديف . . قُصّ عليّ الأمرَ كله . . كلّ شيء . . حَدّثنا

سديف : دخلتُ على أمير المؤمنين بلثامي . . ثم حسرتُ اللثام . . ولم أُسَلم . . فعرفَ أن شيطاني غاضب . . وأنني لن أقول إلا شعراً . . و أنشدته القصيدة . .

زينب : أنشدنا . . ناشدتُك الله!

سديف :

يا ابن عمّ النبي أنت ضِيـاءٌ

استَبَنـّا بك اليقينَ الجليّا

جرّدِ السيفَ وارفعِ العفوَ حتى

لا ترى فوق ظهرِها أمويـا

لا يَغُرّنْكَ ما ترى من رجـالٍ

إن تحت الضلوعِ . . داءً دَوِيّـا

زينب : لقد قتلتهم بها يا رجل!

سديف : وما انتهيتُ منها حتى كان أبو العباس ينتفضُ غضباً . . وأمرَ الحَرسَ بقتل من كان في المجلس

من بني أمية . . ولم يبق أحدٌ في المجلس من بني العباس . . ولا من الحرس والجند إلآ واستلّ سيفه أو خنجره . . وأخذنا نضربُ أعناقَهم ونبقُرُ بطونَهم . . وكان خنجري هذا بيَدي .

زينب: ماذا فعلتَ به ها . . ؟

سديف: أجهزت به على ثلاثةٍ منهم . . شفيتُ غليلي . .

زينب: . . ثم ماذا؟ حدّثنا يا سديف!

سديف: ثم جمعنا الجثث في وسَطِ المجلس . . كومةً كبيرة . . كانوا ثلاثين رجلاً . . أو أكثر . ورأيتُ أبا العباس وقد جلس على سريرِ الخلافة . . يحمَدُ الله على الإيقاعِ بهم . .

زينب: الحمد لله . . الحمد لك يا رب . .

سديف: انتظري . . للحديث بقية ولا أريدُ أن تفوتَكِ يا زينب . .

زينب: أكمل . . أكمل يا سديف!

سديف: صاح أبو العباس: يا غلام . .

زينب: أمرهم بإخراج الجثث؟

سديف: انتظري يازينب! أمر أبو العباس الخدم بأن يُغطّوا كومةَ الجثث ببساط سميك . . كان بعضُ بني أميةٍ ما زال يتحرك . . لم يمُتْ بعد، وكَان يصدرُ عن بعضهم أنينٌ خافت . . كنا نرى يداً تتحرك . . أو رِجلاً تهتزّ . . كان بعضُهم في النزع الأخير . .

زينب: ولماذا يُغطونهم بالبساط؟

سديف: . . بعد أن غطاهم الخدم بالبساط صعِد أبو العباس . . فوق كومة الجثث . . وجلس . . وقال: يا غلام هاتِ الغداء

زينب: (تشهق) الغداء . .

سديف: جلس فوق جثث بني أمية ووضع الطعام بين يديه وأخذ يأكل . . ظل يأكل . . حتى شبع . . ثم نزل وهو يقول: والله ما ذقت طعاماً أطيبَ من طعاميَ اليوم!

زينب: والله ما ظننتُ قصيدتكَ تفعلُ كل هذا؟

سديف: ثم أمر أبو العبّاس فطُرِحت الجثث في الطريق لتنهشها الكلاب . . لم يبق كلبٌ في الجيرة إلا ونالَ من لحومِ بني أمية .

------------------ موسيقى الختام ------------------

الإعلام (تمثيلية إذاعية)

رئيس التحرير: . . لا يا حاج. . لأ لأ لأ، إحنا محسوبين لحيتك الطيبة. (ينتظر ويسمع) مش بس بدي أكذب الخبر. . بدي أفك رقبتها الصحفية اللي كتبته. . هذي قلة خبرة بس يا حاج. . وراح تشوف بكره في الجريدة: بدنا نكذِّب الخبر ونعتذر كمان، (ينتظر). . محسوبك. . مع ألف ألف سلامة (يضع سماعة التلفون).

(يصرخ): سعاد. . ! يا سعاد. . !

(طرق على الباب). . (يفتح الباب) إيش اللي سويتيه؟

سعاد: خير؟

رئيس التحرير: والله ماني عارف أنا رئيس تحرير هون واللا طرطور! خبر دير الزوان مين اللي نزّله امبارح؟

سعاد: إنتا شفته.

رئيس التحرير: أنا شو بدي ألحِّق تا ألحق! شو بدي أراقب تا أراقب! لازم إنتي برضه تعرفي إيش اللي بِنتشر وإيش اللي ما بِنتشر!

سعاد: والله انتا بتراقب، واحنا بنراقب، وكل جهاز في الدوله بيراقب، ومش خالصين، إيش ماله الخبر!

رئيس التحرير: (غاضبا) مين اللي قالك إنو مختار دير الزوان عزلوه عشان متهم بالسرقة والاختلاس؟

سعاد: قرار المحكمة. . فيه إدانة، وفيه سحب ختم المخترة رسمياً.

رئيس التحرير: يا عمي قرار المحكمة بكره بينتسى. . بس عيلة أبو دبور راح تضل عيلة أبو دبور.

روحي أكتبي تكذيب للخبر . . وخلّي الصياغة مبهمة شوي . .

سعاد : بس الخبر صحيح .

رئيس التحرير : قولي إنو ما كان دقيق . زبطيها بمعرفتك! هذيك السنة عيلة أبو دبور بعتو عشرين زلمة ع مجلة الأساس وطبشولهم الكمبيوترات عشان خبر الطوشة .

سعاد : وهذاك الخبر كان صحيح برضه .

رئيس التحرير : يا سعاد! لما تصير طوشة ويموت حدا منقول أحداث مؤسفة والشرطة سيطرت على الموقف ، أكتر من هيك ممنوع . ولما حدا ينهب ميزانية المجلس القروي منقول : التغييرات الإدارية في تركيبة المجلس ووجود اختلافات بين الاعضاء .

سعاد : (باستهزاء) وخلّي الناس يقرأوا بين السطور . .

رئيس التحرير : برافوا عليكي .

سعاد : وخلّي الناس يتناقلوا الخبر زي ما بدهم . . ويزيدوا عليه . . ويطلّعوا إشاعات .

رئيس التحرير : إحنا شو خصنا . . الناس بتموت في الإشاعات .

سعاد : الناس اللي ما عندهم صحافة صادقة بطلعوا إشاعات وبفتروا على بعض . بعدين بصراحة صارت صفحة الأخبار المحلية مسخرة . . كلها أخبار تافهه . . تشريفات وافتتاحيات . . واستقبالات وورشات . . هادي مش صحافة . . !

رئيس التحرير : . . (بحنان) . . يا سعاد الله يطول روحك ويعطيكي الصبر . . انا مخلع نيابي في هالشغله . . بلدنا هيك . . اللي درّسوكم إياه في كلية الإعلام هذا الإعلام في أوروبا . . بلادنا إشي تاني .

سعاد : المهم هلأ تكذيب لخبر دير الزوان ما بكتب- إذا بدّك بكتب استقالتي .

رئيس التحرير : مرفوضة قبل ما تكتبيها ، خليني أنا أكتب تنويه زغير . . أسمعي (يكتب) . . "سقط سهوا في خبر دير الزوان . . "

سعاد : بصراحة . . والله ما سقط غير جريدتنا . .

--------------- موسيقى ---------------

رئيس التحرير: لا يا سيد شوكت لأ. . لأ. . لأ أنتو على راسنا من فوق، خَلَص ولا يهمك بدي أزبطها على كيفك. بس بكره شوف الجريدة. . في نفس المحل رايح أعملك ديباجة تعجبك، (يسمع)، محسوبكم، (يسمع) الجريدة جريدتكم سيد شوكت. . في أمان الله. . مع السلامة.

(يصرخ) سعاد. . يا سعاد!

(فتح الباب) إيش اللي سويتيه.

سعاد: خير؟ وإيش فيه هلأ.

رئيس التحرير: مش إنتي اللي بتشوفي بريد القراء؟

سعاد: آه. . أنا.

رئيس التحرير: ومين هذا اللي متشكّي اليوم ع شركة الأنتين الطائر. هاتي ناوليني جريدة اليوم أشوف. أنا والله كان لازم أسمع نصيحة أبوي وأشتغل معه مصلِّح بوابير كاز.

سعاد: أحسن من الصحافة بهالبلد.

رئيس التحرير: قال إيش ". . فواتير مرتفعه وخدمات منخفضة. . " طيب هذا عنوان تحطيه.

سعاد: هيك بالزبط المواطن حكى. . بعدين خلّي شركة الأنتين الطائر يردوا عليه برسالة. . ومننشرها.

رئيس التحرير: هذول ما بِدخلوا في مهاترات مع المواطنين. إنتي عايشة في المريخ! عمرك شفتي حدا كتب مقال، واللا نشر رسالة، واللا حتى خبر فيه أي حاجة هيك واللا هيك عن الأنتين الطائر؟ عمرك؟ عُمرك شفتي الأنتين الطائر ردوا على حدا. . هذول بس بحطوا اعلانات.

سعاد: هذا بيت القصيد. . وعشان إعلاناتهم لازم نداريهم وما ننتقدهم. . واللي بدهم اياه بيصير. . يعني همه صاروا جهاز رقابة تاني ع الجريدة.

رئيس التحرير: إحنا مناكل من خيرهم. معاشك ومعاشي بيجوش من بيع الجريدة للسادة المواطنين.

بيجوا من الإعلانات. . المواطن أفندي اللي بتشكّى على الأنتين الطائر. . شَكّو خنجر انشا الله. . ومش عاجبته فواتير وخدمات الأنتين الطائر. . يروح حضرته ع الشركة ويحكيلهم. . إحنا مالنا.

سعاد: إحنا الصحافة. . إحنا وبس اللي لازم نهتم. . ليش كل شي في هالبلد لازم يصير عن طريق الوشوشة؟ ليش الشركة بتخاف من النقد، والوزير بيخاف من النقد، والمختار بيخاف من النقد. . يعني لازم الجريدة تقول كل شي في البلد تمام. . الأمن مستتب. . البلد ما فيها أي مشكل. . وإذا فيه مشكل الحق ع الاحتلال وبس. . وبس. . طيب شو رايك نكتب في راس صفحة الأخبار المحلية "هنا سويسرا" ونخلّي الصفحة فاضية! منوفِّر حبر.

رئيس التحرير: طيب. . طيب. . خلص. . خليني أكتب تنويه، بس نزليه في عمود رسائل القراء. . (يكتب). . "سقط سهوا. ."

سعاد: إيش هوه اللي سقط. . لا سقط ولا هبط. . هادي جريدتنا اللي هابطة. .

—————— موسيقى ——————

رئيس التحرير: قاعدين تتفرجوا ع التلفزيون؟ والله عال. .

سامية: الموضوع بهمك أبو محمد، تعال تفرج معانا. .

رئيس التحرير: مين هاي الهبلة اللي حاطة ع راسها جزرة وبترقص فيها. .؟ والله ما هو غريب هالوجه! أرفعي الصوت شوي!

سامية: خلص خلصت الدعاية. . عرفت مين؟

رئيس التحرير: أبداً ما هو غريب هالوجه!

سامية: هاذي سعاد

رئيس التحرير: سعاد! آه سعاد. . شوووو، من إيمتى بترقص في دعايات التلفزيون؟ لسة من ثلاث أشهر كانت صحفية رصينة.

سامية: هاي اللي ع راسها مش جزرة، وانت الصادق هاي رمز شركة الأنتين الطائر.

رئيس التحرير: هذي سعاد اللي كانت حاملة حملة الانتين الطائر وعملت لنا مشاكل معاهم. هلأ عمالها بتعمل دعاية إلهم؟

سامية: أكل عيش. جربت تشتغل صحفية عن صح.. ضلينا وراها حتى طفشت. وهلأ أخذت مجموعة إعلانات للأنتين الطائر بثلاث آلاف دولار.

رئيس التحرير: يم هيك الواحد بيبيع مبادئه.

سامية: بصراحة! أنا هيك حكيت لها وما استحيت منها، بس جوابها كان مقنع. قالت لي في الجريدة كنا منغطي ع مشاكل الانتين الطائر ومنخدع الناس. بس ع التلفزيون.. المواطن عارف إنو هاي دعاية وكلام فاضي.. يعني خلينا نكون تافهين وبس.. أحسن ما نكون تافهين ومخادعين.

رئيس التحرير: والله يا سعاد.. بس هاي مش شغله على طول.. الدعايات..

سامية: أصلاً هي خطبت وبدها تتجوز ع الصيف..

رئيس التحرير: مين؟ حدا منعرفه..

سامية: شاب بشتغل في التجارة. بتعرف مختار دير الزوان.

رئيس التحرير: قال بعرفه قال.. صار النا معه مشكلة وإجا ع الجريدة وبدو يأخذنا ع المحكمة.. وبعدين خلينا سعاد تيجي تطيب خاطره، وتحكي معه كلمتين بلكي يهدا.. والله كان بده ياخذها ع الحبس. مالُه مختار دير الزوان؟

سامية: ما أخذها ع الحبس.. أخذها لإبنه.. هايها بدها تتجوز ابنه.

رئيس التحرير: (يضرب كفاً بكف) الله لا يوطرزلك يا سعاد.. والله ما انتي قليلة.. قال إيش، المختار مختلس، والمختار عزلوه عشان حرامي.. وبعدين بتروح تتجوز إبنه..

سامية: هذا النصيب. بس إيش يا ابو محمد.. أهداها ع الخطبه سيارة.. من الشركة. في حفلة الخطبه جابوا ككس وكنافة بكفوا البلد كلها.. استنى لسة العرس.

رئيس التحرير: ولو.. وأنا ولا كأني في البلد؟ لا والله قليلة أصل.

سامية: لا مش هيك.. حرام عليك.. بصراحة هيه مستحيه منك.. يعني الموقف شويه بيضحك..

كتير منحرجه منك.

رئيس التحرير: بلغيها لا تنحرج ولا على بالها.. بلدنا هيك الله خالقها.. الصحفي بيبدا متحمس وبدو يصلح الاوضاع.. وبعدين بفلِّس..

سامية: فكرك إيمتى بيصير عنا صحافة زي الناس؟

رئيس التحرير: (يتنهد) لما يصير عنا مجتمع زي الناس.. الله لا يوطرزلك يا سعاد!

-------------- موسيقى الختام --------------

تمثيليتان إذاعيتان من أصل عشر أذيعت ضمن برنامج "حق المواطن" في عدة محطات إذاعية بفلسطين. كانت كل حلقة من البرنامج تتضمن تمثيلية بالإضافة إلى مناقشة لفحواها مع ضيف مختص، وحديث يحمل معلومات عن الموضوع المطروق.

– الفصل الخامس –

الإذاعة ثقافة

ليس كل ما هو منشور في هذا الكتاب من نصوص إذاعية سوى طريقة واحدة من الطرق لإيصال المعلومات إلى الناس. وسترى في الصفحات المقبلة من هذا الفصل المزيد من النصوص التي تحتوي على الشعر وقصص الشعراء، وعلى الحقائق العلمية المبسطة. تلك أشياء كنت قدّمتها في الإذاعة، ولست نادماً عليها. بيد أنني حريص على أن أؤكد لك، عزيزي المذيع، أنها مجرد طريقة واحدة من الطرق.

الثقافة الحيّة أشياء كثيرة: إنها أسلوب حياة الناس: كيف يطرزون أثوابهم ويعصرون زيتونهم، وهي كذلك المأثورات الشعبية من قصائد الحدّائين، وأمثال العجائز، وهي المعرفة بمدن وقرى بلادنا وكل بلاد الأرض. الثقافة أشياء كثيرة.

والتعبير عن الثقافة يتم إذاعياً بطرق عديدة. يحتاج المستمع إلى أن يسمع آراء الخبراء والناس العاديين، وإلى أن يتلقّى المعرفة في قوالب فنيّة شتّى كالتمثيلية، والحوار.

ولكن، لنقف وقفة قصيرة لطرح سؤال أساسي، سؤال قد ينسف كل ما قلناه نسفاً. هل الإذاعة خير وسيلة لضخّ المعلومات؟ هل تريد لإذاعتك أن تصبح إذاعة تعليمية يصدّ عنها الناس؟

في الغرب لا يحبّون التثقيف من خلال الإذاعة. وهم يقرأون كثيراً، وعندهم فيض هائل من المجلاّت العامّة والمتخصصة. ترى البيت في ألمانيا، مثلا، يقتني في كل أسبوع مجلة عامة خفيفة، ومجلة متخصصة في الحدائق، أو في الطبخ، وأخرى سياسية عميقة. وترى أستاذ التاريخ يشتري مجلة فصلية متخصصة في علمه، وهاوي الصيد يشتري مجلته. هناك يريدون الراديو للخبر، والأغنية، والموسيقى، والقضايا الاجتماعية، لكن ليس للثقافة.

مجتمعنا مختلف، ومتخلف. ويحتاج إلى التثقيف عبر الراديو. فالكثيرون أميون. وأكثر منهم يحسنون القراءة ولكن لا يقرأون. والمتخصصون في العلوم المختلفة لا يكادون يتجاوزونها. لا بل إنني رأيت من حملة شهادة الدكتوراة عددا عديدا لا يكادون يعرفون في مجال تخصصهم ما يعرفه المثقف العادي الذي لا يحمل أي شهادة في الغرب. في مجتمع كمجتمعنا للثقافة مكان في الراديو. ولكن من الحصافة أن يتم تغليف المواد الثقافية بعناية حتى تصل إلى الجمهور ولا ينفر منها. ولا أنصح أي مدير إذاعة بأن يسعى إلى تثقيف الناس على نحو مكثف، فهو سيفلس بسرعة. الراديو لن يحل مشكلة ضعف التعليم في البلد. إنه في أحسن الأحوال أداة للتوعية، وإقناع الجمهور بمفاهيم معينة عن طريق بث حقائق واضحة ومختصرة عن هذه المفاهيم.

تثقيف الشعب مسؤولية خطيرة على الدولة والمجتمع المدني أن يقوما بها بانتهاج وسائل عديدة ليس من شأننا هنا أن نعرض لها. والراديو بالتأكيد وسيلة مهمّة من هذه الوسائل.

الأمير

(موسيقى الإشارة)

ص1 : عزيزي المستمع أهلاً بك في عالم الكتب

ص2 : " على الحاكم أن يجمع قوة الأسد إلى دهاء الثعلب ، يجب أن يكون محترساً على الدوام ، وألاّ تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه . يجب أن ينقَضّ بسرعة ، وبدون سابق إنذارٍ على خصومه . وإذا ما أصاب أحدهم فلتكن إصابةً قاتلة . فإنه يجدر بالأمير أو الحاكم إما أن يُحسِنَ إلى الرجال وإما أن يقضيَ عليهم . فالخصم ينهض من الضربة غير القاضية لينتقم . الأمير الذي ينهج طريقاً وسطياً ، ويفتقر إلى الحزم ينتهي به الأمر إلى السقوط . "

ص1 : مَن يمكن أن يكون صاحب هذه الكلمات سوى صاحبِ العبارة الشهيرة " الغاية تبرر الوسيلة " . هذه كلمات نيقولا ماكيافيللي في كتابه . . الأمير . .

(موسيقى)

ص1 : كان يحلو لماكيافيللي أن يصدم قُرّاءه بعبارات يبدو فيها شريراً. لكنه كان بشكلٍ عام يعني ما يقول . لقد أرسى دعائم فكره السياسي على دراسة غرائز الإنسان . وصف ماكيافِللي الأمير الناجح ، وحذّر أمراء الدويلات الإيطالية المتناحرة في زمنه من أمور من شأنها أن تطيح بعروشهم المقلقلة . نصح ماكيافيللي الأمير بالتخلق بالبخل لا بالكرم .

فالكرم يؤدي إلى فرض مزيد من الضرائب وإلى الفقر . وحذّره من الرأفة . . فالأمير المهيب خير من الأمير المحبوب ، إذ إن الناس عموماً ناكرون للجميل مراءون ميالون إلى تجنب الأخطار وطمّاعون .

ص2 : " . . وهم معك ما دمتَ تفيدُهم . . إنهم يقدمون إليك الوعود ببذل دمائهم وأطفالهم في سبيلك ، لكنهم ينكثون بوعودهم . الناس يترددون قبل أن يسيئوا إلى الأمير الذي يخافونه ، ولكنهم يسيئون إلى الأمير المحبوب . "

ص1 : بعد ست عشرة سنة يحتفل المفكرن السياسيون بمرور خمسة قرون على وضع كتاب الأمير . . هذا الكتاب الخالد الذي لا تتجاوز صفحاته المئة والعشرين عدداً. لقد قرأه في القرن العشرين – من بين

الملايين التي قرأته- موسوليني زعيم الفاشست الإيطاليين الذي كتب فيه أيضاً أطروحة جامعية، وقرأه هتلر ولينين وستالين وتشرشل.

سنقرأ عليكم هنا مقاطع طويلة من الكتاب حتى نتلذذ بلهجته الصريحة. وقد نتوقف عند حياة مؤلفه، لكننا لن نطيل التوقف. وقد رأينا النقاد الذين يكتبون المقالات عن كتاب الأمير ينسوْن أنفسهم ويطيلون اقتباساتهم. لغة الكتاب لاذعة وشريرة وتغري بالاقتباس.

ص2: "الدولة التي تحتل أخرى وتضمها إليها يمكنها بسهولة الاحتفاظ بها إذا كانت الدولة المضمومة غير متعودة على الحرية. وعلى من يريد الاحتفاظ بممتلكاته الجديدة أن يجعل نصب عينيه أمرين مهمين: أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبديل جوهري في القوانين وأنظمة الضرائب.

ولتسهيل عملية الضم ينبغي على الأمير أن يجعل مقره في البلاد التي ضمها. والأفضل إقامة مستعمرات تقيم فيها جالياتٌ في مكان أو مكانين استراتيجيين فهذا سيلغي الحاجة إلى قوات عسكرية كبيرة. ولن تكلف هذه الجاليات الأمير سوى القليل في البداية. وهذه الجاليات المستعمِرة لن تسيئ إلاّ إلى فئة محدودة من السكان هم الذين أُخذت أراضيهم ليقيم فيها السكان الجدد. وهم يصبحون بعد فقدهم الأرض مشردين فقراء. ولكن لا يمكنهم إلحاق الأذى بالأمير. وأما الآخرون فسوف يحافظون على الهدوء جلباً لرضى الأمير."

ص1: وينصح ماكيافيللي الأمير المحتل باجتذاب صغار الوجهاء إلى صفه، فهم حاسدون للوجهاء الكبار المتحكمين في شؤونهم. ويخبرنا أن الرومان اتبعوا هذه الطريقة في جميع المقاطعات التي احتلوها إذ غرروا بصغار الوجهاء، وأخمدوا سلطان الأقوياء.

(موسيقى)

لا شك أن ماكيافيللي استخلص نتائجه مما كان يجري على الساحة السياسية الإيطالية في زمنه، فقد كانت الدويلات والإمارات في صراع دائم، وكان النفوذ الفرنسي والإسباني يزيدان وينقصان هنا أو هناك في جوانب شبه الجزيرة الإيطّالية. وكانت دولة الفاتيكان القوية في الوسط تشع مؤامراتٍ ودسائس، وتمتد أو تتقلص تبعاً لطموحات وتحالفات البابا القائم. وقد قام نيقولا ماكيافيللي بالعديد من السفارات إلى البندقية وألمانيا وسويسرا. ومن قلّة الإنصاف أن نغفل قدرته على تحليل أنظمة الحكم في الدول الكبرى.

ص2 : "ثمة مملكة يحكمها أميرٌ ونبلاء . . ومملكةٌ يحكمها أميرٌ وموظفون . ومن الأمثلة على هذين النوعين في زمننا مملكة فرنسا وحكومة الأتراك . فالسلطة التركية يحكمها حاكم واحد والباقون خدمٌ له ورعايا ، وهو يبعث الموظفين الإداريين إلى السناجق ويعزلهم متى شاء . أما ملك فرنسا فيحيط به عدد ضخم من النبلاء الذين ورثوا ألقابهم ، وهم موضع احترام ومحبة من الرعية . وليس في وسع الملك تجريدهم من امتيازاتهم إلا في مخاطرةٍ كبيرة . من الصعوبة بمكان احتلال دولة الأتراك لأن موظفيها لن يتآمروا مع القوة الغازية على السلطان . ولكن . . إذا تم الانتصار على دولة الأتراك فمن السهل الاحتفاظ بالمناطق المحتلة . ومن ناحية أخرى من السهل التآمر على دولة فرنسا بعقد تحالفاتٍ سريّة بين نبلائها المتنافسين . ولكن الاحتفاظ بأي أرض يتم إحتلالها في فرنسا أمرٌ عسير . "

ص1 : تسلّم ماكيافيللي منصباً سياسياً رفيعاً في الحكومة الجمهورية بمدينته فلورنسا عندما كان في التاسعة والعشرين من العمر . وكان له دور بارز في إنشاء ميليشيا من أهل المدينة للدفاع عنها وضم ممتلكاتٍ جديدة إليها . وذاق حلاوة النصر العسكري ، ولكن دوره الأساسي كان سياسياً -دبلوماسياً . وعندما كان في الثالثة والأربعين من العمر سقطت الجمهورية في فلورنسا وعاد آل مديتشي أمراء حاكمين . وسقط ماكيافيللي وسجن وعذب ، ثم نفي إلى قرية له فيها أملاك قليلة كان ورثها عن أبيه . في تلك القرية كان المفكر الكبير يعاشر الحطابين ويتحسر على مجده الزائل ويقرأ الكتب مساء . مدح آل مديتشي بالشعر والنثر دون طائلٍ ، وكتب مجموعة نصائح للأمير لورينزو دي مديتشي في كتابٍ صغير هو كتاب (الأمير) عسى أن ينّال الرضا ، ولكنه لم يحصل إلا على القليل .

وظل ماكيافيللي يتزلف لآل مديتشي أربع عشرة سنة فلم ينل إلا الفتات . وعندما كان في الثامنة والخمسين سقط آل مديتشي وعادت الجمهورية . كان أمل ماكيافيللي عظيماً في الحصول على منصب كبير لقاء خدماته الجليلة للجمهورية في عهدها الأول . ولكن تملقه لآل مديتشي جعل رجال الجمهورية يصرفون وجوههم عنه صرفاً . كانت خيبة أمله كبيرة فمات كبتاً وقهراً بعد شهر واحد من عودة الجمهورية .

حدث لماكيافيللي ما حدث لمالك الحزين في القصة المعروفة ، فما أبرعه في تعليم غيره الدهاء والخبث ، وما أعجزه عن تعليم نفسه . ولكن كتابه حفر في عقول أجيالٍ متعاقبة من السياسين أخاديد عميقة . عندما يصف كيف جمع أغاتوكليس الصقلّي أعضاء مجلس الشيوخ في سيراقوزة للتشاور ثم أغلق الأبواب وأومأ إلى جنوده فانقضوا على الشيوخ المجتمعين وذبحوهم عن آخرهم ، وعندما يحدثنا كيف فعل أوليفي روتّو الفعلة نفسها بوجهاء فيرمو إذ دعاهم إلى مأدبة كبرى ثم ذبحهم جميعاً . . .

عندما يصف ماكيافيللي ذلك يخيل إلى المرء أن محمد علي، باشا مصر، قرأ كتاب الأمير قبل مذبحة القلعة التي قتل فيها المماليك عن بكرة أبيهم غدراً، وبعد مأدبة فاخرة. ليس هذا بعيداً. ولكن في كل حال فالأمير هو الأمير في كل عصرٍ وفي كل بلد.

وما قدمه ماكيافيللي للعلم السياسي هو أنه ترك المسألة الأخلاقية جانباً وحلل ظواهر الحكم المطلق تحليلاً علمياً.

ص2: "على الأمير أن يُظهر للناس النبل والتدين، فالناس ترى الظاهر. وفي أعمال جميع الناس، ولا سيما الأمراء، هناك قاعدةٌ.. لا استثناء لها:.. الغاية تبرر الوسيلة."

ص1: وإلى موقع آخر من هذا الكتاب:

ص2: "خير قلعة يبنيها الأمير تكون في قلوب شعبه. فعلى الرغم من إقامتك القلاع فإن من الصعب حمايتها إذا كان الشعب يكرهك."

ص1: نصيحة أخرى؟

ص2: "عليك أن تشغل عقول الناس بإنجازاتك المتلاحقة، فلا تتاحُ لهم فرصةٌ للتفكير في مواطن التقصير عندك، ولا ينالون استقراراً كافياً يجعلهم يفكرون بالتغيير."

ص1: هذا ما كتبه نيقولا ماكيافيللي قبل خمسة قرون تقل قليلاً في كتابه الأمير.

(موسيقى الختام)

حلقة من برنامج "عالم الكتب". قدمت في حوالي عام 1998 من إذاعة لندن، النص مقطّع إلى صوتين ويؤديه مذيع ومذيعة، ومن هنا ص1، وص2.

بيتٌ من الشعر

شهوات النفس

قبل عشراتِ السنين كنا نجلس في غرفة الدرس في الكلية. الأستاذ عجوز خنق الثمانين -واللهِ-. وفي أول صفٍ كانت تجلس فتاة بيضاء بضة. . والبضة هي الطريّة. كان ذلك في أيام الميني جوب، ولم يكن الميني جوب جريمة آنذاك. بدأ الأستاذ الدرس. . شرح قليلاً ثم صمت، ثم صاح بها: يا فلانة بنت فلانٍ الكذا (وذكر مهنةُ أبيها) نحن لحمٌ ودم. . أخرجي من غرفة الدرس. وخرجت. وران علينا صمت القبور.

ومضت سنينٌ كثيرةٌ، وكأنما نسيت ذلك المشهد ونسيتُ العِبرة منه. صرت عندما يعتلجُ الصدر بالرغبات أعلل نفسي بأن الشيخوخة ستذهب بهذا كله فيستريح المرء ويتمتع بأمور معاشه الأخرى. وذات يوم، قبل نحو أربع سنوات سألت صديقاً لي عجوزاً فات السبعين عن الأمر فقال: تذهب القدرة إلا بعضَها، ويبقى الاشتهاءُ إلا بعضَه. فتنهدتُ. هذا شئ مخلوق معنا، ولايموت إلا بموتنا.

حديثي كما وعدتُ في عنوانه، عن الشعر. معروف الرُصافي، شاعر العراق الذي مات قبل خمسين سنة، رأى في الطريق إمرأة يَهْصُرُ، أي يُميلُ، التبختُر قدّها.

لقيتُها في الطريق عابرةً ... يهْصُرُ منَ قدِّها تبختُرُها
أعجبها منظري، وأعجبني ... بالحسنِ عند اللقاءِ منظرُها
فصار قلبي بالحب يأمرني، ... وقلبُها بالغرام يأمرُها
وحين مرّت والشوق يُسكِرني ... بخمرةٍ تارةً ويُسكِرُها
لَفَتُّ جيدي أرى أَتَنْظُرُني ... والتفتَتْ لي تَرى أأنظُرُها
فقلتُ والشوقُ فيّ ملتهبٌ: ... إن عَذَرتني فسوف أعذِرُها

حبذا نظرةٌ فاسقة لم يتبعها فسوق.

الرصافي التقط بعدسته الشعرية الحساسة موقفاً من مواقف الشعور، وعرضه بوضوح يأخذ بالنَفَس.. يجعل السامع يتذكر ما مرّ به من مواقف مشابهة.

ألم يمرّ بي موقف رشقتُ فيه امرأةً بنظرة، فإذا هي في الوقت نفسه ترشقني بنظرة تحمل المعنى نفسه. ألم أحِسّ عندئذٍ بأنني مقيدٌ بأغلال الأعراف والعادات، فلا أستطيع أن أقْدم على أي خطوة. ألم أتمنّ أن تلتمس لي شريكتي في النظرات عُذراً. ألم أقل لنفسي: (إن عَذرتني فسوف أعذِرُها).

سامحني عزيزي المستمع إن أوردت على سمعك ما لم تقرأْه في كتب المدارس. فالرصافي بحرٌ ليس في كتب المدارس منه سوى ساقية. وديوانه موجود في المكتبات العامة.. ومن يقرأ الدواوين في هذه الأيام.

(إعادة الأبيات).

انتهت الخاطرة.. عسى ألا تكون أزعجت المستمع الكريم، ولا بدّ من أن أقول شيئاً آخر أُتمُّ به الدقائق الخمس. سيكون حشواً بالطبع. ونرجو أن يكون مثلَ حشو اللوْزَيْنَج. واللوزينج حلوىً فارسيةٌ أخذها العرب فيما أخذوا عن الفرس، وهي رقائق تحشى بلوزٍ مدقوق وسكر.. والحشو فيها أطيب من القشرة.

مدح عوفُ بن مُحَلّم الخزاعي عبدَ الله بن طاهر قائلاً:

يا ابن الذي دان له المشرقانِ	وأُلبِسَ العدلَ به المغربانِ
إن الثمانينَ -وبُلّغتَها-	قد أحْوَجَتْ سمْعي إلى تُرْجُمانِ

وقد مات عوف بن محلم وهو في الرابعة والثمانين. المهم.. تذاكر قوم في مجلس الصاحب بن عباد قصيدة عوف وقال أحدهم إن كلمة بُلّغْتَها في البيت حشو لا يستدعيه السياق:

إن الثمانينَ وبُلّغتَها (أي أدعو لك أن تعيش وتبلغها أيها الأمير) قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقال الصاحب: هذا هو حشو اللوزينج الذي هو أطيب شئٍ فيه.

نعيد بيتي عوف مع إضافة ثالث إليهما من نفس القصيدة يستدعيه سياق حديثنا أيما استدعاء:

يا ابن الذي دانَ له المشرقانِ	وأُلبِسَ العدلَ به المغربانِ
إن الثمانينَ - وبُلّغْتَها -	قد أحْوَجَتْ سمْعي إلى تُرْجُمانِ
وهِمْتُ بالأوطانِ وجداً بها	وبالغواني، أينَ مني الغواني

فهذا شيخٌ آخر يهيم بالغواني أي بالحسان، أو الحسناوات بلغة الصحافة، وأين منه الحسناوات!

إمّا شاعر وإمّا ناقد

ما زالت أفتح الجريدة على الصفحة الثقافية، بحكم العادة. تكاد تُغثي نفسي المقالاتُ الكثيرة والتحليلات الكثيرة عن الحداثة والتراث، التراث والحداثة، إنها ظاهرة. ليست جديدة. . فالأمر مستمر منذ سنوات. كأنه صار لا شغل للمتأدِّبين والنقّاد إلا أن يصنفوا أنفسهم وأن يفهموا علاقتهم بالتراث.

أتخيل مطربةً تقف على خشبة المسرح لتقدم أغنيتها. لكنها قبل أن تصدح بشئ تأخذ في مجادلة أفراد الفرقة الموسيقية بشأن تصنيف الأغنية فتقول: إنها موشح. فيعترض عازف العود قائلاً: بل دورٌ، ويقول عازف النايّ: بل مونولوج. وتجلس المطربة على كرسي. وتبدأ في سرد مميزات الموشح والدور والمونولوج. وتأخذ في تحليل كلمات الأغنية وأوزانها الشعرية وضروبها الموسيقية. ويكاد ينفجر الحاضرون الدافعون دنانير كثيرةً كي يسمعوا غناء تلك المطربة. ثم إنها تقدم أغنيتها، فينصرف الناس غير حاسِّين بشئ من طربٍ أو تأثر. ويقولون: سمعنا جعجعة وتحليلاً وتصنيفاً ولم نسمع غناء.

الشاعر صار يثير حول قصائده الباردة زوبعة نقدية، صار يشتغل شاعراً ساعة من النهار وناقداً سبع ساعات. ولعل في موقف أبي الطيب المتنبي من النقد عبرةً ودرساً. كان المتنبي يقول إنه ينام ملءَ جفونه عن كلماته، لكنّ هذه الكلمات يسمعها حتى الأصم، ويسهر الناس يحفظون أشعاره ويختصمون في معانيها:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتُ كلماتي من به صممُ

أنام ملءَ جفوني عن شواردها ويسهر الخلقُ جرّاها ويختصمُ

كانوا يسألونه كثيراً عما قصده من قوله كذا أو كذا فلا يجيب. حتى أقرب النقّاد الأصدقاء إلى نفسه: ابن جنيّ. . الذي قرأ على الشاعر نفسه ديوانه. . لم يكن يحظى منه بتفسير، اللهم إلا الإيماءة هنا، والإشارة هناك.

ولأتجاوز عما بدأت الخوض فيه من هجاء مرّ للشعراء والنقاد ولألتفت إلى هذين البيتين. فيهما روح الطفل المتفوق في المدرسة الذي يقول لك: أنا لا أذاكر ولا أتعب نفسي في الدرس ومع ذلك أحصل على مئة من مئة. فيهما فخر مَقَتَه جداً معاصرو المتنبي من الشعراء والنقّاد وأحبّه الناس بعد موت الرجل حتى يومنا هذا. كرهه أولئك لأن المرء يكره المفتخر بنفسه، وأحبّه هؤلاء لأنه فخر صادق غير مغلّف بالتواضع المزيف.

تعصب معاصروه عليه فانتقصوا أدبه وحاربوه في رزقه . وألفوا الكتب والرسائل في الزراية على شعره . وتعصبت الأجيال اللاحقة له . كان المعرّي كلما روي البيت (أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي) يقول : " أنا هو ذلك الأعمى " . كأنّ المتنبي كان يعرف أن رجلاً أعمى سيأتي بعد مئة سنة وينظر إلى أدبه .

المعرّي وضع شرحاً لأبيات من ديوان المتنبي سمّاه (معجز أحمد)، وفي الاسم تورية لطيفة . فمعجز أحمد هو القرآن الكريم باعتباره معجزة النبي محمد الذي من أسمائه، كما تعلمون، أحمد. والمقصود هو غير ما ينصرف إليه الذهن أول وهلة . . المقصود ديوان المتنبي أحمد بن الحسين الذي أعجز به الشعراء .

ما زالت موجة تقديس المتنبي في صعود . . وكأنما قدّر لهذا الرجل المتعاظم التياه الذاهب بنفسه كل مذهب، المتعالي على الناس، الذي ادّعى النبوة، أن يظلَّ موضع تقديس بعد مرور ألفٍ وإحدى وستين سنة هجريةً على وفاته، وبالسنوات الميلادية فهي ألفٌ وتسعٌ وعشرون سنة .

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي　　　وأسمعت كلماتي من به صمـم

أنام ملءَ جفوني عن شواردها　　　ويسهر الخلق جرّاها ويختصـم

بناتي وسيئاتي

لولا بناتــي وسيئاتـــــي　　　لَطِرتُ شـوقاً إلـى الممــــات

لأننــي فــي جــوارِ قـــومٍ　　　بغّضَــني قربُهــم حياتـــــي

هذان البيتان (اللذان نفتتح بهما) منسوبان لشاعر مغمور اسمه المنصور التميمي عاش في أوج دولة بني العباس . وقد كذب فيهما كذبة الفأرة . فلا أظن أحداً يحتمل الحياة فقط للقيام بواجب بناته أو خوفاً من رجحان كفة سيئاته .

والفأرة المذكورة هي من فئران أحمد شوقي في قصائده القصصية الخرافية . أكل القط ابنها، فراحت تتمنى الموت بعد فقدانه، فسمعها القط فأتاها يريد أن يحقق أمنيتها :

ففزعــت لمـا رأتــه الفـــارة　　　واعتصمــت منــه ببيت الجـارة

وأشرفت تقـــول للسفيـــهِ　　　إن مُتُّ بعد ابني فمن يبكيـــهِ

إذن فالفأرة تريد أن تعيش فقط لكي تندب ابنها وتقوم بالواجب.

لولا بناتـــي وســـيئاتـــــي   لَطِرتُ شوقـــاً إلــى المـــات
لأننـــي فــي جـــوارِ قـــومٍ   بغّضَنـــي قربُهـــم حياتـــــي

الشاعر المنصور التميمي يشكو ممن حوله من الناس شكوىً عباسية.. شكوى المجتمع البغدادي المستريح، شكوى فيها التصنع. وليس فيها صدق شكوى الشعراء الذين عاشوا شظف البوادي. وأولئك إذ يشكون –وقلما يفعلون– فإنما يشكون بحُرقة وصدق، ويتوجعون كالحيوان الجريح الذي لا يئن كاذباً. والإنسان قلما يئن صادقاً.

أحببت جداً قولته (لولا بناتي). ذكرتني بقول إسحق بن خلف:

لولا أميمةُ لم أجــزع من العَدَمِ   ولم أقاس الدجى في حِنْدِسِ الظُلمِ
وزادني رغبةً في العيش معرفتي   ذلّ اليتيمَـــةِ يجفوهـا ذوو الرّحِـمِ

فابن خلف يجزع من العدم (أو الموت) لأنه يعرف أي ذلّ يلحق اليتيمة. ولا أَصِمُهُ بالكذب. الأحمق الأحمق الذي يقول لك: لو متُّ فإن لبناتي من العمومة والخؤولة ما يكفيهن. والحصيف الحصيف هو الذي قد يحسن الظن بالناس كل الوقت فإذا ما دار الأمر على بناتٍ يخلّفهن وراءه هالكاً فإنه يسئ الظن حتى بأخيه لأمه وأبيه.

وهذا عيسى بن فاتك الخطيّ الشاعر الخارجي.. كان كلما أراد (الخروج)، أي عصيان الدولة، تعلّقت به بناتُه فيقعدُ عن التمرد. وفي ذلك قال:

لقـــد زاد الحيـاةَ إليّ حبـــاً   بناتـي، إنهنّ مـــن الضّعـــافِ
مخافة أن يَرَيْنَ البؤسَ بعـدي   وأن يشـربْنَ رَنْقـاً غيـرَ صـافِ
وأن يُضطّرُهُنّ الدهرُ بعـــدي   إلى جَلِـفٍ مـن الأعمـامِ جـافِ

ويخبرنا الخطيّ أن بناتِه يقلْن له كلما أزمع الخروج أي العصيان:

أبانـا.. مـن لنـا إن غبـتَ عنـا   وصار الحــيُّ بعـدَك في اختـلافِ

الشاعر اللصّ

من راقبَ الناسَ مـات غمّـــاً   وفـــاز باللــــذة الجســـورُ

سَلْمٌ الخاسر.

أما سلم فاسمٌ سمّاه به أبوه، ولا يَدَ له فيه. وأما الخاسر فلقبٌ جرّه على نفسه. ورث سلمٌ عن أبيه مُصحفاً، والمصاحفُ في ذلك الزمن، قبل ألف سنة منسوخةٌ باليد عزيزةٌ، فباع سَلْمٌ المصحف واشترى بالدراهم طنبوراً يعزف عليه الألحان، فقالوا له: بعت الآخرة بالدنيا وبُئْتَ بالخسران المبين. وصار يدعى سلماً الخاسر، وراحت عليه.

سلمٌ الخاسر هذا ليس صاحبَ معنىً بكرٍ في بيته، بل لصاً مُغيراً، سرق أستاذه بشارَ بن برد.

بشارٌ في أيام سلم كان أكبرَ شاعرٍ في دنيا العربية. كان زعيم المجّان. وكان ماجناً بالطبع، شهوانياً لا يعرف إلا اللذة الحسية. وديوانه شاهدٌ على ذلك. يقول بشار:

قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم: ما في التلاقي ولا في قبلةٍ حرج

من راقب الناس (أي: اهتم بهم والتفت إلى اعتراضاتهم) لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

واللهج هو الذَّلِق اللسان الذي يحسن التودد إلى النساء بالأحاديث الحلوة. وأما الفاتك فهو في قاموس مُجّان ذلك العصر: الرجل الجريء الذي يصل إلى ما يريد ولا يرعوي، هذا هو الفاتك.

معنى البيت أن الذي يهتم بكلام الناس يخيب. ولا يفوز بالطيبات واللذائذ إلا الجريء الحلو اللسان:

من راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجته وفازَ بالطيباتِ الفاتكُ اللّهِجُ

قال بشار بيته وأفرغ صدره من هذا المعنى الدقيق، وجاء تلميذُه وخريجه سلمٌ الخاسر فسرق المعنى وقال:

من راقبَ الناس ماتَ غماً وفاز باللذة الجسورُ

فغضب بشار غضبة مضرية، وحلف لا يُكلّمنّ سَلْماً، وراح يشتمه في المجالس. فاستشفع قوم لسلم وجاءوا به فقبّل رأس بشار، ولكن بشارا وبخّه وعنفه. وقال له: تأخذ معناي الذي تعبت في استنباطه وتكسوه ألفاظا أخف من ألفاظي حتى يسير بيتك ويروى، ويذهب شعري.. لا والله لا رضيت عنك أبدا. وراح سلم يتضرع وراح القوم يشفعون له حتى رضي بشارٌ عنه.

ومات بشار ومات سلم ومضت مئات السنين.. ولكن بيت سلم الخاسر

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

ظل حيّا يحفظه طلاب المدارس، وإن أساء فهمه تسعون بالمئه منهم وحملوه على محمل البراءة، وظنوه بيتا من أبيات الحكمة السائرة، وإنما هو في الحقيقة دعوة إلى عدم الاكتراث بالناس والمبادرة إلى الملذات. أما بيت بشار فمات على الألسنة وإن حفظته لنا الكتب.

قيس بن الخطيم

موضوع اليوم مؤجّل من الأسبوع الماضي.. نقعته في الخلّ لأنني كنت قد أنفقت دقائقي الخمس قبل أسبوع وأنا أتلمّس الطريق إلى موضوعي وسط المقدمات والديباجات. آن لي أن أعرف من نفسي هذه الخصلة فلا إرجاءَ في هذه المرة.. سأتحدث عن قيس بن الخطيم.

وصفه صاحب الأغاني بأنه كان مقرون الحاجبين (وتلك صفة كان يحبها العرب في الرجل ويكرهونها في المرأة)، أدعج العينين أي أنهما كانتا سوداوين واسعتين، أحمر الشفتين، براق الثنايا.. كأن بين أسنانه برقا.. ليس هذا فحسب، اسمع بقية الوصف: ما رأته حليلة رجل قط إلا ذهب عقلها. وقيس هذا عاش في يثرب ومات قبيل الهجرة النبوية.

كان قيس من الأوس. قُتل جدُّه عدي ثم قُتل أبوه الخطيم وهو طفلٌ لا يعقل. وخافت أمه عليه أن يسعى في ثأرهما فوضعت أحجاراً أمام الدار وأفهمته أن هذا قبر أبيه وجدّه فصدق. ثم إنه ذات يوم صرع صبياً في الحيّ، فقال له الصبي: أما تجرب قوّة ساعديْك على قاتلي أبيك وجدك! فانطلق قيسٌ إلى أمه ووضع قائم سيفه على الأرض وجعل طرفه في صدره، وقال لها: واللهِ لتخبرينني عمن قتل أبي الخطيم وجدّي عديّاً أو لأتحمّلنّ على هذا السيف حتى يخرجَ من ظهري فأخبرته.

وانطلق قيس يطلب ثأر جده وأبيه حتى أدركه. وقال في ذلك قصيدةً هي إحدى اثنتين تزينان ديوانه.

يبدأ قيسٌ قصيدته بالغزل على عادتهم:

تذَكّرَ ليلى، حسنَها وصفاءها ... وبانت، فأمسى ما يَنالُ لقاءها

ومثلَك قد أصبَيْتُ ليست بِكَنّةٍ ... ولا جارةٍ أفضتْ إلي حيــاءها

يقول لها إنني جعلت امرأةً مثلك تميل إليّ لكنها ليست كَنّةً لي ولا جارة أطلعتني على أسرارها.. والرجل الشهم لا يلهو بقلوب قريباته ولا جاراته.

وقد توافقني على قولي (ومثلَك) بالفتح : فكأنما هو يقول أَصْبَبْتُ مثلَك، ولكن قدّم وأخّر . أو لعلك تفضل روايةَ الديوان (ومثلِك) بالكسر : على أن الواو هنا واو ربّ حرف الجر الزائد الذي يجر لفظاً . أو لعلك تتبع رواية الأغاني (ومثلُك)، رفعها لأنه بدأ بها الكلام .

وما أدخلني في هذه المتاهة إلا أنني ردّدْتُ البيت من الحافظة بنصب الكلمة ثم نظرتُ في الديوان فوجدتها مخفوضة ثم في الأغاني فوجدتها مرفوعة . . فاكتملت فيها جميع الحالات من رفع ونصب وجر . سبحان الله لو كان يصحّ أي تشكيل في كل الكلمات لهانت المسائل ولاشتغل كلّ الناس مذيعين . . ولنمنا في الشارع .

يمضي قيس بن الخطيم في قصيدته :

ثأرتُ عديّاً والخطيم، فلم أُضِعْ ... ولايةَ أشياخٍ جُعلتُ إزاءهـــا

ضربتُ بذي الزِّرّيْنِ رِبْقَةَ مالكٍ (أي ضربت بسيفي المسمّى ذا الزرين رقبة أو ربقة مالك)

ضربتُ بذي الزرين ربقة مالك ... فأُبْتُ بنفسٍ قد أصبتُ شفاءها

طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشعاعُ أضاءهـا

يصف الطعنة بأنها نافذةٌ إلى الجانب الآخر، ولولا تدفق الدم لرأيتَ الضوْءَ من ذلك الثقب الذي صنعته الطعنة بجسم الرجل المسكين .

وكنتُ امرَءاً لا أسمعُ الدهرَ سُبّةً ... أُسَبُّ بها إلا كشفتُ غطاءهـا

وإنيَ في الحرب الضروس موكّلٌ ... بإقدامِ نفسٍ ما أريدُ بقاءهـا

إذا سَقِمَتْ نفسي إلى ذي عداوةٍ ... فإني بنصلِ السيف باغٍ دواءهـا

متى يأتِ هذا الموتُ لا تبقَ حاجةٌ ... لنفسيَ إلا قد قضيتُ قضاءهـا

وهذا البيت الأخير حقيق أن نتأمله . . الموت هو الخط الذي تخطه تحت المسألة الحسابية وأنت تدقق في صحتها . . لابد أن تكون النتيجة صفراً . . حتى تثبت صحة الحل .

متى يأتِ هذا الموتُ لا تبقَ حاجةٌ ... لنفسيَ إلا قد قضيتُ قضاءهـا

ولا يحسن بنا أن نترك قيس بن الخطيم، الذي قلنا إن ديوانه يزدان بقصيدتين، وقد ذكرنا شيئاً من إحداهما دون الأخرى . فأما هذه الأخرى فهي بائية يبدأها أيضا بالغزل : يصف محبوبته وهي تسارقه

النظرات من وراء خبائها . . كأنها الشمس وراء الغمام :

تبدّت لنا كالشمس تحت غمامةٍ بدا حاجبٌ منها وضنّت بحاجبِ

يقول قيس بن الخطيم في هذه القصيدة :

وكنتُ امرَءاً لا أبعثُ الحرب ظالماً فلما أَبَوْا أشـعلتُها كلّ جانـبِ

أَرِبْتُ بدفع الحربِ حتى رأيتُهـــا عن الدفعِ لا تزدادُ غيـرَ تقارُبِ

فلما رأيتُ الحربَ حرباً تجــردَتْ لبستُ مع البرديْنِ ثوبَ المحاربِ

وهذه الحرب التي يصفها هي التي جعلت الأوس والخزرج يُهرعون إلى الرسول وهو في مكة . . وقيل أن إمرأة قيس كانت في أحد الوفود وأسلمت سراً ، وإن قيساً ورد على الرسول في وفدٍ لاحق ووعد بالإسلام . فسأله الرسول أن يجتنبَ زوجته وأوصاه بها خيراً وأبلغه بخبر إسلامها . فحفظ قيس وصية الرسول . وبلغ ذلك الرسول فقال " وفى الأُديعِج " أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

ومات قيسٌ قبل هجرة الرسول إلى يثرب التي حلّ بها السلام بين الأوس والخزرج إلى الأبد .

على أن من رواة الأدب وأصحاب الأخبار من يقول إن كلّ ما كان بين الأوس والخزرج ، إنما كان مشاجراتٍ لا يجرح فيها أحد بَلْهَ أن يقتل . قال أحدهم : كانوا يخرجون فيتراموْن بالحجارة ويتضاربون بالخشب . وقال آخر تعليقاً على بيت قيس بن الخطيم :

أجالدهم يومَ الحديقةِ حاسراً كأن يدي بالسيفِ مخراقُ لاعبِ

قال : ما اقتتلوا يومئذٍ إلا بالرطائب والسعف .

فقرات إذاعية ضمن برنامج عن الشعر تم تقديمها من إذاعة لندن في أواسط التسعينات . يلاحظ فيها أنها تخاطب جمهوراً متخصصا ، فالبرنامج كان يقدّم لعشّاق الشعر ، ولم يكن لزاماً عليّ في هذه الفقرات أن أبسّط خطابي بحيث يكون مناسباً لكل المستمعين ، وترجع طريقة صوغ المادة إلى كون جمهور تلك الإذاعة من المثقفين والكبار في السن .

أصحاب الواحدة: شعراء خلدتهم قصيدة يتيمة

عُروةُ بن حزام

عُروةُ بن حزام. وقصيدته:

خليليّ من عُليا هلالِ بنِ عامرٍ   بصنعاءَ عوجا اليومَ وانتظراني

نشأ عروةُ يتيماً في كنف عمِّه. وأحبَّ ابنة عمِّه عفراء. فلما شب وشبت، ولحق بالرجال ولحقت بالنساء، قال له عمُّه هي امرأتُك بعد حين.

وعاش عُروة على هذا الأمل. ولكن زوجة عمه رأته فقيراً فوقفت في طريق زواجه بابنتها. فقال له عمه: اذهب والتمِسْ رزقاً. واشتَرَطَ عليه ثمانين ناقة نزولاً عند رغبة زوجته.

ذهب عُروة إلى اليمن. وفي غيبته جاء رجل موسر من الشام وخَطَبَ عفراءَ فألّحت أمها على أبيها حتى قبل وزوّجها منه. وحملها الرجل إلى الشام.

وعاد عُروةُ بعد سنةٍ ومعه مئةُ بعير. فقال له عمه: ماتت عفراء، وأخذه إلى كومة حجارة وقال: هذا قبرُها. فظل عُروة يتردد على المكان أياماً حتى أخبرته فتاة من الحيّ بالحقيقة فجزعَ وتزوّد وانطلق إلى الشام. ونزل بزوج عفراء ضيفاً دون أن يخبرَه بنسبه. وفي الصباح وضع عروة خاتمه في قعبِ اللبن وطلب من الجارية أن تدفع القعب وفيه بقية من لبن إلى عفراء. فرأت الخاتم في القاع فشهقت وعرفت أن الضيف الزائر هو عروة. فتشاكيا وبكى كل من همّه للآخر. ولما عاد الزوج عرّفه عروة بنسبه. فعزم الزوج عليه أن يبقى، فأصر عروة على الرحيل. فعرف الرجل أن الحب أتلفه، وأنه لا شفاء له. وأقسم عليه أن يبقى، ووعده أن يطلّق عفراء حتى يتزوجها. لكن عروة أبى حياءً وكرماً ورحل من فوره. وظلّ جسمه يهزل وينحل حتى صار جلداً على عظم. وعرج أصحابه به في الطريق على عرّاف نجدٍ وعلى عرّاف اليمامة فما عرفا لعشقه دواء.

ومات عروة قبل أن يصل إلى دياره . وقبيل موته قال قصيدته التي عُرف بها :

خليليّ من عُليا هلالِ بنِ عامرٍ بصنعاءَ عوجا اليوم وانتظرانـي
متى تكشفا عني القميصَ تَبيّنا بيَ الضُـرّ من عفراءَ يا فتـــيانِ
إذن تَرَيا لحماً قليلاً وأعظُمـــاً بَلينَ وقلبــاً دائمَ الرّجَفـــــانِ
على كَبِدي من حبّ عفراءَ قَرحةٌ وعينايَ من وجدٍ بها تَكِفـــانِ
فيا ليتَ كلّ اثنين بينهما هـــوىً من النـاسِ والأنعـامِ يلتقيـانِ
فيقضي حبيبٌ من حبيبٍ لُبــانةً ويرعاهمـــا ربيّ فلا يُـرَيـــانِ
تحمّلتُ من عفراءَ ما ليـس لي به ، ولا للجبال الراسياتِ ، يدانِ
كأنَّ قَطــاةً عُلّقَتْ بجناحِهـــا على كَبِدي من شِدّة الخَفَقـــانِ
جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حُكْـــمَهُ وعرّافِ نجدٍ إن هما شَـــفَياني
فقالا : نعم، نَشفي من الداءِ كلِّه وقاما مع العُــوّادِ يبتَـدِرانِ
فما تركا من عُوذَةٍ يعرفانِهـــا ولا رُقيـةٍ إلا بهــا رَقَيـانـي
وقالا : شـــفاكَ اللهُ واللهِ ما لنا بما حملتْ منكَ الضلوعُ يـدانِ
يكلّفُني عمّي ثمانـينَ ناقـــةً ومـا ليَ يا عفـراءُ غيرُ ثمـانِ
تكنّفَني الواشونَ من كل جانبٍ ولو كان واشٍ واحدٌ لَكَفانـي
تحملتُ زَفْراتِ الضحى فأَطقْتُها ومالي بزَفْـرات العشيّ يدانِ

عروةُ بنُ حِزام .

ابن زُرَيْقٍ البغدادي

ابنُ زُرَيْقٍ البغدادي. وقصيدتُه:

لا تعذُليــهِ فإنّ العذلَ يولِعُـــهُ	قد قلتِ حقاً ولكنْ ليس يسمعُهُ

كان ابن زريق يسكن الجانب الغربي من بغداد، الذي يسمى الكَرْخ. وكان كاتباً من فقراء الكَتَبَة في ديوان الرسائل. وقد عاش في زمن كانت فيه الخلافة العباسية ضعيفة، وكانت بغداد قد فقدت بريقها. كان ابن زريق شاعراً، ولكنه لم ينتفع بشعره.. فليس في بغداد أمير إلا وهو من أصلٍ أعجمي لا يفهم العربية. وإن فهمها فهو لا يتذوق أدبها. وكانت له زوجةٌ يحبها حباً جمّا.

وظلت نفس ابن زريق يتنازعها طمعٌ في مالٍ يحصله من وراء شعره، واقتناعٌ بوظيفتهِ البسيطة في ظل زوجته المحبوبة. وأخيراً عزم على الرحيل ليمدح أميراً من أمراء الأندلس. حاولت زوجته أن تقنعَه بالبقاء. ولكنه أحبّ أن يجرب حظه.

وصل إلى الأندلس بعد رحلةٍ شاقة دامت أشهراً. وتمكن من الوصول إلى مجلس الأمير، وألقى أمامه قصيدة كان قد أعدها في مدحه. فأراد الأمير أن يعابثَه ويمازحه (وهو يعلم أنه قد قصده من بغداد) فأمر له بجائزة مقدارها دراهم قليلة على سبيل الدعابة. ذهب ابن زريق إلى الخان الذي ينزل فيه والهمّ يحيط به من كل جانب. وقضى ليلته نادماً يفترسه شعور الخيبةِ والخجل. وأمسك قلمه وكتب قصيدة يقرّ فيها لزوجته بأنها كانت على حق، ويطلب منها ألا تعذله.. ألاّ تلومه.

ونام ابن زريق. وفي الصباح جاء حرس الأمير يطلبونه لكي يمثل أمام الأمير ويأخذ جائزته الحقة فوجدوه ميتاً. ووجدوا عند رأسه هذه القصيدة:

لا تعذليــه فــإن العــذلَ يُولِعُـــه	قــد قلتِ حقــاً ولكنْ ليس يسمعُهُ
جاوزتِ في لوْمهِ حــدّاً أضرّ بــه	من حيثُ قدّرتِ أن اللــوم ينفعُــهُ
فاستعمِلي الرفقَ في تأنيبه بـــدلاً	من عذلِه فهو مُضنى القلبِ موجعُهُ

قد كان مضطّلعاً بالخطبِ يحملهُ ... فضُيّقت بخطوبِ الدهرِ أضلعُهُ

ما آبَ من سفرٍ إلاّ وأزعجَهُ ... رأيٌ إلى سفرٍ بالعزم يُزمِعُهُ

كأنما هو في حِلٍ ومرتَحَلٍ ... موكَّلٌ بفضاء اللهِ يذرعُهُ

إنِ الزمانُ أراه في الرحيل غنىً ... ولو إلى السند أضحى وهو يُزمِعُهُ

وما مجاهدةُ الإنسانِ توصِلُهُ ... رزقاً، ولا دَعَةُ الإنسانِ تقطعُهُ

قد وزّعَ اللهُ بين الخلقِ رزقَهُمُ ... لم يخلقِ اللهُ مخلوقاً يُضَيِّعُهُ

أستودِعُ اللهَ في بغدادَ لي قمراً ... بالكَرْخِ من فَلَكِ الأَزْرارِ مَطلعُهُ

ودّعتُهُ وبوُدّي لو يودّعُني ... صفوُ الحياةِ وأني لا أُودّعُهُ

وكمْ تشبثَ بي يومَ الرحيلِ ضُحىً ... وأدمُعي مستهلاّتٌ وأدمعُهُ

لا أكذِبُ اللهَ ثوبُ العذرِ منخرقٌ ... عني بفُرقتِهِ لكنْ أُرقِّعُهُ

كم قائلٍ ليَ: ذقتَ البينَ، قلتُ له: ... الذنبُ واللهِ ذنبي لستُ أدفعُهُ

علماً بأن اصطباري مُعقِبٌ فرجاً ... فأضيقُ الأمرِ إن فكّرتَ أوسعُهُ

عسى الليالي التي أضنتْ بفرقتِنا ... جسمي، ستجمعُني يوماً وتجمعُهُ

وإن تَغُلْ أحداً منا منيّتُهُ ... فما الذي بقضاءِ اللهِ يصنعُهُ

ابن زريق البغدادي.

حلقتان من برنامج أدبي بُثّ من إذاعة لندن في أواسط التسعينات.

دائرة المعارف

عزيزي المستمع أهلاً بك ،

أحدثك عن عيد ميلاد وعيد وفاة ، وعن وفاة وعن غير ذلك . وأسمِعُك أغنية ستحبها إن شاء الله .

عزيزي المستمع ، احتفلتُ بعيد ميلادي مرةً واحدة في عمري كله . كنتُ أذذاك في العاشرة أو نحوها ، وعند العصر انتبهت إلى أن بيتَنا خالٍ من الناس ، وهو بيتٌ كبير ، كان ، وكان فيه الجدّ والجدّة والعمّ والعمّة وعمة الأب وابن عمه ، وإخوةٌ وأخوات . ولكنْ ، في ذلك اليوم انتبهت عند العصر إلى أن لا أحد في البيت . وكانت تدخل البيت أشعة شمس شتائية . تكدّرتُ وتذكرت أنه يوم مولدي . وكان في البيت من الفاكهة موزٌ ولستُ به من المغرمين ، ولم يكن كعك ولا فطائر . وضعت موزاً على المنضدة وصنعتُ شاياً واحتفلتُ وحدي بعيد مولدي . . وذاك يوم وهذا يوم .

أما عيد مولدي الماضي فقد تذكرته قبيل منتصف الليل وتذكره من هم حولي بعد مروره بأيام .

وإذا كان هذا حالي مع عيد ميلادي فعلام أراني أجتهد في الاحتفال بعيد ميلاد شوبرت وعيد وفاة الفيروز أبادي؟

انما أتصيد مناسبة للحديث ، ومشبكاً أعلق عليه طرفة أو نادرة أو سيرة رجل كان فيه خيرٌ لغيره .

قبل ستمئة سنة وشهرين مات مجد الدين الفيروز أبادي صاحب (القاموس المحيط والقابوس الوسيط) وهو المعجم الذي اشتهر شهرة جعلت الناس تسمي كل معجم قاموسا .

والرجل فارسي الأصل والمولد . وُلد بكارزين في فارس وعائلته من فيروز أباد ، وأخذ العلم في أول أمره في شيراز ثم في واسط فبغداد فالقاهرة وسافر في بلاد الهند والروم . وعندما أشرف على السبعين رحل إلى اليمن ، وعاش في زبيد ووصل عدن ، وزار مكة والمدينة والطائف مراراً .

وقد كرمه سلطان اليمن وكرمه تيمورلنك وتولى قضاء اليمن كلها سنين عديدة . وقد جعل جمع مفردات اللغة والفحص عن معانيها وتعقب أصولها تخصصاً له .

عندما كان الفيروز أبادي في بلاد الروم عند السلطان بايزيد الأول العثماني الملقب يلدرم أي الصاعقة سأله أهل اللغة والأدب عن عبارة لعلي بن أبي طالب ما معناها . قال عليّ لكاتبه : " ألصِقْ روانِفَكَ

بالجَبوب وخذِ المِزبَرَ بشَناترِك، واجعل حُندورتيْك إلى قَيْهلي حتى لا أَنْغِيَ نَغْيَةً إلا أودعتَها بحَماطَةِ جُلُجلانك."

فقال لهم الفيروزأبادي: هذه العبارة معناها، "أَلزقْ عِضْرطَكَ بالصَّلّة وخذِ المِصْطَرَ بأَباخِسِك، واجعلْ جَحْمَتيْكَ إلى أُثعباني حتى لا أنبِس نَبْسةً إلاَ وعيْتَها في لَمْظَةِ رِباطِك."

فعجب الحاضرون من سَعَة محفوظه من اللغة وقدرتِه على أن يترجم الغريب بأغربَ منه.

وإذا شئتَ عزيزي المستمع أن تعرف ماذا قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه قال لكاتبه: (ثبّت مِقعدتَك إلى الأرض وخذ القلمَ بأصابعك، واجعل عينيك مركّزتين على وجهي، فلا أقولُ كلمةً إلا وضعتَها في قلبك.)

وقد كتب الفيروز أبادي يوماً وهو في اليمن كتاباً إلى السلطان الأشرف سلطانها يقول فيه: "كان من عادة الخلفاء سلفاً وخلفاً أنهم كانوا يُبْردون البُرُد- أي يرسلون الرُسل - بقصد تبليغ سلامِهم إلى حضرة سيد المرسلين، فاجعلني- جعلتُ فداءَك - ذلك البريد. فإني لا أشتهي شيئاً سواه ولا أريد."

وهو هنا يطلب الإذن بزيارة مدينة النبي.

فكتب إليه السلطان مجيباً "هذا شئ لا ينطق به لساني ولا يجري به قلمي. بالله عليك إلا ما وهبت لنا هذا العمر. والله يا مجدَ الدين، يميناً بارّة، إني أرى فراقَ الدنيا ونعيمِها، ولا فراقَكَ أنت اليمنَ وأهلَه".

ومكث الفبروز أبادي بزبيد في اليمن. "ومن وجد الإحسان قيّداً تقيّدا"، كما يقول المتنبي. وباليمن مات، وقد شارف التسعين، ممتّعاً بحواسه.

فقرة من برنامج ثقافي عام.

الشعر والقرآن

الرسول ليس بشاعر . ولم يكن يروي الشعر ، وإن كان يسمعه كما كان كل عربي يسمعه . ولكن ألم يقل النبي العربي شعراً؟ لا لم يقل . لأنه لم ينوِ قول الشعر .

في إحدى الغزوات أصيبت إصبعٌ للرسول فقال :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دميتِ   وفي سبيل الله ما لقيتِ

وهذه كلامٌ موزونٌ مقفىً على بحر الرجز . وقد تم له شرطان من شروط الشعر وهما الوزن والقافية . وهما الشرطان الوحيدان في عُرف نفر من النقّاد . وبعض أولئك النقّاد أراد أن يدفع شبهة الشعر عن الرسول فقال إن ذلك الحديث ورد بتسكين التاء هكذا :

هل أنتِ إلا إصبعٌ دميَتْ   وفي سبيل الله ما لقيَتْ

ولكن . . هذا كلامٌ موزون مقفى على بحر آخر هو السريع . فما العمل؟ اهتدى النقاد إلى مخرج . قالوا إن حد الشعر هو أنه الكلام الموزون المقفى الذي قُصد به أن يكون شعراً .

وذلك أدنى للعقل . . فأنت في معاشك تقول أشياءَ كثيرةً إن تقفْ عندها تجدْ أنها موزونةٌ مقفاة ، ولكنها ليس بشعر لعدم النية . وماذا عن القرآن الكريم؟ لقد حلّ الكتاب الكريم المشكلة : "وما علّمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين " صدق الله العظيم .

ولكن الشعراء ، الذين في كل وادٍ يهيمون ، أبوْا إلا أن يعرضوا الآيات القرآنية على مسطرة الوزن . فوجدوا آياتٍ كثيرةً موزونةً على أبحر الشعر فضمّنوها أشعارهم دون أي تغيير ، ولم يعترض الفقهاء . هناك آيات هي أبياتٌ من النظم كاملةٌ مثل :

لن تنالوا البرّ حتى   تنفقوا مما تحبونْ

هذه الآية توافق مجزوء الرمل .

وكما قلنا عن الحديث الشريف ، نقول عن القرآن الكريم . فالكلام الذي لم يصدر عن نية الشعر ليس بشعر .

قد أردت إذا بدأت ، أن أتحدثَ عن البحر الطويل ، ورأيت إطرافا أن أذكر ميزانَه كما وضعه الشهاب مستخدما جزءاً من آية قرآنية في رباعية . يقول الشهاب :

أطال عذولي فيك كفرانَه الهوى وآمنتَ يا ذا الظبي فأْنــس ولا تنفُرْ

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفُرْ

وهو قد قدح زناد الفكر ليجعل الآية مكملةً في المعنى للبيت الأول. فالعذول اللائم يكفر بالحب والهوى والحبيب أو الظبي آمن به فعليه أن يأنس ولا ينفر. ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

أطال عذولي فيك كفرانَه الهوى وآمنتَ يا ذا الظبي فأْنس ولا تنــفُرْ

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفُرْ

الآية من سورة الكهف. وسأقرأُها عليك عزيزي المستمع :

بسم الله الرحمن الرحيم : (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا. صدق الله العظيم. (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون).

ولكن ماذا عن قياس الوزن؟ : هذه الآية وحدها فيها أربعة أشطر على أربعة أبحر. الشطر الأول هو الذي تقدم على البحر الطويل. و الشطر الثاني "أحاط بهم سرادقها" وهو على مجزوء الوافر(مفاعَلَتن)، والثالث (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء) على البحر المتقارب (فعولن) والشطر الرابع (كالمهل يشوي الوجوها) على البحر المجتث.

هذه آية ليست بالطويلة وفيها كل هذا فتأمل.

أردت بدءاً أن أتحدث عن البحر الطويل فطال الكلام، ولم تكن النية أن يطول. بعد أسبوع سأحاول مرة أخرى أن أحدثكم عن البحر الطويل.

المتدارك بعد حين

اليوم أعود إلى بحر من أبحر الشعر عالجته قبل أسابيع . يعيدني اليه كتاب شعر تلقيته من صديق . ذلك الكتاب قصيدة واحدة منظومة على البحر المتدارك .

ويسألني المستمع : ما بالك تتحدث عن أصدقاء لك شعراء . أليس لك أنت شعر؟ أجيب عن هذا السؤال توسلا إلى الحديث عن المتدارك . مثلَ كل تلميذ رصفت الكلمات وتصدّيت للقوافي ونظمت أبياتا . ولكن الشعر تبخر من رأسي ، وجفّ حلقي سريعا . فاكتفيت من الشعر بالعروض ، ومن الغنيمة بالإياب ، وصرت أخفي أجنتي المجهضة كما تخفي القطة فضلاتها .

ولكن صفتي العروضية المحدثة التي خلعتها على نفسي ، وأقرها علي صاحب البرنامج أبت علي الا إن أستدعي بعضَ تلك الأجنة . هاكم طِرْحاً من تلك الطروح .

القصة أولا : كان في الصف معي زميل نوّام ، وإنما يأخذه الإغفاء في درس الجغرافيا . وكان أستاذ هذا العلم سليط اللسان ، وقد هجوته بقصيدة أعارض فيها الحصري في قصيدته :

يـا ليـل الصب متى غـده ... أقيام الساعة موعـده

قلت :

مـا لِلأسـتاذ يـــردده ... قـول ، وأراه يؤكـده

أسكت أقعد وكفى نوما ... ما أحدٌ صفي مرقده

وهذ الوزن هو فعلن فعلن فعلن فعلن . البحر المتدارك . وقد يجوز لك أن تجعل في مكان فَعِلن : فَعْلن . ولكن أنظر إلى قولي (ما أحد صفي مرقده) . ما أَحَ (فاعِلُ) ، دُ صفْ (فَعْلن) ، في مَرْ (فَعْلَن) ، قَدُهُ (فَعِلُن) .

التفعيلة الأولى فاعِلُ . تفعيلة غريبة على المتدارك . لم أنتبه أيامئذ إلى هذا الغلط ، ولم يكن العروض من همّي أصلا .

ومضت الأيام وجربت رصف الكلمات على طريقة شعراء التفعيلة وقلت كلاما جاء في تضاعيفة :

توقَدُ في قلبي شمسْ
ينسيني يوميَ أمسْ
قلبيَ عُرْسْ

أنظر إلى أول الكلمة توقَدُ (فاعِلُ). ثم بعد ذلك فعْلن فعْلن. ثم أنظر إلى الشطر الأخير: قلبيَ (فاعِلُ).

تكرر الغلط واستعمال فاعِلُ إلى جانب فَعِلن وفَعْلن في المتدارك. تتمة قصتي مع الشعر أنني سكتّ وأَرَحْت. ولكن قصة (فاعِلُ) لم تتم بعد.

نازك الملائكة الشاعرة العراقية فعلت بها تلك التفعيلة ما فعلت بي. لست أشبه نفسي بالشاعرة المشهورة، ولا أقرن أسمي إلى أسمها وإلا كنت كالذي قال: سقراط إنسان وأنا إنسان. سقراط فيلسوف إذن فأنا فيلسوف. وهذا كما ترى قياس فاسد.

نازك الملائكة قالت في قصيدة لها:

كان المغرب لونَ ذبيحِ   والأفْقُ كآبةَ مجروح

كان المغرب لون ذبيح

فعْلن فاعِلُ فاعِلُ فعْلن

وقعت نازك في تفعيلة فاعِلُ دون أن تدري، قادتها سليقتها إلى هذا الخروج عن مألوف المتدارك. وتقص علينا في كتابها المهم (قضايا الشعر المعاصر) كيف أن خالها جميل الملائكة احتجّ عليها ونبهها إلى ما وقعت فيه. وأدركت نازك الملائكة ما صنعت، ولكنها عادت ونظمت على المتدارك مستخدمة فاعِلُ.

تقول في كتابها إن فاعِلُ مساوية لفَعِلن.. (إنها مقلوب فَعِلن). ولا ترى فيها ضيرا، فالأذن تقبلها والسليقة تقرها.

ولعلي خير من يؤيد الشاعرة العراقية فقد وقعت فيما وقعت فيه وأنا أعبث بالكلمات. ولكن الحصْري لصاحب يا ليل الصب لم يقع في فخ فاعِلُ. السبب فيما أرى هو أن الحصري كان يعرف العروض معرفة واعية واحترس من الخروج عما رسمه العروضيون للمتدارك.

وأتّفق مع نازك الملائكة في أن فاعِلُ مساوية ل فَعِلن وأن هذا تحديدا سبب وجيه لجعلها صورة من صور فَعِلن.

وقد عقدت نازك الملائكة لهذه القضية فصلا قصيرا في كتابها المعروف أحب أن أضيف اليه شيئا، وأنا بعد صاحب تجربة أصيلة، مع هذه التفعيلة.

أضيف أن فاعِلُ لا تكون رائقة في كل حين. ففي حين يمكن للشاعر أن يعاقب بين فعْلن وفعِلن كما

شاء لا يستطيع أن يأتي بفاعل على هواه. وإذا جاءت بعدها فَعِلن فالنتيجة أربع حركات متواليات. هاك مثالا على ذلك:

نازك كتبت يسمح لك أن تستعملها فاعل فعـلن

(نازِكُ كَتَبَتْ) فاعِلُ فَعِلُنْ، حركات كثيرة متوالية.

ولكن للحقّ.. لا أرى أن هذا يضر بإيقاع البيت:

نازك كتبت يسمح لك أن تستعملها فاعل فعلـن

لم لا، هذا نمط آخر، والمتدارك رجز آخر

لم لا هذا نمط آخر والمتدارك رجـز آخـر

فَعِلن فعْلن فَعِلن فاعِلُ فاعِلُ فاعِلُ فَعِلن فاعِلُ

وقفتنا طالت مع المتدارك ومع هذه التفعيلة...

في الأسبوع القادم نصل الحديث بحديث من جنسه عن المتدارك وعن الرجز أيضاً.

حلقتان من برنامج قدّم، في نحو ثلاثين حلقة، شرحا لعروض الشعر العربي.

بخيره وبشره.. هؤلاء صنعوا القرن العشرين

جمال عبد الناصر

حديثنا عن جمال عبد الناصر .

لو كان حيا الآن لكان عمره ثمانين سنه . مات جمال عبد الناصر سنة سبعين في أيلول ، وارتجفت لموته قلوب كثيرة . شعر الناس باليُتم ، ولا سيما الفلسطينيين ، ثم أدركوا أن فردا يحكم شعبا آخر لا يستطيع أصلا أن يصنع لهم مستقبلا . لكن لا شك عندي أن اليوم الوحيد الذي كان الناس يمشون فيه في الشارع وهم يبكون هو يوم وفاة جمال عبد الناصر . رأيت هذا بنفسي في مدينة نابلس .

(موسيقى)

عندما كانت الخصومة تشتد بين الأردن ومصر في زمن عبد الناصر . . كانت الإذاعة الأردنية تبث في كل يوم أغنية (البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي) لنجاة علي للسخرية من عبد الناصر ، كان أبوه ساعيَ بريد .

دخل عبد الناصر في الجيش المصري . وحارب في فلسطين عام **1948** وتألم لسوء أوضاع الجيش المصري . وفي عام **1952** كان أبرز الضباط الأحرار الذين أطاحوا بحكم الملك فاروق . وظل عبد الناصر الرجل القوي رغم أن رئاسة الجمهورية كانت من نصيب محمد نجيب الجنرال الكبير الذي وضعه الضباط الاحرار في الواجهة لضمان احترام الجنود لحركتهم . وفي عام أربعة وخمسين اشتبك النظام الجديد مع الإخوان المسلمين وعبأ بهم السجون . وفي سنة ست وخمسين قام عبد الناصر ، الذي أصبح الآن الزعيم الأوحد ورئيس الجمهورية ، بخطوة جريئة :

(تسجيل صوتي لقطعة من خطاب تأميم القناة)

هذا الصوت ظل يهز العالم العربي كله عشر سنوات بعد تأميم القناة وبعد النصر السياسي والمعنوي الذي حققه لمصر . كان عبد الناصر عدو الأنظمة العربية الأخرى . . الملكية والجمهورية . وكان يخوض في داخل مصر معركة ضد الإقطاع وضد الرأسمالية وقد حقق فيها انتصارات مهمة . .

لكن الاختبار الحقيقي كان المواجهة مع إسرائيل . فهل يستطيع الفقراء والفلاحون الذين ألبسهم عبد الناصر الزيّ العسكريّ . . أن يهزموا اسرائيل؟ الجواب كان : لا . وجاء الجواب في حزيران عام **67** . وأخذ عبد الناصر بعد الهزيمة يبني مصر من جديد جيشاً واقتصاداً وبعزيمة حديدية ، وزادت المعارضة له في مصر ، فقال كلمة أثرت عنه " إذا لم نتمكن من قيادة الشعب فسوف نحكمه " . وبدأ عبد الناصر حرب استنزاف مستمرة مع القوات الإسرائيلية عبر القناة . لكنه مات قبل أن يحقق حلمه في الاشتباك مع إسرائيل وإلحاق الهزيمة بها .

(موسيقى)

كره الكثيرون عبد الناصر لأنه قمعهم . . كان دكتاتوراً لا يسمح بالمعارضة . . وقد فتك بالقوة السياسية المعارضة الوحيدة في مصر ذات المصداقية : الإخوان المسلمين . وأحب الكثيرون عبد الناصر : في مصر أحبه الفقراء والفلاحون لأنه أعطاهم فرصة . . وما زالوا حتى اليوم يجنون ثمارها . . وفي كل بلاد العرب أحبه الناس لأنه كان مخلصاً . . وكان صادقاً . . وكان يريد فعلاً أن يحرر فلسطين ولكن المشكلة للأسف أنه فشل .

نجيب محفوظ

سافر نجيب محفوظ إلى يوغسلافيا ، وسافر إلى اليمن . وفيما عدا ذلك قضى التسعين سنة الماضية في القاهرة .

السنوات المدرسية أثرت فيه ، وهو يذكرها بحرارة . كان مبرّزا في الرياضيات والعلوم وصار مؤكداً تقريبا أنه سيدرس الطب أو الهندسة ، لكنه اتجه إلى الفكر لقراءته مقالات العقاد وطه حسين ، وعندما اتجه إلى الفلسفة في دراسته الجامعية انزعج أبوه ، وعاتبه مدّرسه بشارة باغوص قائلاً : لماذا تؤذي نفسك؟ وبعد اللسيانس الجامعي بدأ صراع عنيف بين الفلسفة والأدب في نفس نجيب محفوظ . . وانتصر الأدب .

(موسيقى)

هذه المعلومات عن نجيب محفوظ وردت في كتاب (نجيب محفوظ يتذكر) وهو مجموعة مقابلات أجراها معه جمال الغيطاني . عندما حسم الصراع لصالح الأدب بدأ نجيب محفوظ يقرأ الأدب العالمي بنهم فقرأ لتولستوي ودوستوييفسكي وشكسبير وإبسن وكونراد . . ولم يترك شاردة ولا واردة .

وظلت عادة القراءة مستحكمة فيه حتى أجبره الأطباء على التقليل منها بسبب تأثير مرض السكري على نظره، وظل نجيب محفوظ يقرأ الكتب الفكرية والفلسفية إلى جانب كتب الأدب، وأما عندما يكتب فإنه يستمد شخوصه من حارات القاهرة. . ويكون أنجح ما يكون عندما يستنطق طفولته.

(موسيقى)

أراد نجيب محفوظ أن يكتب تاريخ مصر الفرعونية بشكل روايات. . كان ذلك في الزمن الذي انتشرت فيه تقليعة أن مصر فرعونية لا عربية، وكتب عبث الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة. . واستخرج أربعين موضوعاً آخر. . لكنه أحس أنه لا يريد الاستمرار. . ثم بدأ يكتب القصص الواقعية. . ونجح نجاحاً باهراً في رسم صورة لمصر والقاهرة في العصر الملكي. وجاءت السينما لتجعل هذه الصورة هي ما يراه كل الناس من تاريخ كل الفترة.

والفكر يتسلل دائماً إلى قصص نجيب محفوظ. . أحياناً بطريقة خفية كما في رواية الطريق، وأحياناً بطريقة واضحة كما في رواية (أولاد حارتنا) التي منعها الرقيب وحاربها الأزهر. وفي هذه الرواية يحكي نجيب محفوظ قصة الأديان. والأنبياء جميعاً هم من أولاد حارة نجيب محفوظ. بلغت الجرأة به أن أفرد لله سبحانه وتعالى شخصية في القصة، كل ذلك بأقل قدر من الرمز. أولاد حارتنا صدرت مسلسلة في الأهرام عام تسعةٍ وخمسين، وطبعت في كتاب في بيروت عام سبعةٍ وستين.

(موسيقى)

نال نجيب محفوظ جائزة نوبل في الآداب عام تسعةٍ وثمانين. ومن رواياته المشهورة الثلاثية وزقاق المدقّ وخان الخليلي واللص والكلاب، وكان أثناء سنوات إبداعه موظفاً على الدوام: في الجامعة وفي وزارة الأوقاف ثم وزارة الثقافة. وقد وفر طاقته الإبداعية لكتابة الروايات والقصص فلم ينهمك بالركض وراء أقطاب النظام ولا بكتابة المقالات السياسية.

ماوتسي تونغ

حديثنا عن ماوتسي تونغ. عبارته المشهورة هي: "رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة". وهو هنا لا يتحدث عن رحلة خيالية. لقد قام هو وعشرات الآلاف من جنوده بالزحف العظيم في الثلاثينات. هذا الزحف كان هجوماً وكان فراراً في الوقت نفسه. لقد راح ماوتسي تونغ يزحف بجنوده حتى لا يطوقهم جنود شان كاي تشيك زعيم الوطنيين، كان ماوتسي تونغ يفر من التطويق. . وكان في الوقت نفسه يطوف بالريف الصيني ويجند الناس للانخراط في جيشه المتعاظم وفي مبادئه الشيوعية.

(موسيقى)

منذ طفولته كان ماوتسي تونغ متمرداً على القيود . . رفض الزواج الذي حاولت الأسرة فرضه عليه، وغادر قريته إلى بكين حيث علّم نفسه . قرأ الأدب السياسي الأوروبي، وأصبح ماركسياً . . وراح ينظم الناس . . وراح يصوغ أفكاره الخاصة ضمن القالب الماركسي . الماركسية وُلدت في أوروبا ومن أسسها أن الثورة تنبع من فقراء المدن . . من العمال، ولكن هذا لا ينطبق على الصين الزراعية . لذلك طوّر ماوتسي تونغ ماركسية فلاحية، وكان منظِّراً نشطاً وخلاقاً .

(موسيقى)

بعد الزحف العظيم استمرت المناوشات بين الشيوعيين بقيادة ماوتسي تونغ وبين الوطنيين بقيادة شان كاي تشيك الذي بدأت تدعمه أميركا . وفي هذه الأثناء كان الغزاة والمستعمرون من بريطانيا إلى اليابان إلى روسيا إلى البرتغال ينهشون الصين من أطرافها . . لكن الصين بلد كبير .

أخيراً بدأ تفوق الشيوعيين يظهر في كل مكان . . وتجمع مَن تبقّى من جنود شان كاي تشيك على الساحل . . ثم ركبوا سفنهم وغادروا بر الصين إلى جزيرة فورموزا الصينية . وهناك أنشأوا جمهورية الصين الوطنية (تايوان) وعاصمتها تايبي . نستمع إلى صوت ماوتسي تونغ :

(شريط قصير)

يقول ماوتسي تونغ : اليوم نعلن تأسيس الحكومة المركزية لجمهورية الصين الشعبية .

كان هذا في سنة **1949** .

(موسيقى)

لم تمض تسع سنوات على تأسيس الصين الشعبية حتى عاود ماوتسي تونغ الحنين إلى الثورة . . فباشر بسياسة القفزة الكبرى للأمام . . وهي تهدف إلى تعزيز المزارع المشتركة والقضاء على جيوب الفساد . ثم في عام ستةٍ وستين بدأت الثورة الثقافية التي عززت سلطة الحزب وزادت المركزية .

(موسيقى)

ماوتسي تونغ كان مناوراً حزبياً شديد الدهاء . لكن هذا لايكفي لصنع التاريخ . كان ماو أيضاً عميقاً في فكرة وذا ثقافة رفيعة . . وكان منظراً قديراً . . وكان له إرادة من الفولاذ .

توفي ماوتسي تونغ عام ستةٍ وسبعين وكان عمره اثنين وثمانين عاماً .

مارتن لوثر كنغ

لا أكاد أصدق ما هو مكتوب في الموسوعة: مارتن لوثر كنغ المناضل الأسود لم يصل إلى سن الأربعين. لقد اغتيل وهو في التاسعة والثلاثين من العمر. كان ذلك سنة ألف وتسعمائة وثمانٍ وستين. مارتن لوثر كنغ أعظم المناضلين السود في الولايات المتحدة كان قسيساً، وقد أخذ عنٍ غاندي الزعيم الهندي فكرة اللاعنف كوسيلة نضالية.

(موسيقى)

بدأ مارتن لوثر كنغ نضاله في ألاباما بأن ركب في الباص. لم يفعل شيئاً سوى أنه ركب في الباص. لكنه جلس في أحد مقاعد (للبيض فقط). وقامت القيامة عليه. وبدأ السود بعده يقعدون في المقاعد الخالية سواء في القسم المخصص لهم أو في قسم البيض. وصار السود يدخلون المكتبات العامة في أي ساعة يشاءون وليس في الساعة المخصصة لهم. وصاروا يتناولون الغذاء في الجامعات مع الطلبة البيض، وكانت ردة فعل البيض مجنونة في الولايات المتحدة. كان المجتمع الأميركي في الخمسينات مجتمع عزلٍ عنصريٍّ مخيفٍ.

(موسيقى)

بدأ مارتن لوثر كنغ نضاله عام سبعةٍ وخمسين. وما جاءت سنة ثلاثٍ وستين حتى كانت الحركة قد وصلت إلى ذروتها في المظاهرة الحاشدة التي نظمت في واشنطن وقام بها مئتا ألف شخص من مؤيدي المساواة. في ذلك الحشد ألقى مارتن لوثر كنغ خطابه التاريخي الذي اشتهر بعبارة (عندي حلم) وقد جعلها كاللازمة لخطابه:

(تسجيل بالإنجليزية)

يقول مارتن لوثر كنغ: "يوماً ما ستصحو هذه الأمة وتمارس عقيدتها الحقة، أن كل الناس خلقوا متساوين".

(موسيقى)

لقد درسنا في كتاب التاريخ أن محرر العبيد في الولايات المتحدة هو أبراهام لنكولن. حدث هذا فعلا قبل مظاهرة واشنطن بمئة سنة. ولكن هناك فرقاً بين أن يعطي الرجل الأبيض (لنكولن) الحرية للسود، وبين أن يطالب السود بحريتهم.

لقد مارس مارتن لوثر كنغ أساليب النضال المختلفة ، لكنه كان دائماً متمسكاً بمبدأ اللاعنف .

وأقام علاقات حسنة مع السياسين وضغط على جون كنيدي وأخذ ما يمكن من وعود ومن إجراءات حقيقية ، وعندما اغتيل كنيدي استمر خلفه ليندون جونسون في إزالة مظاهر العزل العنصري . وظل مارتن لوثر كنغ يمارس أشكال النضال المختلفة كالاعتصام والتظاهر والإضراب .

(موسيقى)

مما ساعد مارتن لوثر كينغ على النجاح أنه قسيس مسيحي ، فهذا جعل الأميركيين يشعرون أن الرجل مثلهم في الثقافة والدين ولا يختلف عنهم إلا في اللون . هناك مناضلون مسلمون كثر بين السود في الولايات المتحدة . . وهؤلاء كانوا موجودين في زمن مارتن لوثر كنغ أيضاً . اغتيل مارتن لوثر كينغ عام ألف وتسعمئة وثمانية وستين .

غاندي

قبل أربعة عشرة سنة تقريباً كان الناس جميعاً يتحدثون عن المهاتما غاندي . . في الشرق والغرب في أميركا واوروبا وفي بلادنا . . السبب طبعاً كان إنتاج فيلم سينمائي من هوليوود عن غاندي . ورسخت صورة غاندي الفيلم في الأذهان . . اسمحو لنا أن نذكركم في الدقائق الخمس القادمة بغاندي الحقيقي .

(موسيقى)

في عام ثمانية وأربعين قُتل غاندي وكان شيخاً يقترب من الثمانين . قتله رجل من بني دينه ، رجل هندوسي .

السبب أن غاندي كان متسامحاً : كان متفهماً لمطالب المسلمين بتأسيس دولتهم المستقلة . لقد حاول أن يُبقي على وحدة الهند عند خروج الإنجليز ، ولكن عندما أصر المسلمون على تأسيس دولة باكستان لم يجد بداً من التسليم لإرادتهم . وكان غاندي متسامحاً مع (الأنجاس) . ولعل المستمع يريد أن يعرف ما الذي نعنيه بكلمة الأنجاس .

(موسيقى)

الهند مجتمع طبقي مخيف. وفي قاع المجتمع طبقة يسمونها (الأنجاس)، ولا يحلّ لابناء الطبقات الأخرى أن يلمسوا لمساً أي شخص من طبقة الأنجاس. يبدو هذا غريباً في بلد فقير مثل الهند. . فعلاً أمر غريب. . واستغربه غاندي أيضاً رغم أنه ولد وعاش في ظل هذا النظام الطبقي المضحك. لقد قضى غاندي سنوات طويلة من شيخوخته وهو يذرع الهند طولاً وعرضاً ويعيش بين هؤلاء الأنجاس مدافعاً عن حقهم في الحياة الكريمة. لهذا السبب بشكل أساسي اعتبره المتعصبون الهندوس خارجاً عن تعاليم الدين.

(موسيقى)

غاندي كان دينامو النضال الهندي ضد الإنجليز ثلاثين سنة، ولكن لم يكن صاحب منصب سياسي. لقد حارب الإنجليز بفلسفته الخاصة (الساتياغراها) ومعنى هذه الكلمة الهندية اللاعنف.

قال غاندي لقومه الهنود: الإنجليز ليسوا أحسن منا. هذه هي رسالته الخالدة. لقد حطم في نفوس قومه الشعور بالدونية وبأنهم أقل شأناً من الإنجليز المستعمرين ثم بدأ حملة مقاطعة الأقمشة الإنجليزية فصار الهنود يغزلون وينسجون القطن والصوف. وسجنه الإنجليز المستعمرون مراراً. . وكان يرد عليهم بالصوم أياماً طويلة. وأخيراً استدعته حكومة إنجلترا إلى لندن للتفاوض معه، فوصل إلى لندن، وفوجئ مستقبلوه بعجوز ضئيل يلف نفسه بقماشة بيضاء من نسج يديه ويحمل تحت إبطه عنزاً جرباء. لقد جاء غاندي بعنزه حتى لا يشرب حليبا منتجاً في بلاد الإنجليز. أراد أن يقاطع بضائعهم حتى في عقر دارهم. ورافقته هذه العنز طول رحلته. . وكانت دعاية حسنة أثارت الصحف وأثارت الناس.

لا أظن أن الإنجليز خرجوا من الهند بسبب نضال غاندي، لقد خرجوا لأن عصر الاستعمار انتهى، ولكن نضال غاندي جعل الانسان الهندي يعتز بكرامته. كما أن هناك فرقاً بين أن يخرج الإنجليز وأنت تناضلهم وبين أن يخرجوا وحدهم بغير نضال.

حلقات مختارة من برنامج أذيع، من راديو طريق المحبة في نابلس، في الأيام الأخيرة للقرن العشرين.

لعلك تعرف

العُطاس

يعطس المرء من جسمٍ غريب يدخل الأنف ويعطس من زكام. ولعل المستمع الكريم يعرف ماذا يقول للعَاطس. يقولُ له: (يرحمك الله) أو (يرحمكم الله). ولكن ماذا يقول العاطس رداً على هذه العبارة؟

في بعض مجتمعاتنا يقول الناس للعاطس (نشوة)، ولعل هذه دعوةٌ له بأن ينتشي بالعطاس: أليس هناك ناس يضعون في أنوفهم غباراً مخصوصاً يسمونه السعوط حتى يعطسوا وينتشوا بالعُطاس.

فإذا قال لك أحدهم (نشوة) فقُل له: (جاجة مليانة حشوة)، فهذا دعاء بدعاء فلا هو قادرٌ أن يقدم لك النشوة، ولا أنت -إن تسمعْ نصحي- مقدِّمٌ له الدجاجة.

أما إذا قال لك أحدهم بعد عطسة (يرحمكم الله) فقُل له: (يغفرُ الله لي ولكم) أو (يهديكم الله ويصلحُ بالكم).

تبقى هناك مشكلة: بعضهم يعطس المرة الأولى والثانية والثالثة والرابعة. . و. . فهل ستقول له في كل مرة يرحمكم الله. . وهل سيرد عليك في كل مرة (يغفر الله لي ولكم) أو (يهديكم الله ويصلح بالكم)؟. الجواب في الحديث الشريف: (شمِّت أخاك ثلاثاً، فما زاد فهو زكام) أي قل له (يرحمكم الله) ثلاث مرات فقط.

المذاقات

عندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقد جنده وجدهم يطبخون الطعام في قدور كثيرة، فطاف بهذه القدور فوجد في كل منها لوناً مختلفاً من الطعام فراح يخلط ما في القدور ويسكبها جميعاً داخل قدرٍ كبيرةٍ ويقول: لو تعود المسلمون على ألوان الأطعمة المختلفة لاقتتلوا، وتهالكوا على الدنيا. فعمرُ لا يريد من المسلمين أن يصبحوا ذواقين للأطعمة المختلفة حفظاً لهم.

لكل صنفٍ من الطعام مذاق، ويأتي مشاهير الطباخين، لا سيما طباخي التلفزيونات في رمضان، فيبتدعون صنوفاً جديدة لها مذاقاتٌ عجيبة.

ويذهب أحدنا إلى أوروبا ويعيش هناك سنتين أو ثلاثاً ويدخل المطعم الفرنسي والمكسيكي والهندي

والصيني والإسباني . . ثم يعود إلى البلد ولا يعود يعجبه العجب ولا المسخن ولا الرطب .

ويقول لنا العلماء إن مذاقات الأطعمة هي في الاساس أربعة لا خامس لها : الحلو . . ونذوقه بطرف اللسان ، والمالح ونذوقه بجانبي اللسان ، والحامض ونذوقه بجانبي اللسان أيضاً ، والمرّ ونذوقه بمؤخرة اللسان والبلعوم ، وأما وسط اللسان فهو موضعٌ ليس فيه براعم تذوق ولا يحس بطعم أي شئ .

وكل هذه المذاقات : الحلو والمالح والحامض والمرّ ، لا تؤثر في اللسان الا بوجود الماء أو اللعاب ، فالسكر لا طعم له إلا إذا ذاب في الفم . . وكذا الحامض والمالح والمرّ . لا بد من الذوبان قبل أن يحس اللسان بالمذاق . وإذا قال لك أحدهم عن حبة خوخ إنها مُزّة فاعلم أن المُزّ هو حامضٌ ومرٌّ معاً . المذاقات أربعة ليس لها خامس .

الحليب

الطعام الذي نأكله ذو تركيبة كيميائية معقدة ، وفيه الأملاح والأحماض والفيتامينات وغير ذلك .

ولكن المادة الغذائية الأساسية تنقسم إلى ثلاثة أنواع فقط . . لا رابع لها ، السكريات : وهذه تجمع النقائض كالسكر والخبز والبطاطا ، ولكن لئن اختلفَت هذه الأطعمة على المائدة فإنها لا تختلف في داخل الجهاز الهضمي . . إذ تتحول جميعاً إلى سكر .

والنوع الثاني الدهون ، ومنها الزيت الذي يأتي من حبة الزيتون والدهن الذي يأتي من ألية الخروف . والنوع الثالث البروتين : وهو موجود في النبات الرخيص كالعدس والحمص والفول ، وفي اللحم الأحمر . وتزوّد السكريات والدهون الجسم بالطاقة ، أما البروتين فهو يبني الجسم ، لذلك فالحاجة إليه تزداد في الطفولة .

واللبنُ الحليب غذاءٌ كامل ، فثلاثةٌ ونصفٌ بالمئة من وزنه بروتين ، وأربعةٌ بالمئة من وزنه دهن ، وخمسةٌ بالمئة من وزنه سكر . وأما الباقي فهو ماء . وتوجد في الحليب أملاح مختلفة وفيتامينات مختلفة أيضاً .

وإذا تركت الحليب الطازج في الزجاجة ساعة من الزمن فإن الدهن يتجمع في الأعلى : يطفو ، إنه القشدة أو الكريما . ولذلك عندما يريدون في المصانع تعليب الحليب في عبوات من الكرتون يقومون أولا بعملية تفتيت الدهون بحيث لا تتجمع ولا تطفو ، ويسمون الحليب الذي فُتِّتَ دهنُه وتوزع بالتساوي الحليبَ المتجانس .

وإذا طرحت السكر والماء من الحليب بقي لك الجبن ، وإن طرحت البروتين والسكر والماء . . بقيت عندك الزبدة .

الجبن

الحاجة أم الاختراع. وقد احتجتُ حاجةً ماسةً إلى الجبن الأبيض ذات سنة للقطائف والكنافة، وكنتُ أعيشُ في بلد من بلاد الفرنجة ليس فيه من الجبن إلا ما اصفر اصفراراً، أو دخلته العفونة فازرقّ إزرقاقاً. تحققت لي الحاجة.. ولمّا يتحققِ الاختراع. وذات صباح أعددتُ لإفطاري كوباً من اللبن الحليب الساخن. ونحّيتُ جانباً نصف الليمونة التي تعودت أن أعصر قطراتٍ منها في كوب الشاي. ففي هذا الصباح إفطاري حليب لا شاي. ثم قلتُ في نفسي: ولماذا أعصر نقطة ليمون في الشاي دون الحليب؟. حسناً لم لا أجرب. وجربت. عصرت الليمون على الحليب ثم حركته بملعقة، فإذا قطعٌ بيضاءُ صغيرة تَعْلَقُ بالملعقة. حركت أكثر.. وعصرتُ نقطتين أُخريَيْن فاذا بالحليب يصبحُ سائلا أصفرَ اللون تطفو عليه قطعٌ بيضاءُ، أخذت أتذوقُها فإذا هي أشبه شيء بالجبن. وما انتصف النهار حتى كنتُ قد صنعت جبنا يكفي للقطائف.

ما يختر الحليب أفضل من قطرات الليمون مادةٌ في مَعدة الخروف الصغير. ويقرّ الأوروبيون أن الذي اخترع الجبنَ رجلٌ عربيّ. لكنه طبعا ليس أنا. هذا رجلٌ بدويّ تزوّد لرحلته بالحليب، وضعه في كرشة خروف وربطها من جانبيها ومشى بها مسافة، ثم أراد أن يشرب بعض الحليب فوجده متجبناً بفعل تلك المادة، وطاب في فمه طعم الجبن فحدث أهله عندما رجع بالأمر، ومن هنا عرفت البشرية كيف يصنع الجبن. وما زلنا نستخرج من معدة الحَمَل هذه المادة ويسمونها (المساة) ونجبن بها الحليب.

الهيليكوبتر

الهيليكوبتر كلمة ثقيلة على اللسان العربي، (هيه لي كوب تَر)، وأصل الكلمة فرنسي.. والأصل الأبعد يوناني **Helix**معناها لولبي، و**pteron** معناها جناح. اذن فهيليكوبتر معناها: ذات الجناح اللولبي. وقد اشتكى من هذه الكلمة الدكتور أحمد زكي، مؤسس مجلة العربي وأحد كبار رواد الثقافة العلمية العرب، وقال: "عجز العرب، في عجزهم الشائع، عن ابتداع اسم لهذه الطائرة". كتب احمد زكي هذا قبل نحو ثلاثين سنة. واليوم عندنا كلمة (المِروحية). نسبة إلى المروحة. بكسر الميم. وعندنا السّمتيّة وهذه هي الكلمة العراقية التي أشاعوها أثناء حرب الخليج الاولى مع إيران في الثمانينات. والسمتي هو العموديّ. وبعضهم يقول الطائرة العمودية. وهذه الأخيرة تسمية دقيقة جدا فالهيليكوبتر تتميز عن كل الطائرات الأخرى بأنها لا تحتاج إلى مدرج تقلع منه أو تهبط عليه بل ترتفع عموديا وتهبط عموديا.

لقد أثبتنا للدكتور أحمد زكي أن اللغة العربية ليست عاجزة.. وبقي علينا أن نثبت له أن في مقدورنا

أن نتفق على اسم من هذه الأسماء الثلاثة . المروحية/ السمتية/ العمودية : علينا أن نتفق بسرعة قبل أن يأتي مجمع من مجامع اللغة فيقترح أن نسميَها البعوضة الميكانيكية مثلا .

الكَبِد

الكبد أكبر عضو داخلي في جسم الإنسان، وتمثل الكبد، واحداً من أربعين من وزن الشخص البالغ، وتقع في الجهة اليمنى أما المعدة فتميل قليلا إلى اليسار . ولأن الكبد كبيرة فإن طرفها الأيسر يستريح فوق المعدة. وتحتوي الكبد على ربع دم الإنسان عندما يكون في وضع الراحة. أما اذا بذل جهدا فإن الدم يتدفق إلى الأعضاء المختلفة.

الكبد مختبر كيميائي لا غنى للجسم عنه. فهي تحول السكر والنشويات إلى جلوكوز يمد الجسم بالطاقة. وتختزن الكبد بعض الجلوكوز بشكل مكثف إلى وقت الحاجة، وتستقبل البروتينات المتحللة إلى أحماض أمينية فتحولها إلى أشكال كيميائية صالحة لكي يقوم الجسم باستخدامها في بناء الخلايا. والكبد هي التي تفرز العصارة الصفراء المُرة التي تمرّ عبر المرارة إلى الدم، ولذلك قد تستأصل مرارة الانسان، لكنه يعيش سعيدا . . ذلك لأن الكبد هي التي تمد المرارة بالعصارة الصفراء. والكبد تصنع مادة ال **heparin** التي تمنع الدم من التجلط، وهي التي تصنع المضادات الحيوية الطبيعية لمقاومة الأمراض. والكبد قد يُستأصل جزء منها في جراحة فتكبر وتتكاثر خلاياها لتعوض ما ذهب.

بعد أن علمنا هذا كله لعلنا لا نلوم المرأة الخليجية عندما تقول لابنها الحبيب : يا كبدي، بدل أن تقول له يا قلبي أو يا روحي.

حلقات من برنامج أنتج في معهد الإعلام بجامعة بيرزيت.

المجهولات العامّة

طبول إفريقيا

في غابات نيجيريا كان المستكشف الإنجليزي هاسيلدن يعيش مع السكان البسطاء في قريتهم. لاحظ يوماً أنهم منشغلون بحدث مهم ويتكلمون عنه. فسأل عن الأمر فقالوا له: (لقد غرقت سفينة كبيرة وعلى متنها عدد كبير من الأوروبيين). فسألهم عن مصدر الخبر فقالوا: جاءنا من القاهرة. ابتسم هاسيلدن لتفكير القرويين البسطاء. وبعد ثلاثة أيام جاءته الأخبار الأكيدة: (لقد غرقت الباخرة لوزيتانيا في نفس الوقت الذي أخبره فيه الأفارقة بالأمر).

لقد عرفوا بالخبر عن طريق قرع الطبول. فقد تم تناقل الخبر من قبيلة إلى قبيلة على عرض القارة الإفريقية، ووصل إلى نيجيريا في غضون ساعات قليلة.

وشبيه بذلك ما واجهته القوات الإيطالية التي غزت الحبشة. فقد كانت كلما دخلت منطقة وجدت الناس متأهبين لها. كانت خطوط الاتصال وتبادل المعلومات بين جميع قبائل الحبشة ممتازة. كان هذا طبعاً قبل استعمال اللاسلكي.

سرعة الصوت في الهواء

كان لي زميل في الإذاعة يجلس أمام الميكروفون ويقرأ نشرة الأخبار بلهجة صراخ وحماس. وكنت أقول له أنت تنسى وجود الميكروفون. حبذا لو صعدت إلى سطح المبنى وقرأت النشرة على الهواء مباشرة، بالمعنى الحرفي للكلمة، وأنا متأكد أن الناس سيسمعونك مع هذا الصوت الجهوري.

على افتراض أن صاحبي قلّل عقله وصعد إلى سطح الإذاعة، فإن صوته سيصل من رام الله إلى نابلس بعد دقيقتين ونصف الدقيقة. فالصوت يسير ببطء في الهواء. ولو قدّم صاحبي برنامج مسابقات على الهواء مباشرة. . أقصد على موجات الريح بدون ميكروفون. . فإن على المتسابق في نابلس أن ينتظر دقيقتين ونصفاً حتى يسمع السؤال، وعلى صاحبي المذيع أن ينتظر دقيقتين ونصفاً قبل أن يسمع الإجابة.

لكننا في الإذاعة لا نرسل الصوت عبر الهواء. إنما نحول الصوت إلى موجة كهربائية وترسل الموجة عبر الهواء بسرعة الضوء لا بسرعة الصوت. وفي بيتك عزيزي المستمع لديك جهاز يحول الموجة

الكهربائية إلى صوت، هذا الجهاز هو الراديو. وسرعة الموجة الكهربائية 300 ألف كيلو متر بالثانية. أي أن ابن نابلس يسمع ابن رام الله بعد واحد على ستة آلاف من الثانية.. أي فوراً تقريباً.

العينان تجسمان الأشياء

هل حاولت عزيزي المستمع أن تغمض عيناً وتفتح عيناً وأنت تسوق السيارة؟ كان لي صديق يفعل ذلك. كان من أصحاب الكأس.. وكان يخاطر بروحه وبروح غيره فيسوق سيارته وهو في حال السكر. كان يرى الشارع شارعين، وعمود الكهرباء عمودين. وكان يحل الإشكال بأن يغمض إحدى عينيه، ويسوق بعين واحدة. طبعاً ارتكب عدة مخالفات وحوادث، وهو الآن ينتظر أن يقتل إنساناً قبل أن يرجع عن حماقته.

بالنسبة لنا، نحن الذين لا نسكر، ما فائدة العين الثانية؟ تلاحظ أنك ترى بالعين اليسرى منظراً مختلفاً قليلاً عن العين اليمنى، لأن هناك مسافة بضع سنتمترات بين العينين. إذن فالصورة التي تتكون في العين اليسرى تختلف قليلاً عن الصورة المتكونة في اليمنى. والعقل يجمع الصورتين معاً ويخلق منهما صورة واحدة لكنها مجسمة.. فنحن عندما ننظر بالعينين كلتيهما ندرك عمق الأشياء وبُعدَها عنا. السواقة بعين واحدة غير سليمة حتى في حالة الصحو التام لأن السائق يخطئ في تقدير المسافات.

كيف يمكن إشعال النار بالجليد

قد تسمع سؤالاً في أحد برامج المسابقات، وهي في هذه الأيام أكثر من الهم على القلب، يقول: كيف يمكُنك إشعال النار من الجليد. وطبعاً ستقول مجيباً: هذا مستحيل. وسيقول لك صاحب البرنامج: حظاً أوفر في المرة القادمة.

بل يمكنك إيقاد النار بواسطة الجليد. اصنع من الجليد عدسة محدبة من الجانبين ودع أشعة الشمس تخترقها وسلّط العدسة على قش أو ورق.. وسيشتعل. لقد أُجريت هذه التجربة قبل مئتين وخمسين سنة في إنجلترا ونجحت، وجُرّبت بعد ذلك مراتٍ عديدة ونجحت.

إن العدسة المحدبة تجمع الأشعة وتركزها في نقطة واحدة اسمها البؤرة، وإذا وضعت ورقة في البؤرة أو قريباً منها فستكون درجة الحرارة هناك عالية جداً. كان لي عم يتباهى بأنه يشعل السيجارة بالعدسة.. لكن عدسته كانت عدسة القراءة وكانت من الزجاج لا من الجليد.

الأسود والأبيض

يقولون لنا : البسوا الأبيض في الصيف والأسود في الشتاء . ولنا جارة لا تؤمن بهذه الخزعبلات فهي تلبس جلباباً أسود صيفاً وشتاء . وأنا أهديها التجربة العلمية التالية :

ضعي عزيزتي الجارة لوحاً من الثلج في أشعة الشمس . وضعي قطعة قماش مربعة سوداء مربعة على اللوح ، وضعي بجانبها قطعة قماش بيضاء مربعة أيضاً فوق اللوح . وانتظري ساعة زمن ، سترين أن الجليد ذاب تحت القطعة السوداء كثيراً وغاصت القماشة فيه . . وأما تحت القطعة البيضاء فلن يذوب الثلج إلا قليلاً . معنى ذلك أن الأسود يمتص الحرارة . كل لون داكن يمتص الحرارة أكثر من الفاتح . التفكير بلبس جلباب أبيض في الصيف تفكير حصيف .

هذه التجربة مع لوح الثلج أجراها بنجامين فرانكلين العالم والسياسي الأميركي قبل مئتين وخمسين سنة تقريبا .

وعندما حوصرت سفينة استكشافية ألمانية عام **1903** بجبال الجليد ، وعجز البارود والديناميت عن فتح طريق لها . تذكر العلماء الذين على ظهرها تجربة فرانكلين فنشروا فوق الجليد رماداً وسخاماً من أفران هذه السفينة البخارية . وأذابوا الجليد ونجوْا ، ولولا ما عندهم من علم بتلك التجربة لما نجوْا .

النفط

لعلك تعرف عزيزي المستمع ، أن سوق النفط العالمية تفرق بين النفط الثقيل والنفط الخفيف . عندما يخرج النفط الثقيل من باطن الأرض يكون أسود لزجاً كثيفاً مثل القزحة (عصير حبّة البركة) . والخفيف يكون أشبه بالدبس فهو أقلُ سواداً وأقل لزوجة . النفط العربي نفط ثقيل في معظمه .

بعد استخراج النفط يسخنونه فيتبخر ، ويرتفع بخاره في صهريج شاهق الارتفاع . . وبينما هو يصعد يبرد بالتدريج . فعند درجة حرارة مئتين وخمسين مئوية يعود بخار السولار إلى حالة السيولة فيُجَر بأنبوب وحده . ويواصل ما بقي من بخار النفط الصعود في الصهريج . وعند درجة مئة وستين يتكاثف الكاز ويسيل في أنابيب ، وعند درجة سبعين يصبح بخارُ البنزين سائلاً فيؤخذ . وفي رأس الصهريج تبقى بعض الأبخرة دون أن تتكثف . هذه الغازات يتم ضغطها وتسييلها بالقوة : ومنها غاز البيوتان . . الذي نستعمله للطبخ .

وفي قاع الصهريج تبقى مادة سوداء لزجة . هي الأسفلت . هل تعرف أن هذا النفط الذي تستخرج

منه أنواع البلاستيك والعطور والدهان يتركب كيميائياً من عنصرين اثنين فقط هما: الكربون والهيدروجين. لعلك تعرف هذا، ولعلك تعرف أن بعض الدول لا تزعج نفسها بهذه العملية الطويلة. . بل تبيع النفط خاما كما هو إلى الخارج. . وعندما تأتيها الأموال ترسلها من جديد لكي تستثمرها في الخارج.

رسالة الغفران

لعلك تعرفُ، عزيزي المستمع، أن رسالة الغفران (الكتاب الذي ألفه أبو العلاء المعري) هي عبارةٌ عن رسالة حقيقية بعثها المعري إلى رجل من حلب لم يلتقِ به أبداً؟ اسم الرجل ابن القارح. وكان قد بعث رسالة إلى أبي العلاء المعري طولها، في الكتاب المطبوع، خمسون صفحة. فردّ عليه المعري برسالة الغفران وطولها أربعمئة وخمسون صفحة. ولعلك تعرف أن أحداث رسالة الغفران لا تدور في الدنيا، بل في الآخرة. ففي رسالته الجوابية العجيبة يقص المعري قصة خيالية بطلها صاحبه ابن القارح الذي يرسله المعري، بعد قيام الساعة، إلى الأعراف ثم إلى الجنة، ثم يجعله يقوم بزيارة إلى النار. وفي الجنة والنار يلتقي بطل الرسالة بالشعراء واللغويين ويسألهم عن قضايا أدبية كثيرة.

المعري سبق طه حسين في نظرية التشكيك بنسبة الأشعار القديمة إلى أصحابها بألف سنة. ولعلك تعرف أن رهين المحبسين ملأ رسالة الغفران سخرية من المعتقدات الشعبية التي تصور وتصف بالتفصيل الجنة وما فيها. ولكن أبا العلاء المعري عاش ستاً وثمانين سنة قمرية دون أن يدخل المحبس الثالث (أي السجن)، ودون أن يقع عليه اعتداء، مع أنه كان في غاية الجرأة. لحسن حظه أنه عاش قبل زمننا هذا بألف سنة.

طنين البعوضة

كيف تصدر البعوضة الطنين، هل هناك عضو خاص بالطنين؟ الجواب: لا. ولكنك عزيزي المستمع تعرف الجواب. إنه الاهتزاز الصادر عن الجناحين.

لقد تحير علماء الأحياء في معرفة عدد خفقات جناحي البعوضة في الثانية الواحدة. وجاء الجواب من علماء الموسيقى. لقد لاحظوا أن الصوت الصادر عن طنين البعوضة ثابت دائماً وهو يساوي نغمة (فا) في السلم الموسيقي. ومعنى ذلك أن الجناحين يتذبذبان **440** مرة في الثانية، لأن هذا هو عدد

الذبذبات للوتر الذي يصدر نغمة (فا) . وهكذا قاس علماء الموسيقى عدد خفقات جناحي البعوضة . ثم قاسوا عدد خفقات جناحي النحلة فسمعوها قريبة من نغمة معينة وقدروا عدد خفقاتها . وتطورت التكنولوجيا وصوّر العلماء الحشرات وهي تطير وعرفوا بشكل دقيق عدد خفقات الأجنحة فجاءت الأرقام قريبة جداً من تقديرات الموسيقيين .

حلقات من برنامج قُدِّم من راديو أجيال في رام الله .

حاشية

بعد أن ينتهيَ المرء من وضع اللمسات الأخيرة على كتابه يتمنى أن تتاح له فرصة لإضافة شيء. وبعد أن أفرغت كتابي في برنامج الحاسوب تاماً مدققاً بقدر الاستطاعة تبيّن أن هناك بضع صفحات ستبقى فارغة بحسب نظام المَلازم، فانتهزت الفرصة.

الأداء الإعلامي الفلسطيني مصاب في أصْغَرَيْه: الاحترافية، والحرية.

على صعيد الاحترافية: يقول بعضهم إننا بحاجة إلى إعلاميين جيّدين. ويقول آخرون: بل هذا كلام فارغ. فالإعلاميون الموجودون عندنا جيّدون، بدليل أن الواحد منهم يشتغل في الإعلام الفلسطيني سنوات وأداؤه دون الوسط فإذا ما انتقلَ للعمل مراسلاً أو محرراً في فضائية من الفضائيات أبدَعَ وتألّق. ولمّا كنّا نوافق على هذا القول ننتقل سريعاً إلى صعيد الحريّة.

على صعيد الحريّة: يقوم المسؤولون عن الإعلام في بلدنا بعملين: المراقبة والرّقابة. أولاً: مراقبة الدوام، فيأخذون (الحضور والغياب) للعاملين ولكنهم لا يراقبون عمل مئات المَحاسيب المسجّلين على كشف الرواتب الذين لا يداومون بل يقبضون الرواتب وهم في بيوتهم. الإعلام الرسمي الفلسطيني يشكو من ترهل وظيفي كبير، وأكثر من نصف الميزانية يذهب لجيوب ناس لا يشتغلون. وثانياً: الرّقابة. هل تتخيّل إعلاميّاً يشتغل رقيباً؟ إذا كان الطبيب هو الذي يحقن المريض بالسمّ فما الأمل في شفائه؟ رؤساء التحرير في وسائل الإعلام الرسمية وشبه الرسمية، وفي الإعلام الأهلي عيّنوا أنفسهم رقباء على صحفييهم وعلى أنفسهم.

استدعى صاحب جريدة أهلية أحد المحررين، وقال له صارخاً: ما المصيبة التي فعلتها؟ ومن قال لك إن تركيا ارتكبت مذبحة ضد الأرمن في عهد السلطنة العثمانية؟ بُهت المحرر. فأراه صاحب الجريدة مقالاً مترجماً سرقته الصحيفة (على عادتها) عن وسيلة إعلام أجنبية، وهو يتحدث عن العلاقات بين أرمينيا وتركيا وتأثير تلك المسألة التاريخية على هذه العلاقات. فهم المحرر أخيراً أن القنصل التركي اتصل وعاتب الجريدة لنشر ذلك المقال. عندما روى لي المحرر القصة علّقت ساخراً: "غداً يتصل بكم القنصل الصيني، وبعد غدٍ.. " وهنا أمسكني المحرر من ساعدي وقال لي بنبرة عالية: ومن قال لك إن القنصل الصيني لم يتصل بعد؟ لقد اتصل فعلا. اتصل عندما جاء إلى البلاد وفد غير رسمي من تايوان وغطّيْنا الخبر.

هذا الأمر يحدث في بلدنا في كل وسائل الإعلام: لا يجوز المساس بالدول الشقيقة والصديقة.

لا يعرف الإعلامي ماذا يقول ولا كيف يقوله. فليس أمامه وثيقة رسمية تضمن له حريته. ليس هناك قانون إعلام (وقانون المطبوعات والنشر لم يصدق من المجلس التشريعي، أما مشروع قانون المرئي والمسموع فهو لم يصدّق من أية جهة بعد، وهذه الأسطر تُكتب في يناير ٢٠٠٦). وأما قانون التشهير فهو غير معروف للصحفيين، ولم يتمّ الاحتكام إليه أبداً فيما أعلم. ولذلك تزيد الضغوط على الصحفي، وهو يجهل السقف الرسمي لحريته. ويأتي رؤساء التحرير فيضعون من عندهم ضوابط كي تضمن لهم السلامة. ولا يَسْلمون دائما لأن البلد تعاني من ضعف السلطة المركزية. فالميليشيات رقيب، والعائلات الكبيرة رقيب، والمشايخ رقيب، والأجهزة الأمنية رقيب. ويمثل هؤلاء الرقباءَ جميعاً رئيسُ التحرير، وفي الغالب فإن الصحفي نفسه يقوم برقابة مسبقة. فلا يصل الموضوع إلى رئيس التحرير إلا وقد فقد روحه. وهذا يذكّرني بخبر عن رفح.

الأمن مستتبٌّ في رفح:

قرأت الخبر على الصفحة الأولى في الجريدة، في نحو عام ١٩٩٧، وهو يقول إن الأمن مستتب في رفح. قرأت الخبر مع تتمته على صفحة ٢٣، ولم أعرف سبب نشره. فإذا كان الأمن مستتبّا فلماذا تنشرون الخبر أصلا؟ ورجعت إلى جريدة أمس، فإذا الأمن مستتبّ في رفح أيضا. وسألتُ إن كان نُشر سابقاً خبر عن مشكلة في رفح، فقيل لي: أما النشر فلم يحدث، وأما المشكلة فقد حدثت. لقد حدثت طوشة عائلات في رفح، وراح فيها قتلى وجرحى.

إن ظاهرة نزع المادّة الخبرية من الخبر قبل نشره من أسوأ مظاهر الرقابة والتعتيم. وقد سمعت زملاء لي في المهنة يعملون بوسائل الإعلام الرسمية يدافعون عن برامجهم الإخبارية عن طريق التعداد. يقولون: عُدّ على أصابعك؛ المسألة الفلانية تطرقنا إليها، والمعارض الفلاني استضفناه وتكلم للمشاهدين، والأزمة الفلانية غطيناها. التعداد ليس دفاعاً جيّداً. فنحن نعرف أيها الزملاء شكل تغطيتكم ونعرف كيف تقدمون إلينا الخبر. ونعرف أيضاً كيف تستضيفون شخصاً من المعارضة، مرة في السنة وفي ظرف يكون موقفه فيه ضعيفاً. لا ترهقوا أنفسكم بالتعداد، وانظروا إلى نوعية ما تقدمون، واعلموا أن المشاهد والمستمع والقاريء ذكيّ ويحسّ بقوة بالعنصر الناقص. وهل يستوي منسف بلحم ومنسف أقرع!

فلنفرح، ولنقلْ لكل ضيف أجنبي يزور بلادنا: (رقابة؟ أية رقابة؟ بلدنا ليس فيها رقابة).

يحتاج الإعلام القويّ إلى قضاء قويّ، وحكم مستقرّ. ووضعنا صعب لأن مجتمعنا مهتريء من الداخل، ولأنه يتعرض لمحاولة تكسيره من جانب إسرائيل. ولكن إعلاماً جيداً قد ينفعنا في محاربة عيوبنا.

لقد جاءت فكرة إقامة مجلس للإعلام من الأوروبيين. وليس في هذا شين، فنحن نستورد سيارات فارهة وننفق عليها جزءاً كبيراً من المعونات التي يرميها الأوروبيون قدّامنا، فلا بأس باستيراد أدوات معنوية منهم مجّاناً.

لكن أي مجلس للإعلام سيظلّ وعاء فارغاً ما لم تدعمه إرادة سياسية، ومطالبات يقوم بها قادة الرأي في سبيل تحرير الإعلام. وهناك حاجة أيضاً إلى أن يعتزّ الإعلامي بنفسه، وإلى أن يرفع رأسه، وإلى أن يعرف دوره. نحن بعيدون عن ذلك.

ومن الأفكار التي نحتاج إلى استيرادها فكرة إلغاء وزارة الإعلام: لا لشيء.. إلا لتوفير بعض المال. فالوزارة عندنا لم تصنع شيئاً في السنوات العشر السابقة.

وفي الموضوع اللاحق لهذه الحاشية كلمة ألقيتها في مؤتمر تعالج مسألة الوزارة ومجلس الإعلام.

وزارة إعلام، أم مجلس أعلى للإعلام

السلام عليكم،

سمُّوه مجلسَ إعلام، أو وزارةَ إعلام، أو بطيخَ الشام. المهم: ماذا سيفعل، وكيف سيفعل ما سيفعل، إن كان فعلا سيفعل.

هل سيكون لحماس وجود في هذا الكيان الجديد؟

أريد أن أطمئن الحضور الكريم إلى أنني لا أنطلق من مِنصة حزبية أو فصائلية.

بلدنا يتجه إلى أحد طريقين: إما إلى نظام الحزبين، وإما إلى القمع. ونريد له أن يؤسس نظامَ الحزبين، لأنه وصفة مجربة للحياة السياسية الحرة التي لا توريث فيها للحكم، ولا بقاء فيها للحاكم إلى أن يأتيَه داعي الموت.

وواضح أن حماساً في بلدنا تشكل القوة الأخرى. فمنَ الآنَ فصاعدا لا بأس بأن نحسُب حسابَ حماس في كل شيء نقوم به: في تعييننا للسفراء، وفي إنشائنا كياناتٍ تنظيميةً جديدة كمجلس أعلى للإعلام. ولا بأس في أن يسعى المجتمع الفلسطيني إلى وضع اشتراطات على حماس بشأن حرية الكلمة والفكر والمعتقد والسلوك الاجتماعي، فهي مطالبة بأن تسير خطواتٍ كثيرةً على هذا الطريق.

لهذا الاعتبار السياسي المهم أرى أن مجلس الإعلام يجب أن يكون مسؤولا أمام المجلس التشريعي. وهنا فقط يكمن الفارق (سياسيا) بينه وبين وزارة إعلام.

أما الوزارة فقد عاشت السنواتِ العشرَ الماضية كبني تيْم، الذين قال فيهم الشاعر:

ويُقضى الأمرُ حين تغيبُ تَيْمٌ ولا يُستأذَنون وهم شهودُ

فالوزارة لم يكن لها عمل مع الإذاعة أو التلفزيون أو كالة الأنباء وفا. وكانت تحب أن تَمنحَ التراخيص للمحطات الخاصّة، فمن أعطته ترخيصا فرح به، ومن لم تعطه أخذ ترخيصا من وزارة الاتصالات أو الداخلية. وكانت تشترط على المحطات الخاصةِ الشروط، ولا أحد ينفذ. وكانت إذا اعتدى أحد على حرية الكلمة، لم تقل كلمة.

وقد تحسن وضع الوزارة الآن : فهي مسؤولة فعلاً عن الإعلام الرسمي . وحتى لو لم يندم نبيل شعث بعد على هذه المسؤولية ، فإن وجودَ وزارة إعلام لم يعد ضروريا .

وأما مجلس الإعلام الذي كثر الحديث بشأنه فعندي عنه صورة ، كوّنتُها على مدى السنوات الثلاث الماضية منذ أن عقد وزيرُ الإعلام آنذاك نبيل عمرو اجتماعات بشأن إنشاء هذا المجلس ، وكان لي شرفُ حضورها ، وكان لمعهد الإعلام في جامعة بيرزيت شرفُ كتابة صيغةٍ لهذا المجلس . ولكنّ الأمر كله ذهب مع الريح لأن حكومة أبو مازن ذهبت مع الريح بعد مئة يوم من قيامها .

نريد مجلسا مهنيا اجتماعيا . ونريده أن ينبثق من المجلس التشريعي حتى يكون فوق الحزبية .

أتصور المجلس مكونا من سبعة أشخاص فيهم الطبيب والمهندسة والمعلم والنقابي وعضو المجلس البلدي وربة البيت المتعلمة . نريده أن يمثل المجتمع . ويقوم بتعيينه رئيس الوزراء ، شرط أن يصدّق علي التعيين المجلسُ التشريعي . وإذا تم تعيين السبعة فلا أحد يستطيع عزلَ أي منهم ، إلا التشريعي طبعا . ومدة العضوية سنتان . ولا تجديد للعضو إلا إذا أمضى فترة كاملة خارج مجلس الإعلام .

ولمجلس الإعلام ميزانية يستعملها لتكليف لجنةِ خبراء برصد الإعلام، وبإجراء مسح إحصائي سنوي .

يمكنني تلخيص دور المجلس في ثلاث نقاط :

أولا : إرشادُ الإعلام الوطني : وذلك برصد وسائل الإعلام الوطنية الممولة من الخزينة ، عبر عملية مستمرة يقوم بها الخبراء ، ووضع تقاريرَ أسبوعيةٍ بشأن المستوى الاحترافي للإعلام الوطني الفلسطيني . هذه التقارير ترفع للمجلس التشريعي حتى يكون الإعلام الممول من الخزينة خاضعا للمساءلة من ممثلي الشعب .

ثانيا : التحققُ من الانتشار : ويتم ذلك بإصدار إحصاء سنوي شامل عن كل وسائل الإعلام التي يستعملها المواطنون الفلسطينيون في الضفة وغزة .

ثالثا : إعدادُ تقرير سنوي بعنوان " حرية الإعلام في فلسطين " . التقرير يستند إلى التعامل مع شكاوى كل وسائل الإعلام وشكاوى المواطنين، ومع الردود عليها من جانب الجهات الرسمية .

- من شأن المجلس الأعلى للإعلام أن يرشد الإعلام الوطني إلى مشكلاته بشكل أسبوعي . وستمثل تقارير وإحصاءات المجلس روافعَ تستعملها السلطة التنفيذية والتشريعي والمواطن لكي يطالبوا الإعلام الوطني بأن يقدم الأفضل للمواطن وللبلد .
- المجلس يرشد الإعلام الوطني إلى ثُغُراته بدون التدخل في هيكليته . ويقدم النقد المستمر للمستوى الاحترافي دون الانغماس في أي صراعات موجودة داخل مؤسسات الإعلام نفسها .
- وجود المجلس الأعلى للإعلام يزيد مصداقية الدولة في تعاملها مع الإعلام . ويمثل آلية لإصلاح الإعلام لا تتدخل فيها الدولة .
- يتبنى المجلس ميثاق أصول المهنة ، بعد مناقشته مع أهل الإعلام مناقشة مستفيضة . إنه الميثاق الذي يحدد الخطأ والصواب من وجهة نظر مهنية .
- يحرص المجلس على إبلاغ كل وسائل الإعلام الفلسطينية الرسمية والخاصة بقوانين التشهير المعمول بها في البلاد . ويحث الجهات القضائيةَ والتشريعية على إعادة صوغ هذه القوانين بشكل عملي ومحدد لتساعد الصحافيين في عملهم ، وتضعَهم أمام التزاماتهم .
- يوعّي المجلسُ الوزراء وكبارَ المسؤولين في الحكومة والشرطة ، والهيئات المدنية والشركات الكبرى ببنود قوانين الإعلام وميثاق أصول المهنة حتى يعرف هؤلاء واجباتهم بشأن تقديم المعلومات للإعلاميين .
- يتعامل المجلس مع شكاوى الإعلام والصحافة (ومع الشكاوى ضدهما أيضا) أولا بأول ، ثم يوثق هذه الشكاوى ضمن تقريره السنوي " حرية الإعلام في فلسطين " .

لم أتحدث عن وسائل الإعلام الخاصة : ولا أراها واقعةً تحت مهام المجلس الأعلى للإعلام . لنتركها تغن وترقص كما تشاء . ولنؤجّرها الهواء عندما نملك الهواء . هذا وحده كفيل ببقاء الصالح منها .

ولم أتطرق إلى الإعلام الخارجي : فتلك مهمة حكومية محضة . للحكومة أن تنشيء مكتبا إعلاميا ينقل وجهاتِ نظرها ومواقفَها إلى العالم . وأما إعلامنا نحن الذي نريد توجيهه للخارج فذلك أمر لسنا قدّه . لنصلحْ إعلامَنا الموجّهَ إلى شعبنا أولا .

المجلس الإعلى للإعلام ، بحسب الصورة التي رسمتها ، لن يكتفيَ بالقول إن إعلامنا سيء وفاشل . بل سيقوم كل أسبوع بتشخيص مواطن القصور من خلال تقرير الخبراء . وسيقوم كل عام بتقديم ورقة إحصاء توضح للجميع عدد المشاهدين والمستمعين والقراء لكل وسائل الإعلام التي يستعملها

الفلسطيني. وعندئذ سيعلم الذين فشلوا أي منقلب ينقلبون. كما سيقدم كل عام كشفاً بحال حرية الإعلام في البلد من خلال ما تلقاه وبَحَثه من الشكاوى من الصحافيين والمسؤولين والمواطنين.

المجلس الموصوف في هذه الكلمة يتميز بأنه لا يقوم بالتصحيح بنفسه، بل يضمن توفر معلوماتٍ وحقائقَ وأرقامٍ نزيهة، لأنه ذو مرجعية كبيرة ومهمة. وهو يعرف كيف يستند إلى خبراءَ قديرين ومؤسساتٍ بحثيةٍ محترمة. إنه لا يتدخل في هيكلية الإعلام الوطني، بل يترك عمليةَ الإصلاح لأصحابها. السلامُ عليكم.

ورقة قدِّمت في مؤتمرٍ بشأن تشكيل مجلس للإعلام في فلسطين، في ربيع ٢٠٠٥، وكانت الحكومة حديثة التشكُّل عقب انتخاب محمود عباس رئيساً (٩/ ١/ ٢٠٠٥)، وتولّى نبيل شعث وزارة الإعلام فيها، مع تكليفه بالإشراف على الإعلام الرسمي. يذكر أن الإعلام الرسمي كان تابعاً في السنوات التسع السابقة من عمر السلطة الفلسطينية للرئيس مباشرة.

الفهرس

الفصل الأول: الإذاعة مستمع

الإذاعة مستمع **7**

شخصية الإذاعة، الوجبة الإذاعية.

أصول المهنة **10**

عشر مهارات للصحافي المكتمل **13**

دواعي الموسوعية، التخصص الزائف، الموسوعية الزائفة، الإذاعة في فلسطين، المهارات العشر.

بارقة أمل **20**

المراهقون، تنظيم الأسرة، الجنس، صبيان وبنات، المشاركة، الصحة الإنجابية.

النفس المطمئنة **28**

الشيزوفرينيا، التوهج النفسي، أحلام اليقظة، الفشل اللذيذ، الاكتئاب.

قصص الفرج **34**

ابن سمسمة، العطار الرضي، المنذر بن المغيرة، سوّار القاضي، سلمة النصراني، أبو المغيرة، الهبيري، وكيل زبيدة.

الفصل الثاني: الإذاعة خبر

الإذاعة خبر 43

الحجاج بن يوسف وجنوده، المؤتمر الصحفي، أسئلة لا نريدها، كتابة الخبر، نشرة الأخبار.

التحقيق الإذاعي 52

أسطورة عن نشوء التحقيق الإذاعي، عناصر التحقيق الإذاعي، ليكن تحقيقك جوابا عن سؤال مركزي، موسيقى؟ .

ورقة عن تحرير الحال 59

المقالات، التحقيقات، ملاحظات على نصين، الحدث الجاري، البحث التلفوني والميداني، العمق والتشرب، المصطلحات، التعميم السيء، الصور

الحياد 66

نموذج لـ (التحليل السياسي) 67

نموذج لـ (التقرير الإذاعي) 69

أسئلة وإجابات عن التقرير الإذاعي.

الفصل الثالث: الإذاعة أغنية

الإذاعة أغنية 75

عندي مشكلة مع صاحب المحطّة ، مثال على نسيان التخطيط ، الموسيقى والغناء في الإذاعة ، مثال على إذاعة فيها تقدير للتخطيط ، مذيعة برامج أغانٍ تحترم التخطيط ، موسيقى الإشارة ، اللوب السخيف ، هل نقرأ فوق الموسيقى ، أم كلثوم على الراديو ، الأغنية المخدومة إذاعياً ، لماذا الأغنية من الراديو أحلى من الأغنية من الكاسيت .

كوبليه متعوب عليه (فكرة كلثومية إذاعية) 84

الحب كله ، سيرة الحب ، هذه ليلتي ، ألف ليلة وليلة ، دارت الأيام ، يا مسهرني ، حيرت قلبي معاك .

فكرة كلثومية أخرى 86

أراك عصيّ الدمع ، أروح لمين ، اسأل روحك ، أغار من نسمة الجنوب ، أغداً ألقاك ، الآهات ، الأوّلة في الغرام ، أمل حياتي ، جددت حبك ، حبيبي يسعد أوقاته ، حيرت قلبي معاك ، دارت الأيام ، رق الحبيب ، شمس الأصيل ، فات الميعاد ، كل ليلة وكل يوم ، لسة فاكر ، يا مسهرني ، مصر تتحدث عن نفسها ، هذه ليلتي ، هوَّ صحيح ، يا ظالمني .

لكل مقام مقال (نموذج لبرنامج موسيقي) 97

همس وضوضاء (نموذج لبرنامج موسيقي) 103

الفصل الرابع: الإذاعة كلمة

الإذاعة كلمة 107

"نظرية" التكثيف، التكثيف والإذاعة، الكلمة المنطوقة، المذيع والنصّ.

صوت وصمت (الإلقاء الإذاعي) 110

وضّاحُ اليمن، حوار إذاعي 113

قصة وضاح اليمن في 50 كلمة 117

قصة وضاح اليمن في 40 كلمة، قصة وضاح اليمن في 30 كلمة، أخيرا: هل تريدها في عشرين؟ هاك:

غلط غلط 119

ليس عندها دم، النجار الطروب، مدارس بلا ترهيب، قاع الطنجرة، المخابرات منذ نعومة الأظفار، الأناقة خِلقة، مكان في الجنة، ثقل دم المذيعين، ظالم ومظلوم، العداوة المرغوبة، المراهقون الأعداء، برنامج فارغ.

الوحشية (تمثيلية إذاعية) 131

الإعلام (تمثيلية إذاعية) 136

الفصل الخامس: الإذاعة ثقافة

الإذاعة ثقافة 143

الأمير (عرض لكتاب ماكيافيللي) 144

بيتٌ من الشعر 148

شهوات النفس، شاعر أم ناقد، بناتي وسيئاتي، الشاعر اللصّ، قيس بن الخطيم.

أصحاب الواحدة: شعراء خلدتهم قصيدة يتيمة 157

عُروةُ بن حزام، ابن زُرَيْقٍ البغدادي.

دائرة المعارف 161

الشعر والقرآن، المتدارك بعد حين (حلقتان عن العروض) 163

بخيره وبشره.. هؤلاء صنعوا القرن العشرين 168

جمال عبد الناصر، نجيب محفوظ، ماوتسي تونغ، مارتن لوثر كنغ، غاندي.

لعلك تعرف 175

العُطاس، المذاقات، الحليب، الجبن، الهيليكوبتر، الكبد.

المجهولات العامّة 179

طبول إفريقيا، سرعة الصوت في الهواء، العينان تجسمان الأشياء، كيف يمكن إشعال النار بالجليد، الأسود والأبيض، النفط، رسالة الغفران، طنين البعوضة.

حاشية 185

وزارة إعلام أم مجلس أعلى للإعلام 188

منشورات معهد الإعلام بجامعة بيرزيت

بتمويل من مؤسسة هاينريخ بل

طبع في فلسطين

شباط – فبراير ٢٠٠٦